تحرير:

پافل فوكين

ترجمة: زياد الملا

دوستويفسكي

بلا رتوش

أدب

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

مكتبة ٦٧٠

telegram @t_pdf

دوستويفسكي بلا رتوش

تحرير بافل فوكين

ترجمة زياد الملا

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع 2021

مكتبة telegram @t_pdf

عن الكتاب

كتاب «دوستويفسكي بلا رتوش» ..

يعرض شخصية فلاديمير دوستويفسكي (1821 ـ 1881)، كما عرفها مجايلوه عن كثب. شهادات تستعيد صورة هذا الروائي الفذّ بحضورها الكامل: هيئته الخارجية، سلوكه اليومي، رحلاته خارج روسيا، مأكولاته المفضّلة، علاقاته النسائية، ديونه وإيراداته، المصائب التي واجهته خلال حياته المضطربة، وإذا بنا أمام شخصية مركّبة، هي مزيج من شخصياته الروائية نفسها بكل أحوالها المتبدّلة، وألغازها المعقّدة، وجنونها الطليق، وقبل ذلك كله، التأثير العاصف الذي أحدثه الكاتب في تاريخ الأدب الروسي، فهو أنجز ثماني روايات، و25 قصة طويلة، ومئات المقالات خلال 35 سنة.

دوستويفسكي:
أيقونة وعي الذات

أطلق الباحث الأمريكي روبرت جاكسون تسمية «أيقونة وعي الذات» على دوستويفسكي. عندما تقرأ روايات دوستويفسكي تشعر أنه إنسان أدرك أسرار الوجود بهذا القدر من العمق والنفاذ مثلما هي الحال في المعبد وأنت تقف أمام الأيقونة في أثناء الصلاة. ولكن إذا كنت ترى في مواضيع رسوم الأيقونات والوجوه، الواقع المتحوّل بنور العالم، ففي روايات دوستويفسكي تدرك الجوهر الرباني للخلق المطبوع في جسد المظهر الأرضي.

«ينتمي دوستويفسكي، لجهة نشاطه، إلى الفنانين الرومانسيين...» هذا ما ذكره فلاديمير سولوڤيوف بعد سنة من رحيل الكاتب.

اعترف المعاصرون بالطبيعة النبوية لشخصية دوستويفسكي في الاحتفالات البوشكينية لعام 1880 عندما أثارت كلمته البهجة إذ خلال لحظة كشف عن الوجه الحقيقي للمجتمع الروسي المتنوّر، العجيب في جماله ونبله. فروسيا القارئة ألقت نظرة فيها الدهشة على معبودها. وتجسّد، بنور جديد، كل نشاطه الأدبي الممتد لسنوات طويلة والذي أثار الجدالات والسجود والحيرة والذهول والارتعاش.

فجأة ودون وضوح يقيني برز في دور المعلم الروحي والمتنبئ. وكانت وفاة دوستويفسكي المباغتة قد أشاعت الاهتمام بالنبي الجديد وغير المتوقع بالنسبة إلى كل الظواهر، في وطنه.

«يبدو أن الفكر البشري قد وصل في داخله إلى الحد الأقصى وتراءى في عالم ما بعد الحد الأقصى... ويبدو أن أحداً ما أوقف يد الكاتب العظيم ولم يترك له المجال كي ينهي الرواية الأخيرة مزعجاً إياه بقوة تنبؤية هائلة. وهذا كان أقصى ما هو مسموح به للبشر، أن يقوموا به. بفضل دوستويفسكي تمكّن البشر أن يعرفوا أشياءً كثيرة عن ذواتهم، وما هو الشيء الذي لم يكونوا مستعدين بعد لإدراكه» – هذا ما كتبه فالنتين راسبوتين بعد مئة عام.

تثير شخصية دوستويفسكي الاهتمام بهذا القدر من الجبروت مثلما يثيره إبداعه. فالتاريخ الحياتي لهذا الإنسان لا يستوعبه الرأس. وخلال ستين عاماً عانى بقدر ما عانى جنس الدوستويفسكيين خلال خمسمئة عام (من ضمنها القرن العشرون العنيف). يبدو أحيانا أن القدر قد لعب معه في جميع تنويعات السير الذاتية البشرية، المدركة وغير المدركة. خذ أي موضوع لا على التعيين فتراه، على الأرجح وبشكل أو بأخر، موجوداً في حياة دوستويفسكي.

عائلة أرثوذكسية تقليدية بوجود أب قاسٍ وأم حنون مع نمط حياة متزنة ووجود مربية تروي الحكايات والأخ الأكبر والإخوة والأخوات الصغيرات

وبانسيون خاص والخبرة الأولى في الحياة الجماعية. أشهر الصيف في عزبة نبلاء حيث الغابة والحقل والبركة والتسلية ولوحات أعمال الفلاحين، ثم يأتي عالم المستشفى القاسي لأجل المرضى. وهنا أقرباء أثرياء من وسط التجار. الحزن بفقد الأم باكراً وتوديع المدينة مسقط الرأس والأسرة والشقيق.

في عامه السادس عشر في ثكنة المدرسة الحربية في بطرسبورغ. يلوح شبابه في التمارين العسكرية والمخططات والامتحانات، حدثت مأساة في العزبة إذ قتل الفلاحون الأرقاء الأب. بانتهاء المدرسة الحربية «نلت أول رتبة، ثم استقلت من العمل».

بدأت المعاناة والحاجة والفاقة ومغريات العاصمة. أولى المحاولات الأدبية الوهاجة. « في حياتي كل يوم ما أكثر الجديد والتبدلات والانطباعات وما أكثر الأمور المفيدة بالنسبة لي وما أكثر المنغصات والأمور الضارة وغيرها مما لا طاقة لي على التأمل فيها... أكتب بلا انقطاع... بلغ مجدي ذروته. كتبوا عني قرابة 35 مرة في مختلف النشرات». مجد عموم روسيا في 24 عاماً.

بعد سنة واحدة. برد الاغتراب واضطهاد من جانب الأصدقاء. البحث عن مكان في المجتمع. التعرف إلى أوساط الشبيبة، الراديكالية. المشاركة في جمعية سرية مناهضة للحكومة. الاعتقال والسجن في قلعة. التحقيق. حكم بالإعدام. اللحظات القاتلة على منصة الإعدام بانتظار الإعدام رمياً

بالرصاص. العفو السامي. الحرمان من النبالة ورتبة الضباط والحقوق المدنية.

«هل من المعقول أن لا أمسك القلم بيدي؟ يا إلهي! ما أكثر الشخصيات التي ظلت حية والتي أبدعتها من جديد. فهي ستهلك وتنطفئ في رأسي! نعم إذا كان من المستحيل أن أكتب فأنا سأهلك. من الأفضل أن أسجن /15/ سنة والقلم في اليد».

الأغلال. مرحلة الأميال العديدة عبر روسيا الثلجية والمتجمدة. في الانتقال لقاء مع زوجات الديسمبريين. سجن أومسك. أربع سنوات على أرضية خشب للنوم مع الجناة. ثم الخدمة العسكرية في سيميبالانتيسك النائية المنسية. تطور المرض العصبي – الصرع «أنا بانتظار شئ ما. لا أزال كما لو كنت مريضاً حتى الآن. يبدو لي أنه في وقت قريب، قريب جداً، سيحدث لي شئ ما حاسم حيث أنني أقترب من أزمة حياتي كلها، كما لو أنني نضجت لأجل شئ ما وأنه سيحدث شئ ما، ربما كان هادئاً وواضحاً وربما كان رهيباً، ولكن في جميع الأحوال حتمي، وإلا ستكون حياتي مهملة».

هاهو القيصر يفارق الحياة. تبدّل دوري في القسمة والنصيب. إمبراطور آخر يهب السعادة والحقوق السابقة. في الخامسة والثلاثين من العمر يلزم الأمر بالبدء بكل شئ من الصفر. تجري الحياة على قدم وساق. أرغب بالحب والنشاط والنجاح. ويلتقي دوستويفسكي في سيميبالاتينسك بإمرأة

يقرر الارتباط بها. هي أرملة أكبر سناً لديها ابن مراهق له طبع عصبي حماسي مفرط وصحة ضعيفة.

عاش دوستويفسكي سنة واحدة في تڤير ثم عاد بعدها من سيبيريا إلى بطرسبورغ. صار يكتب قصة طويلة وراء أخرى: «مذكرات بيت الموتى» رواية «المذلون والمهانون»... يقرر سوية مع الشقيق إصدار مجلة أدبية. يرحب الجيل الجديد من القراء ترحيباً مهيباً بالأديب المنقوم عليه.

حصل على جواز سفر وغادر إلى أوروبا: برلين، درسدن، هايدلبرغ، فرانكفورت، ڤيسبادن، ماينتس، كولن، باريس، لندن، دوسلدورف، جنيف، البندقية، ڤيينا.

يشتعل الغرام مع الكاتبة الشابة أپوليناريا سوسلوڤا ويتطور بتوتر وعصبية. تضطرب الحياة الأسروية. ومن جديد تطغى غيوم عدم الرضا السياسي. فجأة تغلق السلطات المجلة. يحاول سوية مع الشقيق استئناف إصدارها تحت تسمية أخرى. تغادر سوسلوڤا إلى خارج البلاد. يسرع الخطى في إثرها. فيسبادن، باريس، بادن – بادن، تورين، روما، نابولي، ليڤورنو، هامبورغ. حدثت قطيعة بين العاشقين. في هذا الوقت في موسكو تهمد الزوجة في السل الرئوي. وسرعان ما تفارق الحياة. بعدها بفترة وجيزة يغادر الشقيق الدنيا. «ها أنا بقيت، فجأة، وحيداً وصار وضعي مريعاً إذ تحطمت الحياة إلى نصفين. انتقلت إلى أحد النصفين حيث بقي كل شئ يدفعني للعيش، وفي الآخر كل ما هو مجهول وغريب. لا يوجد قلب بإمكانه أن

يحل محل الاثنين الذين فارقا الحياة. حرفياً – لم يبق ما يمكن أن أحيا لأجله». تمَّ إغلاق المجلة نهائياً. وفي أعناقي ديون بالآلاف علماً أنه يوجد ابن الزوجة وعائلة الشقيق.

في العام الثالث والأربعين أرمل. حب جديد ومشرق ونقي ونبيل بحيث يستحيل الإيمان به. رفيقة الدرب أصغر منه بخمسة وعشرين عاماً. هي أقرب إلى الابنة منها إلى الحبيبة. وهي لم تولد بعد عندما كان قد أصبح معروفاً لدى روسيا القارئة. مع ذلك سوف يتبيّن أن الزواج الثاني سعيد ومتين ومتواصل. يحل وقت الازدهار الإبداعي. وتظهر التحف العالمية بفضل ريشته.

يتجوّل أربع سنوات خارج الوطن في درسدن وهامبورغ وبادن – بادن وجنيف وساكسون ليه – بان وفيڤه وميلانو وبراغ ومن جديد درسدن وفيسبادن. محاولات حثيثة كي ينتشل نفسه من الفاقة. لعب بالروليت وخسارات وديون جديدة. نوبات صرع دائمة. ولادة الأطفال. موت الأول. عمل دؤوب.

العودة إلى روسيا. الحروب المتواصلة مع الدائنين. تنظيم ونجاح عمل النشر الخاص. تطور مرض جديد – انتفاخ الرئتين. العلاج بالمياه في ألمانيا. شراء دار في ستارايا روسا. وفاة الابن الأصغر. السفر إلى صحراء أوبتين. الخطاب البوشكيني. النصر. «تعيش هذه اللحظات ولأجلها أنت

تظهر في هذا العالم» مرض عنيف ورحيل يصعق روسيا. كتب ليون تولستوي في تلك الأيام:

«انفصل عني سند ما. لقد ذهلت وفيما بعد صار جلياً كم كان عزيزاً علي. وبكيت وأبكي الآن».

بكى عشرات الآلاف من معجبي دوستويفسكي.

حضرت بطرسبورغ بأسرها لتوديع الكاتب في يوم الدفن. وفود من موسكو ومدن روسيا الأخرى. أولياء العهد يعبرون عن حزنهم. موكب الجنازة يملأ شارع النيڤا كله. يحملون 67 إكليلاً وراء النعش. وتنشد 15فرقة كورال. وخصص الإمبراطور تقاعداً مدى الحياة للأرملة واليتامى.

ما أكثر المواضيع والدرامات في هذه العجالة من سيرة الحياة الخاصة. إنها تحتاج إلى عشرات القصص الطويلة والروايات. الابن المحبوب واليتيم. النبيل المقبل ونزيل الأشغال الشاقة المحروم من الحقوق. الضابط والجندي. الحالم والذرائعي. الفنان والمهندس. المعبود والمنبوذ. عضو جمعية سرية من أنصار الملكية. ليبرالي ومحافظ. ملحد ومسيحي. معتقل وجوّال. عشيق وزوج. أرمل وزعيم أسرة. أب وزوج الأم. مقامر وشغيل. مدين ودائن. أوروبي ووطني. موسكوڤي وبطرسبورغي. يمكن لصندوق دنيا الأدوار الاجتماعية لدوستويفسكي أن ندوّره بصورة متواصلة، وفي كل مرة تكون الزخرفة السيكولوجية للسلوك عجيبة لا تتكرر.

ثمة، أيضاً، صراع أدبي. كانت هناك مأساة مقتل بوشكين التي تم اعتبارها خسارة شخصية. وهناك الولع ببيلينسكي وحلقته الشابة. الصداقة والفراق عن نيكراسوف. الزمالة والقطيعة والعداوة والمهادنة مع تورغينيف. التّعرف إلى غيرتسين وأغاريف. لم يتم اللقاء مع ليون تولستوي. وهناك تاريخ من العلاقات الإنسانية والذهنية والروحية مع أبولون غريغوريف ونيقولاي ستراخوف وأبولون مايكوف وفيسيڤولود سولوڤييف وفلاديمير سولوڤييف.

وأخيراً، أو بالدرجة الأولى، هناك الإبداع. خلال خمس وثلاثين سنة – ثماني روايات كبيرة وخمس وعشرين قصة طويلة وقصيرة ومئات الصفحات من المقالات المنوعة والنقد الأدبي. عشرات الأبطال: ماكارديفوشكين، غوليادكين، السيد بروخارتشين، غورنيشيكوف، نيللي، الأمير فولكوفسكي، رجل المفارقة السري، راسكولنيكوف، صونيا، مارميرلادوف، سڤيد ريغايلوف، بورفيري بتروڤيتس، لوجين، دونيشكا، كاترينا ايڤانوڤنا، ألكسي ايڤانوڤيتس، بولينا، الأمير ميشكين، روغوجين، نايتاسيافيليپوڤنا، آغلايا، ليبديف، عائلة ايبانتشين، الجنرال ايڤولكين، ڤيلتشانينوف، تروسوتسكي، ستاڤروغين، شاتون، كيريلوف، پيوتر ڤيرخوڤينسكي، ستيبان تروفيموڤيتس، ڤارڤارا بتروڤنا، الزوجان ليمكيه، فيديكا كاتروجني، ليپوتين، ڤيرسيلوف، أركادي دولغوروكي، ماكار، فيودور پاڤلوڤيتس كارامازوف، ايڤان، ميتيا، أليوشا، سميردياكوف، راكيتين، كوليا كراسوتكين، ابليوشيتشكا سنيغيريف، المفتش العظيم ومرافقه بلينيك، كروتكايا سميشنوي... ما أكثر

الشخصيات والأفكار وحالات الشغف والولع! كل واحد « مأخوذ من القلب» كتب ستراخوف إلى دوستويفسكي: «من الواضح أنكم، من حيث المضمون ووفرة وتنوع الأفكار، أول إنسان عندنا وإن تولستوي نفسه، بالمقارنة معكم، وحيد الجانب».

كانوا يعاتبونه بأن رواياته تتضمن أحداثاً متكدسة بكثافة خيالية وبعيدة عن الاحتمال وأن قراءتها مستحيلة – مبرقشة في العيون. بينما هو عاش هكذا! كانت هذه هي الوتيرة الطبيعية لحياته. «عند الهاوية على طرف». بين الانسجام المطلق والفوضى القاتلة. «بين المثل الأعلى لمريم العذراء وسودوم المثل الأعلى» الورع والإثم. الجنة والنار.

شخصية فريدة في نوعها، خارقة!

منْ فقط حاول فك لغزه. يبدأ تاريخ الفلسفة الروسية من التأملات في روايات دوستويفسكي. فلاديمير سولوفيوف، ڤاسيلي روزانوف، ديمتري ميريجكوفسكي، ليف شيستوف، سيرغي بولڤاكوف، نيقولاي بيردياييف – ليس هناك من مفكر روسي مهم يمكنه أن يمرَّ مرور الكرام على دوستويفسكي. نعم في الغرب أيضاً إنه حدث نادر.

يتوجه المختصون في الحقوق وعلم النفس والتربية والتاريخ والسياسة واللاهوت إلى تراث دوستويفسكي وإلى ظاهرة هذه الشخصية. اعترف آينشتاين أن روايات دوستويفسكي قدمت له لأجل فهم نظرية النسبية أكثر مما قدمه كل تراث ايلير الرياضي. واعترف القديس الأرثوذكسي الصربي

يوسيتين: «صار دوستويفسكي معلمي بدءاً من الخامسة عشر. واعترف أنه معذّبي» وماذا يمكن قوله عن إخوانه في ورشة الكتابة وعن الفنانين والمخرجين والموسيقيين والسينمائيين. وقد صاغت شخصية دوستويفسكي وطريقه الحياتي وتراثه الإبداعي، مجالاً كاملاً من نشاط البشرية الروحي.

من المثير للفضول أن أول رواية عن دوستويفسكي ظهرت في حياته إذ أصدر المدعو بول غريم في عام **1868** في ڤيورتسبرغ – باللغة الفرنسية كتاب: « أسرار البلاط القيصري في عهد نيقولاي الأول». وفيه تتطور الأحداث في عام **1855**. حسب رواية المؤلف عاد دوستويفسكي المسمى بإسمه الكامل، من سيبيريا ثم أخذ من جديد، يدبر المكائد، يعتقل من جديد ويحكم عليه بالنفي إلى سيبيريا إلا أنه يفارق الحياة وهو في طريقه إلى قلعة شليسيلبورغ. حصلت زوجة دوستويفسكي على العفو من القيصر لأجل الزوج ولكن بعد أن عرفت وفاته تلجأ إلى الدير. ونيقولاي الأول نفسه ينهي حياته بالانتحار. هذا الكلام الفارغ أثار استياء دوستويفسكي حتى أنه أراد الاحتجاج في الجرائد الفرنسية وبدأ كتابة الدحض ولكن بعد ذلك – فترت همته وتهادن مع الوضع. من الممتع ذكر الكاتب الجنوب إفريقي جون. م. كويتزي الحائز مرتين على جائزة البوكر والحائز على جائزة نوبل لعام **2003** في روايته « سيد بطرسبورغ (في الترجمة الروسية – « خريف في بطرسبورغ» عام **1994**) يصف فيها أحداثاً لا تقل خيالية « من حياة دوستويفسكي» وفيها تلميحات بالزعم

بوجود ميل مرضي لدى الكاتب نحو الفتيات الصغيرات ومشاركته المغفلة في طبعات فرنسية خلاعية.

في عام 1988 رسم الفنان إيغور كامينيف صورة « المعذب الأكبر المقدس» دوستويفسكي بعد أن وحد على اللوحة التوتر الذهني لبورتريه ڤاسيلي بيروف الرائعة مع الأيقونة الأرثوذكسية. في يدي دوستويفسكي كما لدى الرسول بولص – الإنجيل. وفوق الرأس الهالة النورانية الذهبية.

وفي يومنا هذا أيضاً يظل دوستويفسكي الشخصية التي «قدّم الرب فيها الألغاز» هنا تتلاقى الشطآن. هنا تتعايش جميع التناقضات... هنا يتصارع الشيطان مع الرب وأما حقل المعركة فهو فؤاد البشر».

پافل فوكين

telegram @t_pdf مكتبة

الشخصية

الهيئة:

أناتوليا ياكوفليفنا بانايفا (غولوفاتشيفا 1819 – 1893) أديبة وكاتبة ذكريات. تزوجت، بعقد مدني، بالشاعر الروسي نيقولاي نيكراسوف:

من النظرة الأولى إلى دوستويفسكي كان بادياً للعيان إنساناً عصبياً وحساساً بصورة مرعبة، وكان نحيلاً، ضئيل الحجم، أشقر بوجه ذي لون منحرف الصحة. وعيناه الرماديتان كما لو كانتا تنتقلان، باضطراب، من مادة إلى مادة بينما كانت الشفتان الشاحبتان تتشنجان بعصبية.

ستيبان ديمتريفيتش يانوفسكي 1815 – 1897، طبيب ورفيق شباب دوستويفسكي:

أقدّم لكم، حرفياً الوصف السليم للهيئة الخارجية للمذكور فيودور دوستويفسكي كما لو كان عليه في عام 1846. كان طوله أقصر من المتوسط. عظامه عريضة، وكان عريضاً خاصة في الكتفين والصدر، وله رأس متناسب، بيد أن الجبين كان متقدماً للغاية مع تلال جبهية ناتئة بصورة ملحوظة، والعينان غير كبيرتين وهما رماديتان فاتحتان وحيويتان للغاية، والشفتان رقيقتان ومضغوطتان بحيث تضفيان على الوجه بكليته تعبيراً من نوع الطيبة والحنان المركزتين، وأما الشعر فكان أكثر من فاتح وهو، تقريباً

أبيض ودقيق وناعم، وعظام اليدين والقدمين كبيرة بصورة ملحوظة. كان نظيفاً في هندامه، ويمكن القول أنيقاً. وهو يرتدي سترة محاكة بصورة رائعة من الجوخِ الفائق الروعة وصدرية سوداء ورداء هولندياً ببياض لا شائبة به وقبعة عالية (اسطوانية). وإذا كان هناك ما يخرق اتساق الهندام ككل فهو ذاك الحذاء غير الجميل تماماً ولم يكن أخرقاً مثل تلاميذ المؤسسات العسكرية. بل مثل الذين أتموا الدراسة.

جمجمة دوستويفسكي رائعة بالفعل. وقد جعلت الجبهة العريضة مقارنة بحجم الرأس بكليته والجيوب الجبهية الناتئة بحدة وأطراف حجاج العين البارزة أكثر من اللزوم وفي ظل الانعدام الكامل للتلال في الجزء الأسفل من عظم القذالي، جعلت رأس فيودور دوستويفسكي شبيهاً برأس سقراط.

نيقولاي نيقولايفتش ستراخوف 1828 – 1896، ناقد أدبي وأحد المحررين في مجلتي الأخوين دوستويفسكي «الوقت» و«العصر»:

أتذكر الهيئة الخارجية له بصورة حية إذ كان له، حينذاك (في نهاية عام 1859) شاربان ولا شئ غير ذلك، ورغم الجبين الضخم والعينين الرائعتين كان يتمتع بهيئة عسكرية بحتة أي سمات الوجه، الشعبية.

آنّا غريغوروفنا دوستويفسكايا (كنيتها قبل الزواج سنيتكينا **1846 – 1918**) الزوجة الثانية لفيودور دوستويفسكي ومؤلفة «الذكريات»:

بدا لي دوستويفسكي، للوهلة الأولى، عجوزاً بما يكفي. ولكن ما إن بدأ الحديث حتى أصبح أكثر فتوة وأنا ظننت بأنه من المستبعد أن يكون أكثر من خمس – سبع وثلاثين سنة. كان متوسط الطول وذا قامة مستقيمة. كان شعره الكستنائي الفاتح بل حتى الأمغر معطراً تعطيراً كثيفاً وأملساً بدقة. ولكن ما أدهشني هوعيناه. فهما كانتا مختلفتين. إحداهما سمراء داكنة (بندقية اللون) وفي الأخرى تملأ الحدقة مجال العين كلها ويصبح لون العين غير ملحوظ(1). أضفت ازدواجية العينين تعبيراً غامضاً على نظرة دوستويفسكي الشاحب والمسقام أليفاً للغاية، وعلى الأرجح بسبب أنني كنت أرى بورتريهاته سابقاً.

كان يرتدي الجاكيت المصنوع من الجوخ وبلون أزرق وهو مستعمل بنصف عمر إلا أنه كان في ملابس داخلية بلون الثلج.

أناتولي ألكسندروفيتس ألكسندروف (**1861 – 1930**)، أديب ومحرر جريدة «الكلمة الروسية» ومجلة «المقالة الروسية»:

كان كهلاً إلا أنه لا يزال نشيطاً وحيوياً بلباس بسيط وشيب قليل في اللحية وبوجه ذي تكوين روسي بحت. خفيف الحركة وملهم بصورة غير

عادية. جبهته كبيرة للغاية وذكية. إنه لطيف، دمث ذو صوت قلبي حميمي وعيناه تثيران الدهشة.

عيناه متألقتان ويقظتان إلى أبعد الحدود. وقد بدا أنهما تحدقان، مباشرة في النفس وتريان هذه النفس رؤية كاملة بكل منعرجاتها وأسرارها. ولكن لم تكن هناك الإدانة الصارمة ولا الاستهزاء الخبيث أو العادي بل ثمة ما هو حيوي وحنون وأليف ولطيف ينشد الصراحة والثقة. الشيء نفسه دوى في الصوت أيضاً، هذا الصوت الوفي والودي بصورة استثنائية وخارقة.

آنّا غريغوروفنا دوستويفسكايا:

في هذا الشتاء (1871 – 1872) رجا پاڤل تريتيكوف مالك متحف اللوحات الموسكوڤي الشهير، زوجي أن يحصل منه على إمكانية رسم بورتريه له لأجل المتحف. ولهذا الغرض قدم إلى موسكو الفنان الشهير ڤاسيلي پيروف. وقبل الشروع في العمل كان پيروف يزورنا كل يوم خلال أسبوع كامل كي يتأمل فيودور دوستويفسكي في مختلف الأمزجة ويتحادث ويثير الجدالات وكان قادراً على تسجيل التعبير الأكثر نموذجية على وجه الزوج وبالذات ما كان يتسم به فيودور دوستويفسكي عندما كان منغمساً في أفكاره الفنية. يمكن القول إن پيروف التقط لحظة إبداع دوستويفسكي في البورتريه. وقد لاحظت هذا التعبير، غير مرة، على وجه فيودور دوستويفسكي عندما كان يحدث أن أدخل إلى مكان جلوسه حيث

تلاحظ أنه كما لو كان «ينظر إلى ذاته» وتغادر المكان دون أن ينبس ببنت شفة.

وتدرك لاحقاً أن فيودور دوستويفسكي كان منهمكاً في أفكاره لدرجة أنه لم يلحظ قدومي ولا يصدق أنني قد دخلت إليه.

يفغيني نيقولا يفيتش أپوتشينين (1858 – 1928) كاتب وآركيوغرافي:

المظهر الخارجي غير مميّز: محدودب الظهر قليلاً، الشعر أمغر واللحية أيضاً. الوجه نحيف مع نتوء في العظم الوجني. ثمة ثؤلول على الخد الأيمن. العينان عابستان وتلوح فيهما من وقت لآخر، الريبة وعدم الثقة إلا أن الجزء الأكبر مرئي مثل تأمل ما وكما لو كان هناك حزن.

ألكسندرا نيقولا يفنا توليفيروفا (كنيتها قبل الزواج سوسوكولوڤا 1842– 1918) كاتبة ومشاركة في الحركة الغاريبالدية:

إن أكثر ما أدهشني في وجه فيودور دوستويفسكي هو عيناه. فهما بندقيتا اللون، عميقتان، والرأس مغطى بشعر كستنائي غامق مع قليل من الشيب. كان الانطباع الذي تركته قوياً مثلما هي الحال في الموعد الأول والمواعيد التالية سواءً بسواء. ورغم أنهما كانتا تبرقان بصورة محمومة فقد بدتا أنهما هامدتان خامدتان ولكن في الحالتين كانتا تتركان انطباعاً قوياً. وحدث هذا

الأمر أيضاً بسبب أن فيودور دوستويفسكي، كما يقال، كان يحدق، دوماً، بنظرةٍ ثاقبة.

كريستينا دانيلوفنا ألتشيفسكايا (كنيتها قبل الزواج جورڤليڤا **1841–1920**) ناشطة في مجال التعليم وكاتبة اجتماعية وكاتبة ذكريات:

كان يقف أمامي إنسان غير طويل القامة، نحيل، غير أنيق في لباسه. ما كنت أسميته عجوزاً ولم ألحظ أي علامات تدل على العجز إذ لا يوجد صلع ولا شيب وحتى أنه كان من الصعب تحديد عمره بالضبط لأنه في التمعن بهذا الوجه المعذب والعينين المتهدلتين الهامدتين وغير الكبيرتين والرموش غير الحادة والتي يملك كل واحد منها سيرته الذاتية يمكن القول إن هذا الإنسان كان يفكر كثيراً ويتألم كثيراً ويتحمل كثيراً. بدا حتى أن الحياة قد همدت تقريباً في هذا الجسد الضعيف. وعندما جلسنا عن قرب **Vis-à-Vis** وبدأ يتكلم بصوته الهادئ والضعيف أنا لم أخفض عيني عنه، وهو لم يكن مجرد شخص إطلاقاً بل تمثالاً من المفرح النظر إليه حتى الشبع.

ميخائيل ألكسندروفيتش ألكسندروف: منضد ومرتب في عدد من مطابع بطرسبورغ التي تمت فيها في سبيعينات القرن التاسع عشر طباعة مؤلفات دوستويفسكي:

بدا لي، للوهلة الأولى، إنساناً قاسياً وغير مثقف إطلاقاً بل على الأرجح شخصاً بسيطاً وفظاً نوعاً ما. ولكن بما أنني كنت أعرف أنني أرى أمامي مثقفاً، وللعلم مثقفاً بدرجة رفيعة فقد أدهشني، قبل كل شئ، النموذج الشعبي الروسي لمظهره الخارجي. بيد أن يديه الصغيرتين وإن كانتا، بالطبع، نظيفتين وناعمتين وتمثلان آثار العمل الثقيل والقاسي فقد عملتا، أكثر فأكثر، على تقوية الانطباع الأخير. أما الصوت والسلوك فقد أكملاه... وفي هذا السياق كله كان فيودور دوستويفسكي الذي يرتدي معطف فرو صغير من السمور وهو نحيف بعينين متهدلتين ولحية طويلة بلون أشقر وأمغر وشعر الرأس باللون ذاته، كان يذكرني، بهيأته، بتاجر صناعي نشيط وذكي إلا أنه تاجر شبيه بالبوياري(2) المفكر من أزمنة روسيا ما قبل بطرسبورغ كما يصوره فنانونا في اللوحات التاريخية.

فسيفولود سيرغييفيتش سولوفيوف **1849 – 1903**، روائي وشاعر وناقد أدبي ابن المؤلف سيرغي سولوڤيوف وشقيق الفيلسوف فلاديمير سولوڤيوف:

كان أمامي إنساناً متوسط الطول، نحيلاً. وقد بدا لي أنه أصغر بكثير من عمره الاثنتين والخمسين سنة. لحيته شقراء غير كثيفة وجبهته عالية. وشعره لم يخطه الشيب إلا أنه صار أقل كثافة وله عينان فاتحتان بندقيتا اللون وأما وجهه فقد بدا بسيطاً وغير جميل من النظرة الأولى. ولكن كل هذا

كان الانطباع الأول اللحظي – لقد انطبع هذا الوجه في الذاكرة مباشرة وإلى الأبد. فهو كان يحمل بصمة الحياة الروحية الفريدة. لوحظ عنده الكثير من السقم – كان الجلد رقيقاً وشاحباً كما لو كان شمعياً. حدث أن شاهدت في حياتي تلك الوجوه التي تركت مثل هذا الانطباع في السجون. كان أصحابها يقبعون في سجون انفرادية وهم من الطوائف المتعصبة. وسرعان ما اعتدت لاحقاً على وجهه ولم أعد ألاحظ هذا التشابه وهذه الانطباعات. ولكن السهرة الأولى أذهلتني لدرجة لا أستطيع تسجيلها...

فارفارا فاسيليفنا تيموفييفا (و. پاتشينكوفسكايا **1850 – 1831**) أديبة وكاتبة ذكريات:

في العشرين من كانون الأول (عام **1872**) عرفت أن كل شئ قد تقرر وأنني أنا رئيس تحرير « المواطن» – هكذا يبدأ فيودور دوستويفسكي «مقدمته» («يوميات كاتب» **1873**) وفي اليوم نفسه مساءً رأيته للمرة الأولى في مطبعة ترانشيل حيث كنت أقرأ، وقتذاك، بروفة هذه المجلة...

كان شاحباً للغاية – شحوباً ترابياً سقيماً – كهلاً مرهقاً أو عليلاً بوجه كئيب ومنهك وهو مغطى مثل الشبكة بظلال معبرة للغاية بسبب حركة العضلات المتماسكة بتوتر كما لو كانت كل عضلة على هذا الوجه تشكل مصدر إلهام للشعور والفكر.

وقد انفجرت هذه المشاعر والأفكار إلى الخارج دون وازع إلا أن الإرادة الحديدية لهذا الإنسان النحيف والمكتنز في الآن ذاته وذي المنكبين العريضين والهادئ والمتجهم، لم تسمح لها بالخروج. كان منطوياً بكليته – لا حركات ولا إشارة واحدة – بل فقط كانت هناك الشفتان الرقيقتان والممتقعتان تتشنجان بعصبية. ولسبب ما ذكرني الانطباع العام، من النظرة الأولى، بعسكري «مجرد من رتبته» كما حدث أن رأيته في طفولتي– بشكل عام ذكرني بسجن ومستشفى وغيرهما من «الأهوال» من أزمنة «قانون القنانة»... وهذا التذكير وحده قد أثارني حتى أعماق الجسد...

رأيت فيودور دوستويفسكي، مرة ثانية، بعد الأعياد. ما أن دخلت إلى المكتب حتى صادفته جالساً في الزاوية بالقرب من الأبواب بجانب منضدة كان يعمل عليها، عادة، مصحح البروفات في المطبعة. هنا المصحح السابق ترانشيل. قدمني إلى فيودور دوستويفسكي: اسمحوا لي أن أعرّفكم: إنها مدققة أعمالكم ڤارڤارا تيموفييڤا.

رئيس تحرير «المواطن» فيودور دوستويفسكي. نهض فيودور دوستويفسكي وانحنى قليلاً وصافحني بصمت. كانت يده باردة جافة كما لو كانت بلا حياة ناهيك أن كل شئ فيه بدا في ذاك اليوم بلا حياة. حركات واهنة تتحقق بجهد جهيد وصوت غير مسموع وعينان هامدتان مندفعتان نحوي بنقطتين لا حراك فيهما.

بالذات في نهاية آذار كنا نشتغل، حتى وقت متأخر أنا وفيودور دوستويفسكي. كان يجلس، مثلما هي الحال دوماً، في الزاوية خلف الطاولة وأنا بجانبه وراء المكتب. كنت أدقق تصحيحاته وبعد قراءة بعض الأعمدة كنت أسلّمه للتدقيق والتوقيع. «يومياته» في هذا العدد، كانت جزئياً ذات مضمون فلسفي وهي هامة بالنسبة إلي لأنه ورد فيها عن معرض لوحات المدرسة الروسية الجديدة التي شاهدتها لتوي مع عدد من معارفي الأدباء. بيد أن فيودور دوستويفسكي وجد فيها شيئاً آخر تماماً يختلف عما رآه معارفي من الأدباء...

كانت المقالة مكتوبة بشغف، فهو، على فكرة كان يكتب كل شئ، بشغف. وتلقيت أنا هذا الشغف الدافئ. وللمرة الأولى شعرت حينذاك بفتنته التي لا تقاوم. كان رأسي يغلي في نار أفكاره. وبدت لي هذه الأفكار مفهومة وتغلغلت في أعماقي كما لو كانت أفكاري الخاصة بي. ففيها كان، أيضاً، شئ ما قريب مني إذ ذكرتني الكلمات عن المسيح والإنجيل بوالدتي – المرأة المتقدة إيماناً والتي عانت، في وقت مضى، «إلحادي»... وأنا عدت تماماً الآن من بطرسبورغ إلى مسقط الرأس، ومسقط الرأس هذا هو أفكار فيودور دوستويفسكي المسيحية.

وفجأة، وأنا لا أعرف لماذا شدني شئ ما للتحديق به ولكنني أدرت ررأسي قليلاً، واضطربت بصورة لا إرادية. كان فيودور دوستويفسكي ينظر

إلي بثبات بذاك التعبير كما لو أنه يراقبني منذ فترة بعيدة وانتظر كي ألقي نظرة...

وقتذاك وبعد منتصف الليل اقتربت منه كي أودعه وهو، بدوره، نهض وشدّ على يدي بقوة وحدّق بي تماماً كما لو كان يبحث في وجهي عن انطباعاتي عما قرأته وسألني بدقة: ماذا أظن؟

هل فهمت شيئاً ما؟

بيد أنني وقفت أمامه مثل البكماء: لشد ما أدهشني وجهه! نعم، إنه الوجه الحقيقي لدوستويفسكي تماماً كما كنت أتصوره و أنا أقرأ رواياته!

(1) – في أثناء نوبة الصرع كان دوستويفسكي عند الوقوع، يصطدم بمادة حادة بحيث كان يجرح عينه اليمنى. أخذ يخضع للعلاج تحت إشراف البروفسور يونغيه الذي وصف له أن ينقّط في العين، الأتروبين الذي بفضله توسعت الحدقة توسعاً ملحوظاً (ملاحظة من آنّا دوستويفسكايا).

(2) – البويار فئة عليا من الإقطاعيين في روسيا في القرون ٩ – ١٧ (المترجم).

الطبـع

ايلينا ألكسييفنا شتاكينشنايدر (1836 – 1897) ابنة المعماري الشهير أندريه شتاكينشنايدر، مشاركة في الحركة النسائية:

كان إنساناً عجيباً. يواسي البعض ويستثير آخرين. كان جميع الطامحين المتعطشين للحقيقة يندفعون بثبات حوله. ومع استثناءات طفيفة كان جميع زملائه في الأدب لا يحبونه.

كانوا يقولون ويواصلون القول إنه كان يفكر بنفسه كثيراً. وأنا امتلكت الجرأة كي أوكد أنه نادراً ما كان يفكر بذاته وأنه كان يعرف قيمته ولا يقدّر ذاته بصورة فوقية أكثر من اللزوم، وإلا لكان أكثر تعجرفاً وهدوءً ولكانت تشنجاته وتقلباته أقل.

لم يكن يدرك بالكامل قوته الروحية ولكن لم يستطع أن لا يشعر وأن لا يرى انعكاسها على الآخرين لا سيما في السنوات الأخيرة من حياته. وهذا كافٍ كي يفكر كثيراً في ذاته، على فكرة، لم يكن يفكر كثيراً بصدد الذات وإلا لما كان يتأمل، بصورة مذنبة عندما ينطق بالوقاحات ولكان نطق بهذه الوقاحات بشكل آخر...

كان مريضاً ذا أهواء وتقلبات وينطق بوقاحاته بسبب هذه الأهواء والتقلبات وليس بسبب الغطرسة.

آنّا غريغوريفنا دوستويفسكايا:

كان فيودور دوستويفسكي قادراً أن يكون فتاناً وغالباً ما كنت اضطر إلى مراقبة كيف أن البشر، حتى أولئك المتحاملين عليه قد وقعوا تحت تأثير سحره وفتنته.

ألكسنر ايغوروفيتش ريزنكامف: (**1821- 1895**) طبي واختصاصي في علم النبات ورفيق شباب دوستويفسكي:

(في الشباب) كان يحب الشعر بولع إلا أنه يكتب النثر فحسب لأنه لم يكن لديه الصبر لصياغة القوافي. وما إن كان ينكب على مادة ما إحساساً منه بإلهامها حتى بدا بأنه يغلي ويفور. كانت الأفكار تولد في الرأس مثل الرذاذ في الدوامة. في هذا الوقت وصل إلى حالة من النشوة الروحية إذ خرج إلقاؤه الجميل الطبيعي من حدود رباطة الجأش المسرحية. وصوته الأبح من الطبيعة جعل منه صخاباً وكان الزبد يتجمع عند الفم كما كان يقوم بحركات حيث يصرخ ويبصق من حواليه...

صوفيا فاسيليفنا كوفاليوفسكايا: (كنيتها قبل الزواج كورڤين – كروكوفسكايا **1850 - 1891**) رياضية فذة وكاتبة (رياضية أي اختصاصية في الرياضيات):

لم يكن فيودور دوستويفسكي يستطيع تحمل الأحاديث العامة. كان ينطق فقط بالمونولوجات وهذا كان يتم فقط بشرط أن يكون جميع الحضور لطفاء قريبين من الفؤاد وأن يصغوا إليه باهتمام شديد. علماً أنه إذا تم تنفيذ هذا الشرط يكون بإمكانه التكلم بصورة جيدة وفنية ومكهربة بشكل لا مثيل له.

نيقولاي نيقولايفيتش فون – فوخت من معارف دوستويفسكي:

كان دوستويفسكي يتكلم ببطء وبتركيز، وكان ملحوظاً أنه، في هذا الوقت، يجري في رأسه عمل فكري هائل. وعيناه الثاقبتان الفطنتان وغير الكبيرتين بلونهما الرمادي تقتحم كيان المستمع. ففي هاتين العينين كان يتجسد دوماً اللطف ودماثة الخلق إلا أنهما كانتا، أحياناً، تبدأان بالتألق بنور مضمر وشرير، وبالذات في تلك اللحظات عندما كان يتناول المسائل التي تثير اهتمامه بعمق. بيد أن هذا كان يجري بسرعة وتضاء العينان، من جديد، بهدوء ولطف.

ألكسندر ايغوروفيتش فرانكيل، بارون (1833 – بعد 1912) حقوقي ورحالة ودبلوماسي:

كان أسلوب حديثه متميزاً. وبشكل عام، كان يتكلم بصوت خفيض، وجزئياً كيف يبدأ حتى بالهمس إلا أنه كلما كان يزداد حماساً يصبح صوته

أعلى دوياً. وفي أثناء حالات القلق البارد يأخذ الكلام لاهثاً ويصفَد مستمعه بولع الحديث.

صوفيا فاسيليفا كوفاليوفا:

من عادته عندما كان يضطرب ينكمش وحرفياً كان يطلق الكلمات كالرصاص.

ماريا ألكسندروفنا ايفانوفا (1848 – 1929) ابنة أخت دوستويفسكي، ابنة الأخت الصغرى ڤيرا:

من المعروف أن فيودور دوستويفسكي كان يتكلم بشئ من الجاذبية وببلاغة ساحرة إلا أنه في هذا المجال كانت لديه عادة قاتلة غالباً ما نصادفها في حالات مماثلة وهي أن يمسك المتحدث معه من الزر أو من ذيل الثوب. اقتضى الأمر، ذات مرة، أن تكلم مع السيدة الإمبراطورة ماريا فيودوروڤنا وجهاً لوجه. كانت المسألة حيوية للغاية وفيودور دوستويفسكي شغف بالحديث وكان فزعه شديداً عندما لاحظ، بعد أن أتته الصحوة، أنه يمسك بها من الرداء. وقد تبين أن الملكة في أثناء الحديث تراجعت باستغراب بحيث تم قلع الدانتيلا إلا أنها، مع هذا، لم ترغب مقاطعته لأنها هي نفسها أثيرت بكلامه وكانت متأثرة لدرجة أن الدموع ظهرت في عينيها.

أخذ فيودور دوستويفسكي، بالطبع، يعتذر اعتذاراً شديداً إلا أن الملكة رجته أن لا يقلق ويواصل حديثه...

فسيفولود سيرغييفيتش سولوفيوف:

كان الشخص الأكثر إخلاصاً ووفاء لذا غالباً ما نلاحظ في كلماته وآرائه وأحكامه تناقضات كثيرة. ولكن هل كان محقاً أم لا فهو دوماً كان يتكلم بالحمية نفسها وبقناعة لأنه كان يفصح فقط عما يفكر به وما يؤمن به في هذه اللحظة.

فلاديمير بتروفيتش ميشيرسكي (1839 – 1914) كاتب ومحرر وناشر الأسبوعية «المواطن»:

لم يكن هناك إنسان أكثر طيبة من دوستويفسكي... فهو كان مستعداً للتضحية بكل شئ، بالحياة وبآخر قرش لمساعدة الآخر. ولكن غالباً ما كنت أسمع أنه لا أحد برز كإنسان شرير مثله... وبالفعل كان يحدث، في الأمسيات حيث لا يزال جميع الجالسين من المقربين، يشرع دوستويفسكي بقص الأحاديث الساحرة بفطنة وحدة ذهن ومنطق أصيل...

صوفيا فاسيليفنا كوفاليوفسكايا:

مثله مثل جميع العصبيين كان يعاني خجلاً مضجراً عندما يجد نفسه في وسط لا يعرفه. وكلما كان هذا الوسط أكثر حماقة وأكثر نفوراً ونكرة يزداد خجله حدة. وعلى ما يبدو كان يرغب برمي هذا الضجر على شخص معين من الحضور.

ميخائيل ألكسندروفيتش ألكسندروف: على فكرة وجدت تحت تأثير أولى الانطباعات أن فيودور دوستويفسكي كان شخصاً موسوساً شكوكاً سئ الظن. وهكذا لاحظت، مثلاً، أنه، في حديثه معي، كان ينظر مباشرة في عيني، نظرة ثاقبة أو، بشكل عام إلى المحيَا ولم يتعجل في نقل النظرة إلى شئ آخر عندما تتقابل النظرات ولكن يصبح الوضع محرجاً تحت تأثير هذه النظرة الهادئة – الثاقبة. وفي ما بعد عندما عرفني فيودور دوستويفسكي فهذا لم يعد يستخدم هذه الطريقة في الحديث معي، ورغم أنه ظل، كسابق عهده، ينظر إلي في الوجه فقد كانت هذه النظرة، ببساطة، هادئة...

ألكسندرا نيقولايفنا توليفيروفا:

رغم أنه كان متزناً في التعامل وصريحاً دوماً كان التواجد معه، على نحوما، جيداً على وجه الخصوص. في الغالب عندما كان يخرج من

مكتبه، وكما لو كان لم يستطع التعرف بالزائر– ينحني قليلاً ويتقلب. وعند أول كلمة يمد يديه النحيلتين الجافتين للمصافحة بعصبية. ولكن هذا لم يستمر طويلاً– إذ بعد ذلك إما أن يغادر على أساس أنه لديه عمل عاجل أو يبقى في مكانه يصغي إلى الحديث حتى النهاية مع الإحساس بالمشاركة الكاملة الدافئة. وكان يجيب عن الأسئلة مباشرةً وبإخلاص...

فارفا فاسيليفنا تيموفييفا:

كان الضحك عنده دوماً، متقطعاً وقصيراً ولكنه مخلص وأنيس إلى أبعد الحدود. وهو نادراً ما كان يضحك.

لودميلا خريستوفوروفنا سيمونوف – خوخرياكوفا (كنيتها قبل الزواج ريبينديرِ **1838 – 1906**) كاتبة وشخصية اجتماعية:

كان فيودور دوستويفسكي إنساناً حساساً وعصبياً وسريع التهيج إلى أقصى حد إلا أنه طيب ونقي القلب ومتجاوب مع الآخرين بشعور صريح. هذا وتعود الانتقالات السريعة من الحنان الفائق والمودة إلى انفجارات التأفف والضجر، إلى جسده العليل (بسبب الأشغال الشاقة ونوبات المرض)...

ماريا ألكسندروفنا ايفانوفا:

تولع دوستويفسكي، بسهولة، بالبشر وكان سريع الوقوع في الحب.

فسيفولود سيرغييفيتش سولوفيوف:

كان أحياناً بشوشاً إلى أقصى حد وفي أثناء البشاشة كان يجذب إليه الآخرين بصورة حاسمة. في مثل هذا المزاج غالباً ما كان يكرر كلمة «عزيزي». إنها فعلاً، كلمة لطيفة ومحببة يحبها الكثير من الروس إلا أنني، حتى الآن، لم أعرف أحداً خرجت من فمه بهذا القدر من المودة والمحبة...

فلاديمير بتروفيتش ميشيرسكي:

كان فرح دوستويفسكي عندما يلتقط أثر أو علامات إنسان موهوب، مؤثراً ومميزاً.

أناتولي ألكسندروفيتش ألكسندروف:

ثمة خاصية رائعة ونادرة أدهشتني في هذا الإنسان الكبير وهذا الراوي الرائع وهي القدرة لا على التكلم بصورة جيدة فحسب بل على الإصغاء العجيب أيضاً، كان يصغي إلى محدثه بذاك الاهتمام والرغبة والتأمل الجدي بحيث كان يبدأ الكلام حول كل شئ بحمية وصراحة كبيرتين.

من يوميات ايلينا أندرييفنا شتاكينشنايدر 19 تشرين الأول 1880: كنّا نجلس مع آنَا دوستويفسكايا. وأخيراً نحّت روحها جانباً. أصغى إليها الأخوات للمرة الأولى وكنَ يتأوهن بمواساة تارة ويغرقن في الضحك تارةً أخرى. وبالفعل يمكن إصدار الحكم على هذا الإنسان الغريب العجيب من خلال كلماتها. فهي لا تنام في الليالي لأنها تفكر كيف تتحصل النقود لتأمين العيش للأولاد. وهي مثل من يخضع للأشغال الشاقة وتتخلى عن كل شئ. ولا تذهب بالعربة إلى أي مكان. بينما هو يعيل الشقيق وابن الزوجة...

يأتي من الشارع فتى. إنه طالب فقير. يلزمه ثلاثة روبلات. يظهر آخر: كان منفياً وعاد الآن من المنفى إلا أنه لا نقود لديه للعيش. يلزمه / 12/ روبلاً. مربية أطفال عجوز تعيش في مأوى للعجزة. هذا يعني أن حاجتها ليست كبيرة. يقول: «أنت يا آنَا أعطها ثلاثة روبلات وليعطها كل طفل روبلين وأنا أعطيها خمسة روبلات». يتكرر هذا الموضوع غير مرة في السنة بل حتى أكثر من ثلاث مرات. الرفيق يحتاج، أو مجرد واحد من المعارف يتسول. الرفض مرفوض. يجب إعطاء الجميع. فاضت آنّا بمكنون قلبها وروحها وهي تقول: عندما أبدي انزعاجي من الوضع أنال رداً واحداً دوماً: يا آنّا! لا تقلقي ولا تزعجي نفسك ستتأمن النقود! ستتأمن، ستتأمن! كانت الزوجة الفقيرة لهذا الإنسان العجيب تكرر الكلمة وتبحث

في جيبها عن محرمة كي تمسح الدموع المسكوبة بينما تحولت الأخوات من الضحك إلى الآهات!.

تكلمت وهي تتشنج: سنتلقى من كاتكوف خمسة آلاف روبل لنا عنده، لقاء «الإخوة كارامازوف» وسأشتري أرضاً. هل سيقسم هذه الأرض إلى عدة قطع ويوزعها؟ لن تصدقوا مثلاً على الخط الحديدي وما أن يدخل إلى المحطة وحتى نهاية الرحلة يمسك في يديه حافظة نقود مفتوحة ولا يخفيها ويتطلع من ينبغي إعطاؤه... لا يعطونا معاش التقاعد. أين المفر؟ نحن معدمون. كيف سنعيش؟

في واقع الأمر وضعها يثير الأسى. وضعها صعب. ولكن كيف يمكن أن لا أعجب به أو لا أحبه؟ هناك لا يزال من يقول إنه شرير وقاس... لا أحد يعرف رحمته ولو لم تبد الشكوى يا آنّا لما عرفنا شيئاً.

ألكسندر ايغورفيتش فرانكل:

إن تساهل فيودور دوستويفسكي كما لو كان شيئاً غير عادي. كان يجد الأعذار لكل الجوانب الضيقة والسلبية لدى الإنسان. كان يفسر كل شئ بالنقص في تربية الإنسان وبتأثير الوسط المحيط الذي نما فيه البشر ويعيشون، وغالباً ما يفسر بالطبع والمزاج.

بدأ الحديث: « آه يا صديقي العزيز ألكسندر، لقد خلقهم الله بهذا الشكل»...

الجميع يعرف طيبته ووضعه بين الأفذاذ. من لا يتذكر عنايته بأسرة شقيقه ميخائيل وبألكسندر ايساف الصغير وغيرها كثير.

ماريا نيقولايفنا ستويونينا (1846 – 1940، شخصية اجتماعية ومربية وصديقة آنّا دوستويفسكايا من أيام المدرسة الثانوية):

دوستويفسكي نفسه كان يتألم وفي كل مكان روحياً لأجل جميع المعذبين وسائر البشر، وأكثر ما كان يعذبه آلام الأطفال. ذات مرة قرأ في الجريدة كيف أن امرأة أغرقت طفلها في بالوعة نفايات عن قصد وعمد. وهكذا ظل دوستويفسكي ليلة – ليلتين ساهراً وهو يتألم ويتعذب مفكراً بالطفل وبها. لم يستطع إطلاقاً تحمل آلام الأطفال. كان إنساناً محباً للآخرين ولديه القدرة على التألم.

آنّا غريغوريفنا دوستويفسكايا:

من خلال أربعة عشر عاماً قضيتها سوية مع فيودور دوستويفسكي توصلت إلى قناعة عميقة بأنه كان واحداً من الناس الأكثر عفة. وما أكثر ما آلمني عندما قرأت أن كاتبي المحبوب للغاية ايفان تورغينيف يعتبر فيودور دوستويفسكي ماجناً وسماه «الماركيز الروسي دي ساد».

ألكسندر ايغوروفيتش فرانكل:

مما أدهشني في شخصية دوستويفسكي لا مبالاته الكاملة في ذاك الوقت (عام 1850) تجاه لوحات الطبيعة. فهي لم تؤثر فيه. لقد كان بكليته منهمكاً في دراسة الإنسان بكل هيبته وجدارته وضعفه وميوله ورغباته. وكل شئ آخر، بالنسبة إليه، كان ثانوياً.

آنّا غريغوريفنا دوستويفسكايا:

كان يحب الغابة. فليبيعوا كل شئ أما أنا فلن أبيع من مبدأ أن لا أجعل روسيا جرداء. ليخصصوا لي غابة وأنا سوف أطورها وستصبح كبيرة عندما يصير الأطفال في سن البلوغ... كان يحلم دوماً بضيعة – مزرعة وكان يسأل السؤال الضروري: هل يوجد فيها غابة؟ لم يكن يهتم بالفلاحة أو بالمروج بل الغابة وحدها هي التي تهمه. فلتكن صغيرة فهي، في عينيه، ثروة الضيعة الرئيسية.

فارفارا أندرييفنا سافوستيانوفا (كنيتها قبل الزواج دوستويفسكايا 1858 – 1935) ابنة أخ دوستويفسكي، ابنة الشقيق الأصغر أندريه:

جرى حديث عن شراء ضيعة. أرادوا شراءها في مكان ما، وما إن عرفوا أن زوجي من محافظة تامبوف حتى سألوه عن السعر وعن إمكانية شراء ضيعة – مزرعة هناك. ذكر فيودور دوستويفسكي: «اقترح علينا شقيقها

مشيراً إلى زوجته – مزرعة في محافظة كورسك. كيف هي روسيا هذه؟ أريد في وسط روسيا كيف يكون هنا شجر البتولا بينما هناك شجر البلوط أما أنا فأحب البتولا. وماذا يمكن أن يكون أجمل من أوراق البتولا!»

آنّا غريغوريفنا دوستويفسكايا:

لم يكن هناك ما هو أصعب من الجلوس للكتابة بالنسبة إليه وهو يتهادى.

كان يكتب بسرعة غير عادية.

نيقولاي نيقولايفيتش ستراخوف:

كان فيودور دوستويفسكي، دوماً يؤجل عمله إلى أقصى فترة، حتى الإمكانية الأخيرة. كان يشرع في الكتابة فقط عندما يظل الوقت المحدد ضئيلاً للإنجاز فيعمل بشكل دؤوب للغاية. كان هذا هو الكسل الذي يصل، أحياناً إلى الدرجة القصوى إلا أنه ليس كسلاً بسيطاً بل خاصاً. إنه كسل الكاتب الذي اضطررت لمراقبته، بكل دقة، في شخصية فيودور دوستويفسكي. النقطة الأساسية هي أنه كان يتوضع، على الدوام، في داخله جهد داخلي ويجري نمو وحركة في الأفكار وكان من الصعب عليه دوماً الانفصال عن هذا الجهد لأجل الكتابة. وإن البشر الذين ليس لديهم هذا العمل الداخلي أو أنه ضعيف جداً، عادة، يضجرون بدون عمل خارجي. أما فيودور دوستويفسكي بهذه الوفرة من الأفكار والمشاعر التي يحملها في الرأس فلم يشعر إطلاقاً بأنه خامل. كانت أفكاره تغلي وتفور

وكانت تتشكل صور شخصيات جديدة ومخططات لمؤلفات جديدة وأما المخططات القديمة فكانت تنمو وتتطور. قال هو نفسه في الصفحة الأولى من «مذلون ومهانون» حيث قدم ذاته على مسرح الأحداث: «إنه لمن السار أكثر بالنسبة لي أن أبدع مؤلفاتي وأحلم كيف تتم كتابتها من أن أكتبها. في الواقع لم يكن هذا بسبب الكسل. إذن بسبب ماذا؟

لنحاول الإجابة عنه. كانت الكتابة عنده دوماً تقريباً استراحة العمل الداخلي وعرضاً لما يمكن أن يتطور باستمرار حتى الاختتام الكامل للعمل.

ثمة كتاب تكون المسافة عندهم بين الخطط والإنجاز قليلة للغاية. وتتجلى الفكرة عندهم تقريباً، في آن واحد، مع الشخصية والكلمة. يمكنهم تقديم تعبير فقط للأفكار المكتملة وما إن يقولوا شيئاً فإنهم لن يستطيعوا أن يقولوا شيئاً أفضل. بيد أن أكثرية الكتاب لا سيما في أثناء المؤلفات الكبيرة الحجم تنجز عملاً طويلاً وصعباً ولا نهاية للتعديلات والتصويبات التي تكشف، بصورة أوضح وأنقى، عن الشخصية التي تظهر في الضباب.

غالباً ما كان فيودور دوستويفسكي يحلم بأنه كيفما صاغ وعالج الأشياء الجميلة فيما لو كان لديه وقت فراغ فهو، كما روى بنفسه بأن أفضل الصفحات من مؤلفاته قد أبدعها مباشرة بعد إجراء التعديلات.

كان يكتب، تقريباً دون استثناءات، ليلاً. ففي الساعة الثانية عشرة حيث يرقد البيت كله للنوم وهو يبقى وحيداً مع السماور، يبدأ الكتابة حتى

الخامسة أو السادسة صباحاً بينما يرتشف أكواباً من الشاي الثقيل جداً. وفي اليوم التالي كان يستيقظ نهاراً في الساعة الثانية بل حتى الثالثة. ووقت النهار يقضيه في استقبال الضيوف وفي النزهات وزيارة المعارف.

لوبوف فيودوروفنا دوستويفسكايا **1869 – 1926** ابنة الكاتب، أديبة وكاتبة ذكريات:

ما أن ينهي تناول الإفطار حتى يعود إلى غرفته ويبدأ مباشرة بإملاء الفصل الذي ألفه ليلاً. كانت الأم تختزله ومن ثم تعيد كتابته. وكان دوستويفسكي يدقق ما هو مكتوب مضيفاً، في أغلب الأحيان، بعض التفاصيل. ثم تعيد الأم الكتابة مرة ثانية وترسل المخطوط إلى المطبعة... كان الخط عند والدتي جميلاً للغاية بينما عند الوالد أقل صحة. كنت أسميه « الخط الغوطي» ربما لأن جميع المخطوطات كانت منقّطة بنوافذ غوطية ومرسومة بريشة دقيقة. (في قصر الهندسة كانوا يضفون أهمية كبيرة على الرسم).

كان دوستويفسكي يرسم بصورة ميكانيكية تماماً. يمكن التفكير بأن روحه كانت متعطشة للخطوط الغوطية التي كانت تمدحها جداً كاتدرائيتا ميلانسكي وكيلنسكي. كان يرسم، أحياناً على مخطوطة الرأس والجانب وكانت رسوماته، دوماً ممتعة وهامة ونموذجية.

آنّا غريغوريفنا دوستويفسكايا:

عادة ما كان فيودور دوستويفسكي يملي الرواية مباشرة حسب المخطوط. ولكن إذا لم يكن راضياً عن عمله أو ارتاب بشئ فيه فهو، قبل أن يملي، كان يقرأ لي الفصل كله دفعة واحدة. يحدث أن ينشأ انطباع أقوى مما هي الحال في أثناء الإملاء العادي.

لوبوف فيودوروفنا دوستويفسكايا:

كان دوستويفسكي عندما يملي على أمي مؤلفاته يتوقف أحياناً ويسألها رأيها. كانت أمي تحجم عن النقد. وقد قدم نقاد الجرائد الحانقين لزوجها ما يكفي من الأسى وهي لم ترغب بإضافة شئ عليها. وخشية من أن تكون موافقتها رتيبة أكثر من اللزوم كانت الأم تتجاسر، أحياناً، على اعتراضه بسبب مسائل غير جوهرية. فإذا كانت بطلة الرواية ترتدي الأزرق فهي تغيّره إلى الوردي، وإذا كانت الخزانة موجودة على اليسار فهي تنقلها إلى اليمين. كانت تبدل شكل قبعة البطل وتقص اللحية في بعض الأحيان. كان دوستويفسكي يتقبّل، بكل رغبة، التغيرات المرغوبة ويفترض، بسذاجة أن هذا الأمر قد منح الزوجة الكثير من الرضا.

فارفا فاسيليفنا تيموفييفا (و. باتشينكوفسكايا):

عند كتابة الأحاديث كان دوماً قبل الشروعِ في الكتابة يكررها عدة مرات، همساً أو بصوت عالٍ ويقوم، في هذه الحالة، بالجيستات المطلوبة كما لو كان قد رأى الشخصية المصوّرة أمامه.

نيقولاي نيقولايفيتش ستراخوف:

يمكن في شخصية فيودور دوستويفسكي مراقبة الجهد الكبير المبذول في الكتابة بالنسبة إلى أمثال هؤلاء الكتاب الأثرياء في مضمونهم. ففي مؤلفاته كان يصب فقط جزءَ من ذاك العمل المتواصل الذي تحقق في رأسه. من المعروف أن القراء، أحياناً، يقتاتون الرأي السخيف التافه. القراء يخطئون خطأ جسيماً، في الجوهر، في تقويم عمل المؤلف لأن ما يشغلهم عادة أو يؤثر فيهم فقط ما يشغل أو ما يثير المؤلف نفسه. وبقدر ما يضمن من الروحِ والعمل في مؤلفه بقدر ما يفعل فعله في القارئ.

وأما ما يتعلق بالعجلة وعدم اكتمال إنجاز المؤلف فإن فيودور دوستويفسكي... رأى بوضوحٍ كبير هذه النواقص واعترف بها بلا مراوغة. فضلاً عن هذا ورغم أنه يأسف لهذه النواقص فهو لم يندم على عجلته فحسب بل رأى أنها ضرورية ومفيدة إذ كان الشيء الرئيسي، بالنسبة إليه، التأثير في القراء والإفصاح عن فكره وخلق انطباع في الاتجاه الملموس. لم يكن من المهم المؤلف المكتوب نفسه بل اللحظة والانطباع وإن كانا غير

مكتملين. في هذا المعنى كان صحفياً بحتاً ومرتداً عن نظرية الفن الصافي. وبما أنه لا نهاية لخططه فهو يحمل عدة موضوعات كان يحلم بمعالجتها وصياغتها حتى درجة الكمال. ولكنه في الآن ذاته كان يكتب أشياء مصاغة نصف صياغة من أجل الحصول على النقود لأجل العيش من جهة وكي يقدم الصوت وليس الهدوء لجمهوره بأفكاره من جهة أخرى.

آنّا غريغوريفنا دوستويفسكايا:

كان دوماً يبالغ في الصرامة تجاه الذات ونادراً ما كنا نجد المديح من خلال مؤلفاته. كان فيودور دوستويفسكي أحياناً يبتهج بأفكار هو يحبها ويعالجها في ذهنه إلا أنه كان دوماً تقريباً، مع استثناءات نادرة، غير راضٍ عن تجسيدها في مؤلفاته.

فسيفولود سيرغييفيتش سولوفيوف:

عانى فيودور دوستويفسكي، طوال حياته تقريباً، من صعوبات مالية. فهو لم يستطع إطلاقاً الركون إلى الراحة وهدوء البال.

كل هذا أثر تأثيراً ثقيلاً على مؤلفاته وهو تقريباً لم يكن راضياً عن أي عمل من أعماله. كان يعمل دوماً في عجلة ولم يتيسر له حتى قراءة ما يكتبه. وعلى فكرة، لم يكن يكتب قصصاً سهلة. وفي بعض اللحظات الملتهبة والملهمة أيضاً كانت تنسكب مشاهد مسرحية شعرية عميقة

وصفحات من الجمال الخارق وهي تكثر في كل رواية من رواياته. هذا قليل: كانت تنتصب أمامه مهام سيكولوجية عميقة وتلوح في رأسه حلول أصيلة ورائعة لمسائل أخلاقية جدية. لم تكن هنا كافية لحظات الإلهام المشتعل إذ تطلب الوضع عملاً هادئاً للفكرة وأما الظروف فلم تمنح لفكره العمل بهدوء...

فهو المريض والمعذب المنهك الذي كان يتعب أكثر فأكثر إلا أنه لم يتعب من الفكر ولا من المشاعر بل ببساطة جسدياً. صار من الصعب عليه العمل وأخذ يعمل ببطء. كان يبيع روايته التي كانوا ينتظرونها بلا صبر، مسبقاً. وهيئة التحرير كانت تلح عليه أن يرسل المخطوطة بأسرع ما يمكن. وهذه الإلحاحات كانت تثير غضبه. فهو كان يضطرب ويستعجل ويرسل البداية وفيما بعد وفي عجلته للاستمرار كان، تقريباً، ينسى هذه البداية. وبقدر تطور الرواية ظهرت ضرورة تغيير شئ ما وشئ آخر وكان إنجاز كل هذا مستحيلاً إذ تبين أن ما كان ينبغي تغييره وإعادة صياغته، مطبوعاً. وبهذه الصورة، ظهرت مشاهد رائعة، وبشكل عام برزت الرواية بلا شكل، وبشكل عام مؤلفاً غير ناضج.

كان هو نفسه يعي بامتياز، هذه النقطة. ومثل هذا الوعي، بالنسبة للفنان، بدا عذاباً مراً. فهو كان يدرك، وفي الوقت نفسه يريد كي يلاحظ الآخرون ما يراه هو نفسه. لذا مثل كل ثناء له لذة. كان هذا الثناء يخدعه لذا أية ملاحظة على عيوبه ونواقصه تثيره وتهينه وتعذبه...

غير أني أشهد أنه هو نفسه في لحظات صريحة ودافئة أخرى اعترف بهفواته وعثراته وكمد لأن القدر وضعه في موضع استحالة التصحيح في الوقت المناسب. كان هذا حزناً يستحيل وجود ما يفوقه بالنسبة للمبدع – الفنان! ينتصب أمامي إنسان منهك في لحظات هذه الاعترافات المعذبة.

ميخائيل ألكسندروفيتش ألكسندروف:

لا أعرف ما إذا كان فيودور دوستويفسكي كان يكتب رواياته وقصصه الطويلة بسهولة أم لا إلا أنني أعرف أن المقالات لأجل «يوميات كاتب» قد كتبها بمزاج كبير واحتاج فيودور دوستويفسكي إلى جهد كبير لإنجازها. وكان السبب الأول والرئيسي لصعوبة الكتابة بالنسبة إلى فيودور دوستويفسكي هو قاعدته الثابتة وهي أنه يجب أن يصوغ مؤلفاته بوجدان وبأدق صورة. والسبب الثاني هو مطلب إيجاز المعروض.

وأخيراً السبب الثالث توقيت كتابة مثل هذه المقالات في الزمن المحدد... ونتيجة لهذا ورغم الخبرة الهائلة لفيودور دوستويفسكي في التكنيك الأدبي فإن بعض مخطوطاته النادرة تحققت دون أية مسودة أو مسودتين كان ينبغي إعادة كتابتها من قبله هو أو آنا دوستويفسكايا التي كانت تكتب بإملاء منه من المسودة.

نيقولاي نيقولايفيتش ستراخوف:

كان فيودور دوستويفسكي يحب الفن الصحفي مع الرغبة في خدمته مدركاً، بوضوح، ما يقوم به وأين يتراجع عن الشكل الصارم للفكر والفن. فهو منذ سن اليفاع قد تربى على الفن الصحفي وظل وفياً له حتى النهاية. والتصق كلياً ودون تفريق أو تقسيم بذاك الأدب الذي كان يجيش حوله ولم يقف أبداً موقف الحياد منه. كانت قراءاته المعتادة هي المجلات والجرائد. وانصب اهتمامه، على الدوام، بإخوانه في الكلمة الأدبية وكل مقالة نقدية عنه أو عن آخرين. كان يثمن تثميناً رفيعاً أي نجاح وأي مديح وكان يتكدر من الحملات والشتائم. هذه هي اهتماماته الذهنية. كان يعيش العمل الأدبي حصراً ولم يفترض الولوج في أي نشاط آخر ولم يفكر إطلاقاً بأي منصب حكومي أو غير حكومي...

كان الأدب هو وطن فيودور دوستويفسكي. فهو اختار مهنته حتى أنه، أحياناً، كان يفصح عن افتخاره بوضعه. كان يعمل بجهد ومثابرة ويحقق مبتغاه: أنجز واحدة من أكثر المهن الأدبية بريقاً وحقق شهرة هائلة ونشر أفكاره، وفي الهزيع الأخير من حياته حقق الكفاية المادية.

من يوميات ايلينا أندرييفا ستاكينشنايدر ١٨٨٠:

اليوم 19 تشرين الأول، يوم المدرسة. قدم الصندوق الأدبي صباحاً أدبياً في تلك القاعة التي من الصعب القراءة فيها وحيث لا يمكن سماع المحاضر في جميع أرجائها. وأما دوستويفسكي المريض والذي يعاني من مرض الحنجرة وانتفاخ الرئتين فقد تم سماعه أفضل من الجميع. ما هذه الأعاجيب! الروح والجسد منهكان، نحيف بصدر غائر وصوت هامس. ما إن تبدأ القراءة حتى يشعر بالكبر والصحة. تظهر القوة، القوة المسيطرة من مكان ما. يسعل على الدوام وقال لي، غير مرة، أن هذا الانتفاخ يعذبه وسيؤدي به في يوم ما وبسرعة وبصورة غير متوقعة، إلى القبر. يا إلهي أنقذني!

ولكن في أثناء القراءة لم يتعرض للسعال وأقول بدقة لم يتجاسر.

ميخائيل ألكسندروفيتش ألكسندروف:

كانت قراءته، كعادتها، حاذقة وماهرة ودقيقة وجهورية، وعلى الأصح واضحة ومفهومة بحيث أن الجالسين في أبعد ركن من القاعة التي تتسع لأكثر من ألف مستمع، يسمعونه بصورة فائقة.

ي. شيغلوف (ايفان ليونتيڤيتش ليونتيف **1855 - 1911**)، كاتب:

الآن تتراءى كما في الضباب القاعة الهائلة لمجلس النبلاء التي يتجمع فيها حشد من النخبة. ورغم أن القاعة تمتلئ بالحشود ففيها يسمع، بهدوء، كيف تطير الذبابة. فالجمهور بمجموعه كشخص واحد حبس أنفاسه كي لا يرم بصوت واحد. على المنصة فيودور دوستويفسكي. أخذ يقرأ فصلاً من «الإخوة كارامازوف»! «اعتراف القلب الحار».

على فكرة، أن نقول عن دوستويفسكي إنه «قرأ» فهذا يعني تماماً أننا لم نقل شيئاً إطلاقاً. إن مفهوم القراءة بالمعنى العادي، لا يمكن تطبيقه عندما يتعلق الأمر بدوستويفسكي. يبدو لي أن جميع الأدباء الروس قرأوا! وقرأ دوستويفسكي وقتذاك وهو في وضعية النهوض.

كان يكفي دقيقة واحدة لإغماض العين نصف إغماضة حتى يكفي القارئ والمؤلف فجأة. وكان يمكن في حالة الصمت المضمر سماع كلام ميتيا كارامازوف النادم والمشتعل- «حقاً اعتراف القلب الحائر».

الأب والزوج

لوبوف فيودوروفنا دوستويفسكايا:

كان دوستويفسكي، طوال حياته، كريماً للغاية ويحب اللقاء بين الأقرباء وأقارب الزوجة سوية في أيام الأعياد العائلية. كان وقتذاك لطيفاً يختار المواضيع التي بإمكانها أن تثير اهتمام المدعوين ويضحك ويلقي النكات حتى أنه كان، أحياناً، يوافق على اللعب بورق الشدة رغم أنه لم يكن يحب هذه اللعبة.

آنّا غريغوريفنا دوستويفسكايا:

عندما كان الأطفال يرقدون للنوم يصرخ واحد منهم: بابا، اقرأ عن مريم العذراء! فيأتي الأب ويقرأ عن مريم ثم ينطق بعدة كلمات لطيفة ويقّبل في الجبين ويغادر قائلاً: ناموا، ناموا... وإذا بدأ أحدهم يشعر بوعكة كان يقول: الدكتور، الدكتور.

لوبوف فيودوروفنا دوستويفسكايا:

كلما كبرنا في العمر يصير هو أكثر قسوة تجاهنا إلا أنه ظل حنوناً رقيقاً ما دمنا صغاراً. كنت في طفولتي عصبية وأبكي كثيراً. وكان الوالد لأجل تسليتي يقترح عليّ الرقص معه. كنا نبعد المفروشات إلى الأطراف وتأخذ

الأم ابنها فارساً لها وصرنا نرقص رقصة (الكادريل). وبما أنه لم يكن بيننا من يعزف على البيانو صرنا ندندن بعض الأنغام. أثنت الأم على زوجها لأدائه الكادريل بدقة.

فأجاب: «أوه! أجاب وهو يسعل ويمسح العرق عن الجبين – ليتك تعرفين كيف كنت أرقص جيداً في شبابي الرقصة البولونية – المازوركا!»

آنّا غريغورفنا دوستويفسكايا:

في عيد ميلاد عام 1872 حدث في أسرتنا حدث غريب عجيب:

كان فيودور دوستويفسكي هذا الأب الحنون بصورة مفرطة يفكر، دوماً، كيف يمكن أن يسلّي أولاده. ويعتني خاصة بترتيب شجرة الميلاد: طلب طلباً لابد منه بأن أشتري شجرة كبيرة وكثيفة الأغصان. وهو نفسه صار يزينها (انتقلت الزينة من عام إلى عام) صعد على الطربيزة ووضع الشمعات الصغيرة وثبّت «النجمة».

شجرة عام 1872 كانت مميزة. حضر ابننا الكبير فيديا، لأول مرة «عن وعي»، أشعلنا شموع الشجرة قبل الوقت المرسوم. وأدخل فيودور دوستويفسكي، بشئ من المهابة والاحتفالية، فرخين يخصانه إلى غرفة الضيوف. أصيب الأولاد، بالطبع، بالاندهاش من النيران المتألقة والزينات والألعاب الصغيرة التي أحاطت بالشجرة. تم توزيع الهدايا عليهم. البنات حصلن على لعبة رائعة وألعاب أخرى على شكل أدوات منزلية لتحضير

الشاي. حصل الابن على بوق عزف عليه فور استلامه وعلى طبل. ولكن التأثير الأكبر على الولدين هو إحضار حصانين كميتين من المصنفات مع أعراف وذنبات. ويرتبط بهما زلاقتان رخيصتان وواسعتان للاثنين. وأما فيديا فقد مسك العنان وصار يلوح ويطارد الحصانين. على فكرة، سرعان ما ضجرت الفتاة الصغيرة من الزلاقتين وتحولت إلى ألعاب أخرى. ولكن ماذا حصل للولد: لقد خرج عن طوره من فرط السعادة وصرخ على الحصانين وهو يضرب بالزمامين متذكراً، على الأرجح كيف كان الرجال المسافرون الذين يمرون بجانب بيتنا الصيفي في ستارايا روسّا. ويالها من خدعة اتبعوها كي يتمكنوا من نقل الولد من غرفة الضيوف إلى غرفة النوم.

لوبوف فيودوروفنا دوستويفسكايا:

كان دوستويفسكي يجلب لنا، على الدوام، هدايا رائعة من خارج البلاد، وهي، عادة، أشياء مفيدة وغالية مختارة بذوق رفيع. ويجلب للأم منظاراً فاخراً (بينوكل) مصنوعاً من الخزف الصيني المزخرف ومروحة مصنوعة بأيد ماهرة دقيقة من العاج ودانتيلا جميلة من نوع شانتيلا ورداء حريرياً أسود وبياضات بتطريز شيق. وأحضر لي بيكيني أبيض لأجل الصيف ومناديل حرير مطرزة لأجل الشتاء. وهو اختار لنفسه رداء من لون الموج البحري إذ كان لون الموج البحري لونه المفضل وغالباً ما كان يكسو أبطال رواياته بألبسة من هذا اللون.

آنّا غريغوريفنا دوستويفسكايا:

على فكرة،كان الزوج راضياً دوماً عندما كان يراني في ثوب جميل أوأضع على رأسي طاقية جميلة. كان حلمه أن يراني على أحسن هندام. وهذا كان يفرحه أكثر مني. أوضاعنا المالية كانت، دوماً، سيئة وكان يستحيل التفكير بالهندام. ولكن كما قلت كان يسعده أن يراني في رداء جميل. وفي كل سفرة له إلى ايمس كان فيودور دوستويفسكي يحاول جاهداً التوفير كي يجلب لي هدية: مثلاً مروحة (مطاطية) فاخرة مصنوعة من العاج، أو منظاراً مصنوعاً من الميناء السماوي، وفي مرة ثالثة (مشبك وأقراط واسوارة). كان ينتقي هذه الأشياء خلال مدة طويلة وكان راضياً جداً عندماً تعجبني الهدية. عندما أحصل على الهدية كنت أفصح عن سعادة كبيرة وإن كنت، أحياناً، في أعماقي، غاضبة لأن بعض الهدايا غير مفيدة. مثلاً، ذات مرة بعد أن حصل على النقود من كاتكوف اشترى من أفضل مخزن في موسكو دزينة قمصان داخلية نسائية سعر الواحدة عشرين روبلاً. بالطبع تلقيت الهدية بنوعٍ من الإعجاب الظاهري ولكن في أعماقي تأسفت على النقود التي ذهبت لأن الألبسة الداخلية عندنا منها ما يكفي وكان يمكن بالمبلغ الذي تم إنفاقه على الدزينة شراء الشيء الكثير مما هو ضروري.

كان فيودور دوستويفسكي راضياً عندما تمكن قبل سنتين من رحيله، إهدائي قرطين من الماس بحجر واحد في كل منهما. كان ثمنهما قرابة المئتي روبل. وبصدد الشراء استشار زوجي ضليعاً في الأشياء الثمينة اسمه

ب. ف. بانتيليف. أذكر أنني وضعت هذه الهدية للمرة الأولى في أمسية أدبية قرأ زوجي فيها. وعندما قرأ أدباء آخرون جلسنا أنا والزوج أحدنا بجانب الآخر على طول الجدار المزين بالمرايا. فجأة لاحظت أن الزوج ينظر إلى طرف ويبتسم لشخص ما ثم توجه نحوي وهمس بفرح: «تتألق، تتألق بشكل رائع!» تبين أنه في ظل كثرة من الأضواء بدا الحجران جيدين وصار الزوج فرحاً كالطفل...

كان زوجي يعرف أنني شحيحة على بهرجتي وأناقتي لذا قرر الاهتمام بالموضوع بنفسه: رافقني إلى مخزن الفرو «ناسوڤيست» أي «على الذمة» كي ننتقي معطفاً من فرو الثعلب وياقة من السنسار. كان البائع (من المعجبين بموهبة الزوج) ألبسني جبلاً كاملاً من فرو الثعلب مشيراً إلى الميزات والنواقص. وفي النهاية تم اختيار فرو (بمئة روبل) وياقة السنسار بالسعر نفسه، وهي فائقة الروعة. تفحص دوستويفسكي اللون وقابلية الانكسار. وعندما جرى الحديث عن الطراز (الفرو مع ياقة دخل لتوه حيز الاستعمال). دوستويفسكي احتج على الموضة «السخيفة». وعندما مزح البائع قائلاً: إن هذه الموضة اخترعها الحائك الذي يرغب بالتخلص من زوجته، أعلن زوجي:

– أنا لا أريد التخلص من زوجتي لذا أريدك أن تحوك لها على الموضة القديمة أي سالوب مع أكمام (السالوب لباس نسائي فوقي على شكل

عباءة طويلة وواسعة بأكمام غير كبيرة بطل استعمالها في نهاية القرن التاسع عشر – المترجم).

رضيت بالسالوب بعد أن لاحظت إصرار الزوج عليه. بعد أسبوعين تم جلب السالوب وأنا ارتديته. وقال فيودور دوستويفسكي بفرح:

«الآن لن أخشى من أن تصابي بالزكام...»

في **18** أيار **1876** حدث ما يلي: نشرت «المذكرات الوطنية» رواية جديدة لصوفيا سميرنوفا اسمها «قوة الطبع». كان دوستويفسكي على صداقة مع سميرنوفا وكان يثمن تثميناً رفيعاً موهبتها الأدبية. أثارت اهتمامه مؤلفها الأخير وطلب مني أن أحصل على أعداد المجلة عند ظهورها إلى النور. صرت أحضر له أعداد «المذكرات الوطنية» عندما كان يستريح من «يوميات كاتب». وبما أن أعداد المجلات يعطونها، عادة، للإعارة، ليومين – ثلاثة أيام كنت استعجل الزوج لقراءة الكتيب بغية إعادته إلى المكتبة تلافياً للغرامة. الوضع نفسه حدث بالنسبة إلى كتيب نيسان. قرأ فيودور دوستويفسكي الرواية وقال لي كيف تمكنت عزيزتنا صوفيا من عرض أحد النماذج الرجالية لهذه الرواية. في المساء ذهبت إلى أحد اللقاءات بينما أرقدت الطفلين وشرعت في قراءة «قوة الطبع». على فكرة، تضمنت الرواية رسالة مغفلة مرسلة من أحد السفلة إلى بطل الرواية...

ينبغي القول إنني، في الفترة الأخيرة، تمتعت بمزاج بشوش: لم يتعرض الزوج لنوبة صرع منذ فترة قصيرة وشفي الولدان من المرض وديوننا كانت

تُدفع تدريجياً وأما نجاح «يوميات كاتب» فقد تحقق **Creszenda**. كل هذا رسخ لدي المزاج الحيوي الذي يخص طبعي. وتحت تأثيره وبقراءة الرسالة المغفلة لاحت في الرأس فكرة فكهة لعوب بإعادة كتابة الرسالة (بعد تغير وحذف سطرين – ثلاثة والاسم واسم الأب) وإرسالها على اسم فيودور دوستويفسكي. تصورت أنه كان قد قرأ هذه الرسالة مساء أمس في رواية سميرنوڤا لذا سيحزر أن هذه مزحة وسوف نضحك سوية. ولاحت فكرة أخرى هي أن الزوج سيستقبل الرسالة على محمل الجد، وفي هذه الحالة ما يهمني هو كيف سينظر إلى هذه الرسالة المغفلة التي يحصل عليها. هل سيعرضها عليّ أم سيرميها في سلة الأوراق؟ كعادتي ما تم التفكير به سينجز. في البداية أردت كتابة الرسالة بخط يدي إلا أنني، كل يوم أعيد كتابة «اليوميات» لأجل فيودور دوستويفسكي بطريقة الاختزال، والخط يعرفه جيداً. لذا يجب التمويه أي الكتابة بخط آخر أكثر كمالاً من خطي. وقد تبين أن هذا الأمر صعب بما يكفي واضطررت لتمزيق عدة أوراق بريدية. في صباح اليوم التالي رميت الرسالة في الصندوق. وفي منتصف النهار تلقيناها بالبريد سوية مع رسائل أخرى.

في هذا اليوم تباطأ دوستويفسكي في القدوم ورجع إلى الدار في الخامسة تماماً. لم يرغب بإجبار الولدين على انتظار الغداء. بدل ملابسه وارتدى رداء البيت ولم يتفحص الرسائل بل ذهب إلى غرفة الطعام. تحلق الجميع حوله لذا كان الجو مرحاً وضجوجاً. كان دوستويفسكي في مزاج جميل

تكلم كثيراً وضحك كثيراً وهو يجيب عن أسئلة الولدين. بعد الغداء ذهب الزوج مع كاسة الشاي وكعادته، إلى المكتب وأنا بدوري، ذهبت إلى غرفة الولدين وفقط بعد عشر دقائق توجهت لأعرف التأثير الذي أحدثته رسالتي المغفلة.

دخلت الغرفة وجلست في مكاني المعتاد بجانب المكتب وتعمدت إثارة حديث بحيث احتاج إلى جواب دوستويفسكي. غير أنه ظل صامتاً عابساً وسار في أرجاء الغرفة بخطوات ثقيلة جداً. رأيت أنه متكدر وشعرت بالأسى عليه. من أجل قطع حبل الصمت سألت:

– ماذا بك يا فيديا (فيديا تصغير وتحبب لفيودور)؟

نظر دوستويفسكي إلي بغضب واجتاز الغرفة مرتين ثم توقف مقابلي تقريباً.

– سأل بصوت مخنوق: هل لديك ميدالون؟

– نعم أحمل ميدالون.

– أرني إياه!

– لماذا؟ أنت رأيته عدة مرات.

– أرني الميدالون! صرخ بأعلى صوته وأنا أدركت أن مزحتي حلّقت بعيداً. ومن أجل تهدئته أخذت أفك الياقة. كان الميدالون قد اشتراه لي من هنغاريا وأخيراً صار الميدالون في يد الزوج المرتجفة ولم يستطع فتحه

بسهولة ثم رأى بورتريه لوبوف، وعلى الطرف الآخر صورتي. ظل ينظر إلى الصورة وصمت.

– فسألت: ماذا وجدت، فيديا؟ يا أحمقي! كيف صدقت الرسالة المغفلة؟

دوستويفسكي التفت بحيوية نحوي:

– وأنت من أين تعرفين قصة الرسالة المغفلة؟

– كيف من أين؟ أنا نفسي أرسلتها!

– كيف أرسلتيها بنفسك، ماذا تقولين! هذا مستحيل.

– سأبرهن لك الآن!

هرولت إلى طاولة أخرى كان عليها كتيب «المذكرات الوطنية» وسحبت عدة ورقات بريدية كنت قد تمرنت عليها في تغيير الخط.

حرك دوستويفسكي يديه من فرط الدهشة.

– وأنت نفسك ألفت هذه الرسالة؟

– كلا لم أؤلف إطلاقاً! أنا ببساطة نسخت من رواية صوفيا إيڤانوڤنا. فأنت، البارحة قرأتها: ظننت انك ستحزر على الفور.

– كيف يمكن التذكر. جميع الرسائل المغفلة تكتب بهذا الشكل. أنا فقط لا أفهم لماذا بعثت لي هذه الرسالة؟

– شرحت: ببساطة أردت أن أمزح معك.

– وهل هي ممكنة مثل هذه المزحات؟ فأنا عانيت الأمرين في نصف الساعة الماضية!

– من كان يخمن أنك أنت عندي – عطيل – تصعد على الجدران دون أية محاكمة للأمور.

– في مثل هذه الحالات يحاكمون الأمور! إنه لجلي أنك أنت لم تختبري الحب الحقيقي والغيرة الحقيقية.

– إنني الآن فقط أختبر الحب الحقيقي وأما أنني لا أعرف «الغيرة الحقيقية» فالذنب، هنا، ذنبك. لماذا لا تخني؟ ضحكت متمنية أن أبدد مزاجه. رجاء. أقدم على خيانتي. فأنا أطيب منك.

قال دوستويفسكي بصورة مذنبة: مازلت تضحكين يا أنّا. فكري بالمصيبة التي كان من الممكن ان تحدث! كان من الممكن أن أخنقك في سورة غضبي. هنا يمكن بالذات قول ما يلي: الرب أنقذنا، أشفق على الوالدين! تصوري لو لم أجد البورتريه فهذا عندي أن الشك بوفائك ظل عندي قائماً وتعذبت طوال العمر. أتوسل إليك أن لا تمزحي مثل هذه الأشياء فأنا لست مسؤولاً عن نفسي عندما أغضب وأثور.

لوبوف دوستويفسكايا:

كان دوستويفسكي يكتب حتى الرابعة – الخامسة صباحاً ويستيقظ فقط بعد الحادية عشر. كان ينام في مكتبه على الأريكة. كان هذا مقبولاً، وقتذاك، في روسيا. وكان النجارون يصنعون أرائك تركية بصندوق كبير متحرك حيث يضعون فيه الوسائد والشراشف والحرامات. وبهذه الصورة كانت غرفة النوم، في لحظة واحدة، تتحول إلى غرفة معيشة أو مكتب. وعلى الجدار فوق الأريكة معلقة نسخة كبيرة مصورة ورائعة عن مريم العذراء السيكستينية (سيكستينياكايا مادونا) مهداة إلى والدي من قبل الأصدقاء الذين كانوا يعرفون حبَه تجاه لوحة رافائيل. أول ما كان يراه دوستويفسكي عندما يستيقظ هو الوجه الوديع لمريم العذراء التي كان يعتبرها المثل الأعلى للمرأة.

بعد الاستيقاظ كان الوالد يؤدي بعض التمارين الرياضية بعدها يغتسل. وفي اغتساله يستخدم الكثير من الماء والصابون والكولونيا. كان لدى دوستويفسكي شغف حقيقي بالنظافة... أظافر دوستويفسكي لم تكن أبداً سوداء. مهما كان مشغولاً فهذا لم يمنعه من أن يجد الوقت للعناية بالأظافر. في أثناء الغسل كان من عادته أن يغَني. وفي كل صباح كنت أصغي كيف يغني بصوت ناعم الأغنية القصيرة نفسها:

«لا توقظيها في الفجر، فهي تغفو بحلاوة في الفجر. في الصباح يستنشق في الصدر عندها، يستنشق بسطوح في تجاويف الخدود».

بعد ذلك يذهب الوالد إلى غرفته كي يكمل زينته. ففي حياتي لم أره في روب أو شحاطة البيت التي يستخدمها الروس معظم نهارهم. ومنذ الصباح الباكر ينتعل الحذاء والياقة ويرتدي القميص الأبيض الجميل ذا القبة المنشّاة (وقتذاك كان الناس يرتدون فقط القمصان الملونة).

كان، دوماً، يرتدي أطقماً حياكتها جيدة وحتى عندما كان فقيراً كان يتعامل مع أفضل خياط في المدينة ويعتني بدقة بألبسته إذ كان ينظف الألبسة بنفسه.

في الصباح كان الوالد يرتدي السترة وإذا حدث أن رمى، دون قصد، بشئ من الشمع على ردائه فهو يخلعه على الفور ويزيل أية لطخات. وهو يشتكي: «لا أستطيع العمل بوجود اللطخات». بعد العناية الكاملة أمام المرآة يذهب إلى غرفة الطعام لشرب الشاي. والآن صار بإمكاننا أن نتمنى له صباحاً جميلاً والتحدث معه عن شؤوننا الطفلية. كان الوالد يحب القيام بنفسه بسكب الشاي وكان دوماً يشرب الشاي ثقيلاً جداً. كان يشرب كأسين والثالث يأخذه معه إلى المكتب حيث كان يشرب في أثناء العمل بجرعات غير كبيرة.

ميخائيل ألكسندروفيتش ألكسندروف:

كان دوستويفسكي بجلوسه لاحتساء الشاي إما يتصفح الجرائد بسرعة أو يدخّن... كان يدخّن كثيراً من سيجارات اللف...

آنّا دوستويفسكايا:

كان يدخّن سيجارات اللف التي يلفّها بنفسه ويخلط نوعين هما ساتشي ومانغوبي ديڤيتس وسط لاڤيرم ربع رطل 80 كوبيكاً. بعد السفر إلى موسكو لحضور الاحتفالات البوشكينية ترك سيجارة اللف وصار يدخن السيجار مؤكداً أنه صار يسعل أقل من السابق. كان السيجار جيداً وغالياً إذ تساوي 25 قطعة – 6 روبلات وأعلى.

لوبوف دوستويفسكايا:

كانت الخادمة في أثناء الفطور تقوم بتهوية المكتب وترتّبه. في المكتب قليل من المفروشات. وكل الأشياء كانت موضوعة على طول الجدار، ودوماً كان ينبغي أن تبقى في مكانها. وعندما كان عدد من الأصدقاء يزورننا للقاء الوالدين كانت الكراسي والكراسي بمساند موضوعة في حالة من الفوضى. وهو نفسه يرتبها في أماكنها بعد مغادرة الضيوف. وعلى مكتبه أيضاً يسود ترتيب هائل. الجرائد، علبة سجائر اللف، الرسائل التي يحصل عليها، الكتب التي استخدمها للاستفسارات – كل شئ ينبغي أن

يكون في مكانه. وإن أدنى فوضى يمكنها أن تؤجج غضب الوالد. ووالدتي التي تعرف الأهمية التي يضفيها على هذا الترتيب المتحذلق، كانت، كل صباح، تتحقق من حالة المكتب. فيما بعد كانت تجلس إلى جانبه وراء طاولة صغيرة كي تحضّر الدفاتر وأقلام الرصاص. بعد إنهاء الفطور يعود الوالد إلى غرفته ويبدأ، على الفور، إملاء الفصل الذي أبدعه ليلاً... بعد الإملاء يدعونا دوستويفسكي لتناول بعض الحلويات (عصرونية)... وبسخاء يقدم هذه الحلويات ويوزعها بالتساوي بيني وبين الشقيق... في الساعة الرابعة يخرج الوالد في نزهته اليومية إذ كان يسير في طريق واحد وهو منغمس في أفكاره ولم يتعرف إلى الأصدقاء الذين يصادفهم ويزور أحياناً أحد أصحابه للحديث حول العمل السياسي أو الأدبي الذي يثير اهتمامه.

آنّا دوستويفسكايا:

ننتهي من طعام الغداء في الساعة السابعة وكان يحب الجلوس وحده حتى الثامنة أو الثامنة والنصف ومن ثم يلبس ويذهب للتنزه أو لزيارة أحد ما ولكنه لم يرغب بزيارة أحد في البيت بعد التاسعة وليس بعد التاسعة والنصف بأي شكل من الأشكال. كان يجلس أثناء الزيارة حتى الثانية عشرة وأحياناً حتى الثانية عشرة والنصف بعدها يعود، حتماً، إلى الدار.

قبل أن يضطجع للنوم كان يقضي فترة طويلة في إرقاد الولدين وإعطائهم الماء والعشاء ويتفحص الأبواب كلها فيما إذا كانت مغلقة أم لا. ينظف أسنانه ويؤدي بعض التمارين الرياضية ويصلّي ويحضّر الماء والكبريت والشمعة، والساعة غير بعيدة عن المكان الذي ينام فيه. ثم يعّد الفراش ويرقد للنوم بعد أن يغطي الرأس بالشرشف ويغطي جسمه بحرامين، ومن فوقه يغطي فقط الرجل بمانطو. كان ينام على ظهره وإذا نام على الطرف الأيسر فإنه يسعل كثيراً.

ميخائيل ألكسندروفيتش ألكسندروف:

ينبغي أن أقول إن دوستويفسكي قد حاول أن ينجز كل شئ بدقة وبتأنٍ واضح.

آنّا دوستويفسكايا:

عندما كان يسافر إلى مكان ما ينشغل الليلة الأخيرة وبالذات في تصنيف الأوراق وترتيبها في علب متنوعة يكتب عليها: « الآنية»، « غير المستعجلة» إلخ... ويعتني للغاية بمسألة أين يضع المخطوط ولا يهدأ باله إلا عندما يوضب شنطة السفر الصغيرة وفيها يضع ما يلي: قميص الليل وقميص النهار والجرابات والمحارم والياقات والقفازات والحذاء والمنفضة وما يخص السيجار (فيه المقص وسكين صغير) والفرشاة والجرائد. كما

يضع الكأس وغيره من الأشياء الصغيرة والهدايا التي يحضرها لنا من سفرته.

لوبوف دوستويفسكايا:

يؤدي الوالد التزاماته الدينية بوجدانية ويصوم ويذهب إلى الكنيسة مرتين في اليوم ويؤجل جميع الشؤون الأدبية، كما يحب، أيضاً، الخدمات الدينية في أسبوع ستراسنايا لا سيما عيد الفصح والفرح بإنشاد الأغنيات.

فارفارا فاسيليفنا تيموفييفا (و. بوتشينكوفسكايا):

... أتذكر، دوماً، القصة التي استمعت إليها من عجوز هي أرملة الخوري الذي كان يلتقي، في كثير من الأحيان، مع دوستويفسكي في كنيسة زنامينسكايا:

– كان دوماً يؤم هذه الكنيسة في الصباح أو وقت الظهيرة. كان يأتي قبل الجميع ويغادر بعد الجميع. ويقف، دوماً، في الزاوية عند الأبواب وراء العمود الأيمن كي لا يراه أحد. ويصلي، دوماً، على ركبته والدموع في عينيه. يؤدي واجباته الدينية على الركبتين ولا ينهض أبداً. نحن عرفنا أن هذا هو فيودور ميخائيلوڤيتش دوستويفسكي. تظاهرنا أننا لا نعرفه ولا نلحظه. فهو لا يحب أن يلاحظه الآخرون. الآن سوف يستدير ويغادر.

ستيبان يانوفسكي:

كان دوستويفسكي يحب الموسيقى ويحضر الأوبرا الايطالية ولم يكن يحب النظر إلى الرقص فحسب بل كان يرقص أيضاً. وقد ازدهرت وقتذاك أوبرا «وليم تل» التي أبهجه فيها الثلاثة وهم يعزفون على الدف (الرق) وكان يصغي بمتعة لموزارت في «دون جوان». كان دوستويفسكي يحب الرقص كتعبير عن الرضا النفسي وكإشارة صادقة على الصحة.

آنّا دوستويفسكايا:

أنا وأطفالي وأصدقاؤنا الروس القدامى نذكر جيداً كيف كان دوستويفسكي تحت أنغام الأرغن يرقص رقصات الكادريل والڤالس والمازوركا معي ومع الأولاد. كان زوجي يحب الموسيقى محبة خاصة ومميزة وخاصة المازوركا (رقصة بولونية) ويرقصها بإقدام واقتحام. كان سعيداً جداً عندما ذكرت له هذا الرأي.

صوفيا كوفاليفسكايا:

لم يكن دوستويفسكي موسيقياً وإنما كان ينتمي إلى عداد الناس الذين يتمتعون بالموسيقى لأسباب ذاتية بحتة ويعود الأمر إلى المزاج أيضاً. أحياناً

تسبب التثاؤب، وأحياناً أخرى الدموع... قال لنا غير مرة أن سوناتا بتهوڤن هي المفضلة لديه. فهي كانت دوماً، تغمره في عالم كامل من الأحاسيس المنسية.

نيقولاي فون – فوخت:

كان دوستويفسكي يحب الموسيقى حباً جماً. ولعل الابنة الثانية لـ آ. پ. ايڤانوف، ماريا ألكسندروڤنا التلميذة في كونسر فاتور موسكو هي التي منحته البهجة بعزفها الرائع. وقد اختلفنا في نقطة واحدة: كانت ماريا معجبة بشوبان (مثلما هي حال جميع النسوة) بينما دوستويفسكي يشكو من الموسيقي البولوني معتبراً موسيقاه مثل «السل الرئوي». كان يثمن أرفع تثمين موسيقى كل من موزارت وبتهوڤن، ومن بين الروس غلينكا وسيروف، وخاصة أوبرا الأخير «روغنيدا».

أندريه دوستويفسكي (1825 – 1895) الشقيق الأصغر للكاتب:

أذكر عندما التأم شمل عدد من الضباط (من رفاق الشقيق) بهدف اللعب بورق الشدة. كان الشقيق قد تولع بالورق في الفترة الأولى من خدمته العسكرية. وفي البداية سادت لعبة البرافرانس أو الويست ولكن الأمسية كانت تنتهي بوضع الرهانات النقدية.

آنّا دوستويفسكايا:

على فكرة لم تكن هناك عادة اللعب بالورق في الوسط الأدبي الذي عاش فيه دوستويفسكي. وخلال أربعة عشر عاماً من حياتنا المشتركة لعب دوستويفسكي مرة واحدة بالورق عند أقربائي وهي لعبة البرافرانس. ورغم أنه لم يواظب على لعب الورق أكثر من عشر سنوات فهو كان يلعب بروعة فائقة بل حتى أنه فاز على شركاء اللعب بعدة روبلات وهذا ما جعله مرتبكاً.

فلاديمير ميخائيلوڤيتش كاتشينوفسكي (1826 – 1892) كاتب ومترجم وابن المؤرخ والأكاديمي ميخائيلوڤيتش كاتشينوفسكي: فيما عدا المكتبة الممتازة ظلت بعد دوستويفسكي مجموعة كبيرة من الأوتوغرافات لكتّابنا وفنانينا وشخصياتنا الاجتماعية الرائعين. هذا ما أعرفه من تكليف المرحومة آنّا دوستويفسكايا بالرسائل الموجهة إليّ بدءاً من 18 تشرين الأول والتي طلبها لمجموعته والدي.

آنّا دوستويفسكايا:

كان دوستويفسكي يحب المطبخ الروسي ويتعمّد أن يوصي لي وأنا من سكان بطرسبورغ، مأكولات محلية مثل الفطائر المصنوعة في الفرن...

ألكسندر ايغوروفيتش فرانكل:

كنا سوية دوستويفسكي وأنا نحب الفاكهة وهو يعشق الحلوى. غير أنه لا وجود لا لهذا ولا لذاك في سيميپالاتينسك. ومن العجب العجاب أن فاكهة التفاح والأجاص والكرز كانت نادرة حينذاك في سيبيريا الغربية وخاصة الليمون. كنا نزيل تجمدها في ماء بارد جداً ونضعها في غرفة باردة كي تصبح، بعد قليل من الوقت، مثل الطازجة. وتوفرت الثمار في الصيف مثل توت العليق والعنب والتوت الإفرنجي وغيرها... كانوا ينقلون العسل، بالبراميل، من قازان ومحافظة ارنبورغ. ومن بين الحلوى المفضلة عند دوستويفسكي الزبيب (الكشمش) والمشمش المجفف.

فسيفولود سولوفيف:

غالباً ما كان يقول: قف يا عزيزي قاطعاً الحديث. اقترب من خزانته الصغيرة وفتحها وسحب منها مختلف أنواع الحلويات: علبة صفيح تحتوي

على خوخ أسود ملوكي، فالوذة طازجة، زبيب، عنب. وضع كل شئ على المنضدة ودعا الحضور دعوة ملحّة. إنه يعشق المأكولات اللذيذة...

لوبوف دوستويفسكايا:

كان والدي يحب الحلوى حباً جماً. فهو دوماً يحفظ العلب المملوءة بمختلف الثمار والتمور والزبيب وفالوذة الفاكهة مثلما يحضرونها في روسيا. تناول دوستويفسكي هذه المأكولات بكل شهية نهاراً، وأحياناً ليلاً. تقديم الضيافة إلى الضيوف في الشرق هي، باعتقادي، العادة الشرقية الوحيدة التي ورثها دوستويفسكي من أجداده الروس. ومن المحتمل أن تكون جميع هذه الحلويات ضرورية لجسمه الضعيف.

آنّا دوستويفسكايا:

كان يحب الكافيار والجبن السويسري والسلامي والسجق، وأحياناً الجامبون والسجق الطازج الساخن وخبز (الكالاتش) لأجل الغداء، كما يحضر الخبز على شكل حلقة لأجل الأولاد. فهو يضع رغيف الخبز الكبير في جيب المعطف، وأحياناً كان يصعب سحبه. يحب الشاي الأسود بـ روبلين و40 كوبيكاً كان يشتريه، دوماً، من عند آرلوف مقابل قصر الضيافة. كان يحب كعك الدبس. ومن أجل إسعادي كان يجلب، أحياناً نوعاً من السمك (السيك) المدخن.

وقبل ثلاثة أسابيع من رحيله جلب المينوك (نوع من السمك). كان يحب الحبر الأسود والورق السميك الجيد ويحب الفالوذة البيضاء ويشتري العسل لشهر الصوم والمربى الكييفي والشوكولاته (لأجل الأولاد) والزبيب الأزرق والعنب وجيليه الفواكه.

كان يشرب النبيذ الأحمر وكأساً من الفودكا، وقبل الحلوى نصف كأس من الكونياك. كان يحب حباً زائداً عن الحد القهوة المغلية جداً. ويذهب بفنجانه إلى غرفته وهو يحمل في يده اليسرى الشمعدان والمحارم، وفي اليد اليمنى – فنجان القهوة. كان يحب البقاء مع الفنجان لفترة من الوقت وحيداً وكان يستاء عندما كانوا يضايقونه بالأحاديث في هذا الوقت بالذات.

ميخائيل ألكسندروف:

كان دوستويفسكي يشرب الشاي ثقيلاً وحلواً وبمعدل عدة كؤوس في اليوم وهو جالس وراء مكتبه ويذهب إلى غرفة الطعام من أجل كل كأس حيث يوجد السماور وعدّة الشاي ويصب بنفسه...

ايلينا شتاكينشنايدر:

ينبغي القول إن دوستويفسكي متقلب الأطوار إذ لم تستطع آنّا إقناعه بأن تجلب له الشاي، وأخيراً تنازلت عن تحضير الشاي لأجله: في الدار كان دوماً يصب الشاي بنفسه لنفسه.

آنّا دوستويفسكايا:

في البداية كان يخض إبريق الشاي بالماء الساخن ثم يملأ الإبريق ماء صافياً ويضعه على النار ثم يضع ثلاث ملاعق من الشاي (بالتأكيد بملعقته الخاصة «به» وكان اسمها «ملعقة البابا») ويصب ثلث الإبريق ثم يغطي الإبريق بمنديل. بعد ثلاث دقائق يبدأ بالسكب فقط بعد أن يتوقف السماور عن الغليان. وعند السكب كان البابا ينظر، بالتأكيد، إلى لون الشاي. وكنا نضطر، في غالب الأحيان، إضافة كمية من الشاي أو إضافة «الخمير». يحدث أن يصل إلى غرفته ثم يعود كي يملأ أو يمزج الشاي بعد ذلك يسكب الشاي الذي يبدو لونه جيداً وبعد جلب الكأس إلى الغرفة يحدّق به فيرى أن اللون قد تغير. كان يضع قطعتين من السكر.

ميخائيل ألكسندروف:

قدمت إلى دار دوستويفسكي، ذات مرة، في أثناء الفطور ورأيت أنه كان يستخدم فودكا الشعير البسيط. يلتقط قطعة من الخبز الأسود ثم يرتشف قليلاً من كأس الفودكا ويمضغ كل شئ. قال لي إن هذا هو الاستخدام الصحي للفودكا.

نيقولاي ستراخوف:

في تذكرنا للخمور أسجّل، بشكل عام، أن دوستويفسكي في هذا المجال، معتدل للغاية. ولا أذكر طوال العشرين عاماً حالة واحدة يمكن أن ألحظ أدنى أثر لشرب النبيذ. على الأرجح هو كان يكتشف شغفاً بالحلوى ولكنه كان يأكل باعتدال.

آنّا دوستويفسكايا:

كان النبيذ يضر كثيراً ودوستويفسكي لم يحتسيه إطلاقاً.

يه. آ. مامونتوفا (كنيتها قبل الزواج ميلتشاكوڤا):

دوستويفسكي نفسه تقريباً لم يكن يشرب وكان، دوماً، ينزعج من تهتك البشر الذين يصلون في الدار إلى مرحلة الانتهاء حتى يتم صب الكمية كلها حتى القاع وعبّر عن ذلك بقوله:

– من يشرب حتى درجة الوقاحة فهو لا يحترم الكرامة البشرية بما تخصه وتخص الآخرين.

السكن

1821–1837 دار الوالدين. شقة ميخائيل دوستويفسكي بالقرب من مستشفى مارلينسكي في موسكو، في بوجيدومكا.

أندريه دوستويفسكي:

تقع الشقة التي شغلها الوالد في أثناء ميلادي وميلاد الطفل في الجناح (بناية جانبية) الحجري الأيمن من ثلاثة طوابق لمستشفى مارلينسكي الموسكوفي، في الطابق الأسفل صار والدنا رب أسرة فيها 4 – 5 أولاد ورتبته ضابط أركان. وقد شغل شقة مكونة من غرفتين نظيفتين ودهليز ومطبخ. والنافذة الموجودة في الدهليز مشرفة على حوش البناء النظيف. تحتوي غرفة الضيوف على نافذتين تطلاّن على الشارع. وعندما كبرت أسرة الوالدين تمت إضافة غرفة أخرى إلى الشقة وفيها ثلاث نوافذ مطلّة على الحوش الخلفي من شقة لم تكن موجودة سابقاً. المطبخ كبير فيه فرن روسي. وفي المدخل خزنة المؤونة. الأسرة كبيرة ولم يحصل جميع أفرادها على أمكنة مريحة. كانت ڤارڤارا تنام ليلاً في غرفة الضيوف على الأريكة. وأنا وڤارڤارا أصغر أفراد الأسرة. كنّا ننام في أرجوحة في غرفة الوالدين. وكانت المربية تنام في الغرفة المظلمة التابعة لغرفة الوالدين.

ايلينا شتاكينشنايدر:

هناك من لاحظ أن دوستويفسكي كان يحب، دوماً، الشقق بسلالم ومعابر.

1843. في زاوية شارع فلاديمير وزقاق الكونت في بطرسبورغ.

قسطنطين تروتوفسكي (1826 – 1893)، رسام غرافيك، مصور، زميل دوستويفسكي في مدرسة الهندسة الرئيسية:

تقع شقته في الطابق الثاني وفيها أربع غرف وبهو واسع. يشغل فيودور إحدى هذه الغرف. وبقية الغرف كانت بلا مفروشات. في غرفته يوجد مكتب وأريكة للنوم وعدة كراسٍ. وتنتشر الكتب والأوراق المملوءة على المكتب والكراسي وعلى أرضية الغرفة.

١٨٥٤ سيميپالاتنسك

ألكسندر فرانكل:

يقع بيت دوستويفسكي الفلاحي في مكان غير لائق إطلاقاً إذ تحيط به أرض خليّة ورمل سريع الانهيار ولا أغصان ولا شجرة. كان البيت مبنياً من جذوع الشجر، عتيقاً بلا أساسات وبلا أية نافذة مطلّة على الخارج خوفاً من السلب والنهب واللصوص. نافذتا غرفته تطلان على الحوش وفيه بئر

وغرانيق. ويحيط بالحوش سور غير كبير تخيم عليه شجيرتان لا أكثر تحملان توت العليق والعنب.

كان عند دوستويفسكي غرفة واحدة، كبيرة إلا أنها واطئة جداً. تسود فيها الظلمة على الدوام. الجدران المبنية من جذوع الشجر كانت مصبوغة بالغضار وبيضاء الكلس في وقت مضى. أريكة كبيرة على طول جدارين. وعلى الجدران، هنا وهناك، لوحات رخيصة، موسخة ومبقعة بالذباب. عند المدخل على يسار الأبواب يوجد موقد روسي كبير.

١٨٥٥ سيميپالاتنسك

زينابيدا أرتيميفنا صيتينا (كنيتها قبل الزواج ﻏ‍ايبوڤيتش) ابنة قائد سرية في الكتيبة السيبيرية السابقة آ. ي. ﻏ‍ايبوڤيتش التي خدم فيها في البداية دوستويفسكي في سيميپالاتنسك:

أذكر البيت الصغير الذي عاش فيه دوستويفسكي في مدينة سيميپالاتنسك. فيه أربع غرف. الأولى صغيرة غرفة الطعام، بجانبها غرفة النوم. وإلى يسار الأولى غرفة الضيوف، ومن غرفة الضيوف إلى اليسار باب يؤدي إلى المكتب. مفروشات الغرف بسيطة إلا أنها مريحة للغاية. يوجد في غرفة الضيوف أريكة وكراسٍ بمساند وكراسٍ عادية. برادي على النوافذ والأبواب. وجميع الغرف مرتبة بلطف وبساطة وبكثير من الراحة المنزلية.

١٨٦٦ بناء ألونكين في بطر سبورغ
في زقاق ستاليارني

آنّا دوستويفسكايا:

كان البناء كبيراً فيه عدة شقق صغيرة يسكنها تجار وحرفيون. ذكّروني، على الفور، بالبناية في رواية «الجريمة والعقاب» التي عاش فيها بطل الرواية راسكولنيكوف.

تقع الشقة رقم 13 في الطابق الثاني... دعتني الخادمة إلى الغرفة التي تبين أنها غرفة الطعام. فرشها متواضع للغاية. عند الجدارين يوجد صندوقان كبيران، كل واحد مغطى بسجادة صغيرة. وعند النافذة كومودينا. وبجانب الجدار أريكة معلق فوقها ساعة حائط...

مكتب دوستويفسكي عبارة عن غرفة كبيرة ونافذتين. في الأيام المشمسة تكون الغرفة مضيئة للغاية، وفي أيام أخرى تترك انطباعاً ثقيلاً.

في عمق الغرفة توجد أريكة ناعمة. وعلى المنضدة مصباح وألبومان. الكراسي والكراسي بمساند تملأ كل الفراغات. فوق الأريكة بورتريه في إطار من شجر الجوز لسيدة نحيفة هزيلة للغاية في رداء أسود وقلنسوة نسائية خفيفة وفكرت: «من المحتمل أن تكون هي زوجة دوستويفسكي لأنني لا أعرف وضعه العائلي».

توجد بين النافذتين مرآة كبيرة في إطار أسود. وبما أن الحائط بين النافذتين كان أوسع من المرآة فهي قد تم سحبها أقرب إلى النافذة اليمنى وهذا لم يضْف جمالاً على المشهد. تزينت النافذتان بمزهريتين صينيتين كبيرتين في شكل رائع. وعلى طول الجدار أريكة كبيرة من الجلد المراكشي الأخضر وبجانبها طاولة صغيرة عليها إبريق ماء. وفي المقابل على عرض الغرفة يوجد مكتب صرت لاحقاً أجلس وراءه على الدوام عندما كان دوستويفسكي يمْلي عليّ. وضع المكتب كان عادياً للغاية مثلما كنت أراه لدى الناس غير الأثرياء إطلاقاً.

١٨٧٣، في بطر سبورغ

السرية الثانية في فوج اسماعيلوفسكي

فسيفولود سولوفيف:

عبرت غرفة معتمة ثم فتحت الباب فرأيت نفسي في مكتبه. ولكن هل يمكن تسمية هذه الغرفة الفقيرة في جناح صغير مكتباً علماً أنه عاش وعمل فيها واحد من فناني عصرنا الأكثر إلهاماً وعمقاً! مباشرة بجانب النافذة توجد طاولة بسيطة عتيقة فوقها شمعتان مشتعلتان وعدة جرائد وكتب... محبرة قديمة ورخيصة وعلبة تنباك مع اللفائف... وعند المنضدة خزانة صغيرة. وعلى الجانب الآخر أريكة عادية كان دوستويفسكي يستخدمها للنوم وعدة كراسٍ ثم طاولة أخرى ولا شئ آخر...

أمام عينيّ انتقل دوستويفسكي في هذه السنوات الثماني إلى عدة شقق وكلها كانت الواحدة أكثر قتامة من الأخرى، وعلى الدوام كانت غرفته غيرمريحة بحيث كان من الصعب التحرك فيها.

١٨٧٦، في الشارع الاغريقي
في سانت – بطرسبورغ

ميخائيل ألكسندروف:

كان دوستويفسكي يعيش، حينذاك، في الشارع الإغريقي في بناء يقع بين الكنيسة اليونانية وعدد من البرك. وكان البناء عتيقاً مثل سابقه. تقع الشقة في الطابق الثالث وهي تشبه الشقة السابقة أيضاً حتى أن النوافذ تطل على الجانب نفسه، وبالذات على الشرق... وقد شغلتني، ذات مرة، مسألة أن دوستويفسكي تثير اهتمامه الشقق العتيقة، لماذا؟ توصلت إلى نتيجة أن دوستويفسكي بحاجة إلى شقق أرخص. فهو كان يعيش من مدخوله الأدبي حصراً وهذا يعني، في بلادنا، أن تعيش بتواضع. فهو كما لو كان يعيش في خلوة – صومعة قليلاً ما يستقبل معارفه في غرفته وغالباً ما كان يقضي وقته فيها. كان يكتب بعض الأفكار والآراء والحقائق لأجل أعماله المقبلة... إنها الغرفة التي كان يكتب فيها «يوميات كاتب».

لودميلا سميرنوفا – خوخرياكوفا:

كان يعيش، وقتذاك، بجانب الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، في الطابق الثالث، في شقة متواضعة. مكتبه صغير بنافذة واحدة. أريكة جلدية ومكتب تحتشد فوقه الجرائد والكتب، وعدة كراسٍ ومنضدة صغيرة بجانب الجدار، وفنجان شاي من النوع الجيد.

١٨٧٧ – ١٨٨٠، بناء في ستارايا روسا

(«عزبة غْريبة»)

لوبوف دوستويفسكايا:

بنى دوستويفسكي بالأموال التي وفّرها أثناء الخدمة العسكرية داراً صغيرة. كان كل شئ في هذه الدار بحجم صغير. نوافذ ضيقة وغرف ضيقة فيها مفروشات قديمة ومرايا خضراء ولوحات على الجدران وشرفة مسقوفة بمرايا متعددة الألوان وبلياردو صيني صغير ذو دوائر زجاجية وأجراس كانت تسلّينا في أيام المطر المتواصلة وهي غزيرة مثلما هي الحال في الشمال. خلف الدار حديقة تتفتح فيها الزهور. وهي صالحة لزراعة جميع الثمار حيث فيها خنادق صغيرة يتجمع فيها الماء. وقد حفر العقيد غْريبه بنفسه هذه الخنادق بغية حماية توت العليق والعنب من فيضانات الربيع. كان العقيد يعيش في غرفتين من الطابق الأول ويؤجر الباقي

للمصطافين. في وقت لاحق بعد وفاة العقيد اشترى الوالدان هذه الدار من الورثة بأبخس الأثمان.

آنّا دوستويفسكايا:

يقع منزل غْريبه الصيفي على طرف المدينة بالقرب من كولوميتس على ضفة نهر پيريريتسا ومحاط بأشجار الدردار الضخمة. وعلى الجانبين الآخرين من الدار (على طول الحديقة) تمتد الشوارع الواسعة وثمة جانب واحد من الدار يتلاصق مع بيت الجيران. ونظراً لأن دوستويفسكي يخاف الحرائق فهو ثمن تثميناً رفيعاً عزلة منزلنا الصيفي. وكان الزوج معجباً بالحديقة ذات الظلال الوارفة والحوش الكبير الذي كان يتنزه فيه لأجل صحته في أوقات انهمار الأمطار عندما كانت المدينة تغرق في الوحل. وكنّا زوجي وأنا معجبان بالغرف المريحة للمنزل الصيفي.

١٨٧٨ – ١٨٨١، الشقة الأخيرة،

في زقاق كوزنتسوف، البناء٥، بطرسبورغ

آنّا دوستويفسكايا:

تضم شقتنا ست غرف ومكاناً خاصاً لتخزين الكتب وبهواً ومطبخاً. تقع الشقة في الطابق الثاني. سبع نوافذ تطل على زقاق كوزنتسوف. يقع مكتب الزوج هنا حيث تم الآن حفر لوح من المرمر. المدخل الخارجي موجود بالقرب من غرفة الضيوف (بجانب المكتب).

ألكسندر ريزنيكامف:

قبل كل شئ، كان ذا بنية كأنها مصابة بداء الخنازير وصوت أجش لوجود انتفاخ كثير في الغدد ما تحت الفك والرقبية ولون وجهه ترابي يدل على حالة الدم الفاسدة ومرض مزمن في الطرق التنفسية. وفيما بعد توحدت انتفاخات الغدد في أجزاء أخرى بحيث تشكلت دمامل. وأما في سيبيريا فقد عانى من نخر العظام في الساقين. بيد أنه تحمل كل هذه الآلام برباطة جأش، ولم يلجأ إلى الإسعاف الطبي إلا في الحالات القصوى. وقد شكا لي، غير مرة، أنه في الليل يبدو له وكأن شخصاً ما يشخر مما يؤدي به الأمر إلى حالات الأرق والاضطراب بحيث لا يجد مكاناً لنفسه. في هذا الوقت كان ينهض ويقضي طوال الليل في القراءة، وفي الأغلب في كتابة القصص المتنوعة الموضوعة ضمن الخطة. وفي الصباح لم يكن وضعه على ما يرام إذا كان يضطرب لكل ترهة ويتخاصم مع ساعي البريد ثم يتوجه إلى إدارة الهندسة وهو متكدر يلعن الخدمة ويشكو من ضباط الهندسة ولا يحلم إلا بالاستقالة في أقرب وقت...

آنّا دوستويفسكايا:

كان دوستويفسكي يعاني من انتفاخ والتهاب في الغشاء المخاطي والطرق التنفسية. يتنفس بصعوبة ويصعد بالكاد على السلالم والدرجات. مثلاً، نصعد إلى پولوني في الطابق الخامس بينما هو يجلس للاستراحة في كل فسحة. يمر عدد من المعارف. ينحني مسلماً أو مودعاً. يعلمون رب البيت: «دوستويفسكي حضر». ببساطة يقف رب الأسرة وزوجته عند المدخل بانتظاره. ويتنافس الجميع في مساعدته كي يخلع السترة... هو يلهث ولا يستطيع النطق بأية كلمة. تمر عشر دقائق على إنهاء الخلع.

لم يكن يحب أن يسأله أحد كيف الصحة إذ كان يغضب. غالباً ما يقول: يقال عني أنني عابس متجهم وساخط بينما هم لا يعرفون أن الهواء ينقصني وأنا بحاجة للاستنشاق وإنني ألهث. إنني كما لو كنت أتنفس من خلال منديل.

ميخائيل ألكسندروف:

كان دوستويفسكي يحب أن يفصح عن ذاته بحيوية ونشاط أمام أشخاص لا يعرفهم. هو إنسان سليم من الناحية الجسدية وهنا يجهد الرنين والحالة التعبيرية عن صوته...

«المرض المقدس»

ستيبان يانوفسكي:

أول مرض توجه دوستويفسكي بسببه طلباً للمساعدة كان موضعياً. غير أنه في أثناء العلاج كان غالباً ما يشكو من دوار الرأس. وفي أثناء مراقبتي الشديدة له ومعرفتي بأن العديد من قصصه تدور حول الظواهر العصبية التي كانت تخصه في الطفولة فإنني أخذت بالحسبان أن مزاجه وبنيته فسحت المجال دوماً لمرض عصبي ما.

ألكسي سوفورين (1834 – 1912) كاتب وصحفي وناشر:

أضاف مرض الصرع الذي عانى منه منذ سنوات الطفولة الشئ الكثير إلى طريقه الشائك في الحياة. وقد حدث معه في الطفولة شئ كما لو كان قد تضاءل في السنوات الأخيرة إلى حد الندرة ولكنه كان دائماً موجوداً تبعاً للجهد المبذول في العمل، والهم والأسى، والإخفاقات الحياتية والجور والقسوة في عادات الحياة الروسية والأدب الروسي. كان يشعر بالنوبات ويبدأ التألم بصورة يستحيل التعبير عنه. وكان يدب الخوف من الموت في أثناء النوبة إلى روحه بصورة غير إرادية. إنه سيف دوموكليس المعلق بشعرة تعيسة. بالطبع، كلنا نعرف بأننا سنرحل عن الحياة في وقت ما، ومن الممكن أن نموت غداً إلا أن هذا هو الوضع العام: فهو يخيفنا أو يخيف في أثناء خطر ما محدق. كان هذا الخطر موجوداً، دوماً، عند دوستويفسكي. كان وجوده دائماً كما لو كان عشية الموت. وفيما عدا

الأمراض العادية وحالات الموت الاستثنائية كان لديه شئ آخر هو الخوف من نوبات المرض أي الخوف من الموت في حالات التشنجات وحالة فقدان الذاكرة، الموت خلال خمس دقائق.

نشأ خوف مرعب من الموت تحت تأثير الخطر الأبدي من الانتقال من هذه الحياة إلى حياة أخرى مجهولة. النوبة ولت وصار، من جديد، حيوياً طليق اللسان. ذات مرة، أدركته وهو قد تخلص لتوه من النوبة. هو جالس وراء مكتبه يحضر لفة السيجارة وبدا لي غريباً – تماماً هو سكران. نظرت إليه:

«لا تتعجب، كانت عندي الآن النوبة».

فسيفولود سولوفيف:

أود أن أعرف، بشكل دقيق، شيئاً عن مرض الصرع الرهيب الذي سمعت عنه أن دوستويفسكي يعاني منه ولكن لم أستطع حتى اتخاذ قرار، ولو من بعيد، بالاقتراب من هذه المسألة. فهو نفسه كما لو كان قد حزر أفكاري وبدأ بالحديث عن مرضه. قال لي إنه يعاني أزمة منذ فترة من الوقت وأعصابي «مخربطة» منذ سن الشباب. انكشف عندي مرض عصبي غريب ومؤلم بشكل لا يطاق حتى قبل سنتين من سيبيريا، في أثناء منغصاتي وخصوماتي الأدبية. لا يمكنني أن أروي هذه الأحاسيس المنفرة إلا أنني أذكرها بكل حيوية. غالباً ما بدا لي أنني أعاني سكرة الموت، وفي الحقيقة

انقضّ الموت الحقيقي ثم وليّ. وفجأة وليّ هذا المرض الشنيع. خفت أيضاً من السبات. ومن الغريب أنني ما إن اعتُقلت حتى وليّ هذا المرض الكريه سواء في الطريق أو في الأشغال الشاقة في سيبيريا وأنا، لاحقاً لم أعان منه إطلاقاً – أصبحت، فجأة نشيطاً وقوياً وناضراً وهادئاً... ولكن في أثناء الأشغال الشاقة حدثت نوبة الصرع الأولى وهي حتى الآن لا تفارقني. كل ما جرى معي قبل النوبة الأولى وأدنى حادث في حياتي وكل شخص قابلته وكل ما قرأته وسمعته، إن كل هذا أذكره حتى في أصغر التفصيلات. وكل ما بدأ ابعد النوبة الأولى أنساه بقوة حتى أنني أنسى أحياناً الناس الذين كنت أعرفهم جيداً، أنسى الوجوه. نسيت كل ما كتبته بعد الأشغال الشاقة. عندما أنهيت «الشياطين كان ينبغي أن أعيد قراءة كل شئ من البداية لأنني نسيت حتى أبطال العمل...»

صوفيا كوفاليفسكايا:

أنا وأختي كنا نعرف أن دوستويفسكي يعاني مرض الصرع وكان هذا المرض محاطاً في عيوننا بذاك الفزع السحري بحيث لم نحاول أبداً أن نتناول هذه المسألة حتى ولو بتلميح بعيد. ولشدة استغرابنا، هو نفسه بدأ الكلام وأخذ يروي عن الظروف التي أدت إلى النوبة الأولى. وفيما بعد رواية مختلفة تماماً في هذا الصدد: كما لو كان دوستويفسكي قد أصيب بالصرع نتيجة للعقاب بالقضبان الذي تعرض له في فترة الأشغال الشاقة.

الروايتان لا تتشابهان فيما بينهما على الإطلاق، فإحداهما صحيحة. وقد ذكر لي أطباء كثيرون أن المصابين بهذا المرض ينسون كيف بدأ المرض يجتاحهم ويبدؤون بقصص من نسج الخيال حول الموضوع.

حدثنا دوستويفسكي نفسه قائلاً: بدأ هذا المرض يصيبه بعد الأشغال الشاقة. كان يشقى، وقتذاك، بسبب العزلة والوحدة إذ تمر أشهر دون أن يرى أي مخلوق يتبادل معه ولو كلمة. فجأة وعلى غير توقع قدم إلينا رفيق قديم له (نسيت الآن الاسم الذي سماه به دوستويفسكي). حدث هذا ليلة عيد الميلاد، ولفرحة اللقاء نسيا ما هذه الليلة. جلسا طوال الليل في الشقة يتحدثان دون أن يلحظا الوقت أو التعب، وهم يسكران من الكلمات الخاصة بهما.

تحدثا أنهما يعشقان بل أعزّ ما عندهما هو الأدب والفن والفلسفة، وتناولا، أخيراً، الدين.

كان الرفيق ملحداً، ودوستويفسكي– مؤمناً. الاثنان عقائديان كلٌ في مجاله.

صرخ أخيراً دوستويفسكي من شدة الانفعال: يوجد إله، يوجد. في هذه اللحظة سمعا صوت أجراس الكنيسة المجاورة لأجل صلاة صباح عيد الميلاد ثم توقف.

روى دوستويفسكي: أنا شعرت أن السماء ذهبت إلى الأرض وابتلعتني. أنا، فعلاً، فهمت الرب وتغلغلت فيه. نعم يوجد إله – صرخت ولم أتذكر شيئاً آخر.

– واصل كلامه: أنتم جميعكم أصحاء الجسد ولا تشكّوا أن مثل هذه السعادة هي تلك السعادة التي نحس بها، نحن المصابين بالصرع خلال ثوانٍ قبيل النوبة..

ذكر دوستويفسكي هذه الكلمات الأخيرة بهمس شغوف وكنا جلسنا ممغنطين بسحر كلماته. وفجأة راودتنا الفكرة التالية: الآن سيصاب بنوبة.

نيقولاي ستراخوف:

كان يصاب بالنوبات تقريباً مرة واحدة في الشهر. ولكن أحياناً وإن كان نادراً بمعدل نوبتين في الأسبوع. وعندما كان في البلدان الأجنبية حيث الهدوء والسكينة ونتيجة للمناخ الأفضل صارت تصيبه النوبة مرة كل أربعة أشهر. كان الحس الداخلي للأزمة موجوداً دائماً إلا أنه من الممكن أن يخدع. ففي رواية «الأبله» يوجد وصف مفصل للأحاسيس التي يشعر بها المريض. صدف أن كنت شاهداً، ذات مرة، على كيفية حدوث النوبة – الأزمة عند دوستويفسكي بالقوة العادية. حسبما أذكر حدث الأمر في عام 1863 تماماً عشية الأحد النوراني الساعة الحادية عشرة. قدم إلي وتحادثنا بكل همة ونشاط. لا أذكر المادة إلا أنني أعرف أنها كانت مادة

هامة ومجردة. تحمس دوستويفسكي كثيراً وجرى في أرجاء الغرفة وأنا جلست وراء الطاولة. نطق هو بشئ ما مفرح ورفيع المستوى. وعندما ساندت رأيه بملاحظة ما، توجه إلي بوجه ملهم كي يريني أن الوحي عنده بلغ أرفع مستوى... وفجأة خرج من فمه المفتوح صوت غريب وممطوط ولا معنى له وسقط على أرضية الغرفة في الوسط دون أحاسيس.

لم تكن النوبة، هذه المرة، قوية. ونتيجة للتشنج استقام جسده وظهر الزبد على فمه. وبعد نصف ساعة عاد إلى رشده. وأنا أوصلته إلى بيته سيراً على الأقدام لأن البيت كان قريباً.

روى لي دوستويفسكي، مرات عديدة، كيف أنه تتجلى قبيل النوبة دقائق من حالة الابتهاج والحماس وقال: أحسست خلال لحظات بمثل هذه السعادة المستحيلة في الوضع العادي والتي لا يدركها الآخرون. أشعر بالانسجام الكامل في داخلي وفي العالم بأسره وهذا الشعور قوي ولذيذ لدرجة أن عدة ثوان من هذه الغبطة يمكنها أن تمنح عشر سنوات من الحياة، بل ربما الحياة كلها.

تظهر نتيجة للنوبات، أحياناً، رضوض عرضية أثناء السقوط وألم في العضلات بسبب التشنجات التي يتحملها. ونادراً ما يظهر احمرار على الوجه، بل بقع في بعض الأحيان. ولكن الشئ الرئيسي هو أن المريض كان يفقد الذاكرة ويشعر، ليومين أو ثلاثة أيام، بأنه محطم كلياً. كانت حالته النفسية قاسية وثقيلة فهو بالكاد كان ينتصر على ضجره وحساسيته.

وحسب كلامه، تقوم طبيعة هذا الضجر على أنه كان يشعر بأنه مجرم ما وبدا أنه يلقى عليه ويثقل كاهله ذنب غير مرئي وفظيع ووحشي.

آنّا دوستويفسكايا:

في آخر يوم من عيد اعتراف الصوم الكبير (عام **1867**) تناولنا الغداء عند الأهل، وفي المساء سهرنا عند أختي. تناولنا العشاء في جو مرح. تفرق الضيوف ونحن بقينا جالسين. كان دوستويفسكي نشطاً للغاية وروى أشياء ممتعة لشقيقتي. فجأة قطع كلامه في منتصفه دون أن يكمل كلمته وشحب لونه ونهض نصف نهضة عن الأريكة وأخذ يميل في اتجاهي. مع اندهاشي الشديد نظرت إلى وجهه المتبدل ولكن فجأة دوى صراخ فظيع غير بشري، على الأصح عويل. وبدأ دوستويفسكي يميل إلى الأمام. في الوقت نفسه دوى صراخ أختي التي كانت تجلس بجانب الزوج. قفزت عن الكرسي ذي المسند وهرعت من الغرفة وهي تنتحب نحيباً هستيرياً. قفز صهري في أثرها.

فيما بعد سمعت هذا العويل «غير البشري» الاعتيادي عند المصابين بالصرع في بداية الأزمة ولعشرات المرات. وكان هذا العويل يرعبني دوماً. ولكن حينذاك، ولشدة تعجبي، في هذه اللحظة أيضاً لم أشعر إطلاقاً بأي خوف علماً أنني رأيت نوبة الصرع لأول مرة في حياتي. أمسكت دوستويفسكي من الكتفين وأجلسته على الأريكة بقوة. ولكن رعبي كان

فظيعاً للغاية عندما رأيت أن جسد زوجي الفاقد للشعور قد انسل من الأريكة وليست لدي القوة للإمساك به. أبعدت الطاولة مع اللمبة المشتعلة وأعطيت دوستويفسكي الإمكانية كي يجلس على الأرضية وأنا نفسي أيضاً هبطت، وطوال فترة التشنج أمسكت برأسه على ركبتي الاثنتين. لم يكن هناك أحد لمساعدتي: كانت أختي في حالة من الهستيريا وصهري والخادمة حولها. توقفت التشنجات تدريجياً وأخذ دوستويفسكي يعود إلى رشده. غير أنه، في البداية لم يستوعب أين هو حتى أنه فقد حرية الكلام: كل الوقت أراد أن يقول شيئاً إلا أنه عوضاً عن الكلمة المطلوبة ينطق بأخرى وكان يستحيل فهمه. ربما فقط بعد نصف ساعة أمكننا رفع دوستويفسكي وتجليسه على الأريكة. تقرر أن نفسح له المجال كي يهدأ قبل التوجه إلى البيت، ولكن لحزني الشديد تكررت النوبة بعد ساعة من الأولى، وفي هذه المرة بتلك القوة وبعد عودته إلى وعيه صرخ من الألم. كان شيئاً مرعباً. وفيما بعد كانت تحدث، أحياناً، نوبتان ولكن بصورة أندر. وقد فسر الأطباء، في هذه المرة، الهيجان إلى أقصى حد بأن سببه الشمبانيا التي شربها دوستويفسكي في أثناء زياراتنا إلى الأعراس وإقامتها على شرف الشباب.

لزم الأمر أن نبيت ليلتنا عند أختي لأن دوستويفسكي كان منهوك القوى ناهيك أننا خفنا من نوبة جديدة. ما أفظع تلك الليلة التي قضيتها عند أختي. هنا، للمرة الأولى رأيت كيف يتألم دوستويفسكي من هذا المرض

المرعب. طوال الليل كنا نسمع صرخاته ونحن نرى وجهه الذي لا يشبه وجهه الحقيقي حيث جمدت العينان وحديثه غير مترابط وكنت، تقريباً مقتنعة بأن زوجي العزيز الغالي المحبوب سيجنّ وهذه الفكرة أفزعتني.

ولكن حمداً لله! استيقظ دوستويفسكي بعد عدة ساعات، بعد أن استعاد وعيه واستطعنا الذهاب إلى البيت. غير أن هذا المزاج المفعوم والمسحوق الذي يتبدى دوماً بعد النوبة قد استمر أكثر من أسبوعٍ. وكان دوستويفسكي يحدد حالته المرضية بعد النوبة كما يلي: «كما لو أنني فقدت أعز كائن في العالم بالنسبة إليّ ثم حافظت عليه بدقة». ظلت هذه النوبة المزدوجة ذكرى قاسية وثقيلة إلى الأبد.

نيقولاي ستراخوف:

كان من عادته أن يضطر إلى الاستعجال والكتابة ضمن الوقت المحدد ويطارد العمل ويتأخر عنه في حالات غير قليلة. يعود السبب إلى أنه كان يعيش من الأدب وحده حتى الفترة الأخيرة، وحتى السنين الثلاث الأخيرة كان يحتاج إلى النقود لذا صار يجمع النقود مسبقاً ويعطي الوعود ويضع الشروط التي كان يلتزم بتنفيذها لاحقاً. لم يكن لديه لا حسن إدارة وتدبير ولا تحفظ ولا تماسك في النفقات بتلك الدرجة العالية التي يتطلبها العيش بالمجهود الأدبي وحده. لذا قضى عمره يروح ويجئ مثلما هي الحال في الأحبولة وظل، طوال حياته، يكتب بعجلة وجهد حثيث.

آنّا دوستويفسكايا:

أريد أن أشرح كيف ظهر، وبالذات هذا القدر من الديون التي كانت تعذّبنا نحن الاثنين.

الحصة الأصغر من هذه الديون أي ألفين – ثلاثة آلاف سببها شخصياً دوستويفسكي. وبشكل رئيسي كانت هي ديون ميخائيل دوستويفسكي في معمل التبغ والتنباك ومجلة «ڤريميا» بعد وفاة ميخائيل الفجائية (مرض فقط ثلاثة أيام) كانت أسرته، الزوجة وأربعة أولاد اعتادوا على بحبوحة العيش

وإذا بهم بلا أية موارد. لغاية ذاك الوقت رأى فيودور دوستويفسكي المترمل والذي ليس لديه أطفال، أنه لزاماً عليه أن يدفع ديون الشقيق ومساندة أسرته. من المحتمل أن ينفذ نيته النبيلة فيما لو كان يتمتع بطبع حريص وعملي. مع الأسف، كان يثق ثقة قوية بالشرف والنبل الإنساني. وقد سمعت، لاحقاً، قصص شهود العيان بأن دوستويفسكي كان يعطي الحوالات وعرفت من الرسائل العتيقة تفاصيل العديد من الحقائق ومما أدهشني هو روحه اللاعملية الطفلية. كانوا يخدعونه ويأخذون الحوالات بكل وقاحة وصفاقة. وفي حياة الشقيق لم يدخل دوستويفسكي في الجانب النقدي من المجلة ولم يعرف الوضع الذي تحياه هي. وبعد وفاة الشقيق ميخائيل اضطر الزوج إلى الالتزام بإصدار مجلة «ايبوخا» وأخذ على عاتقه جميع الديون غير المدفوعة بالنسبة إلى إصدار مجلة «ڤريميا» (الطباعة، الورق، التجليد وما إلى ذلك). وفيما عدا العاملين المعروفين من قبل دوستويفسكي أخذ يزوره غرباء عنه لا يعرفهم إطلاقاً يدّعون أن المرحوم مدين لهم بمبالغ معينة. لا توجد براهين على ذلك وكان دوستويفسكي يثق بجميع البشر ويؤمن بالشرف الإنساني ولم يسألهم شيئاً. حسبما فهمت كان يقول لطلاب الدين:

– الآن ليست عندي أية نقود. إذا أردتم يمكنني إعطاءكم حوالة. الرجاء لا تستعجلوني سوف أدفع حيث يمكن الدفع.

أخذ الأشخاص الحوالات ووعدوا بالانتظار، وبالطبع لم ينفذوا الوعد وأفصحوا عن الرغبة الفورية. وتقدر الديون جميعها بـ /20/ ألفاً تقريباً مع الفوائد صارت بعد عودتنا إلى روسيا /25/ ألفاً. وقد اضطررنا إلى دفع هذا المبلغ بالكامل خلال مدة ثلاثين سنة. واستطعنا التحرر من هذه الديون فقط قبل وفاة الزوج بسنة واحدة.

اضطر دوستويفسكي لأجل سداد هذه الديون الوهمية إلى العمل فوق الطاقة المحتملة وحرمان الذات والأسرة من أسباب الراحة وحتى من الحاجات الضرورية.

كان الوعد الذي قطعه دوستويفسكي على نفسه بسداد الديون ضاراً من الناحية الاقتصادية أيضاً: في الوقت الذي كان فيه الكتاب الميسورون (تورغينيف، تولستوي، غونتشاروف) يعرفون أن رواياتهم سيتم التنافس عليها من قبل المجلات وكانوا يحصلون على خمسمئة روبل عن الورقة المطبوعة بينما دوستويفسكي غير الميسور كان عليه أن يقترح بنفسه عمله على المجلات وبما أن المقترح يخسر دوماً فهو في المجلات ذاتها كان يحصل على نسبة أقل بكثير. وهكذا حصل لقاء روايات « الجريمة والعقاب» و«الأبله» و«الشياطين» على مئة وخمسين روبلاً لقاء الورقة المطبوعة ونال عن رواية « المراهق» مئتين وخمسين روبلاً عن الورقة المطبوعة وفقط عن روايته الأخيرة «الإخوة كارامازوف» نال ثلاثمئة روبل عن الورقة المطبوعة.

نيقولاي ستراخوف:

تلقت « يوميات كاتب» لعام 1876: 1982 مشتركاً ومن كل عدد يذهب للبيع بالمفرق 2000 – 2500 نسخة. احتاجت بعض الأعداد إلى طبعة ثانية وحتى طبعة ثالثة، مثل عدد كانون الثاني.

وفي عام 1877 كان هناك حوالي 3000 مشترك والنسبة نفسها أثناء البيع بالمفرق. وعدد واحد صادر في آب 1880 ويتضمن حديثاً عن بوشكين قد طبع منه 4000 نسخة ونفق العدد خلال عدة أيام. وصدرت طبعة جديدة – 2000 نسخة وبيعت بلا مرتجعات.

تم طبع « اليوميات» في عام 1881 – 8000 نسخة وبلغ عدد المشتركين لشهر كانون الثاني 1074 مشتركاً. نفدت جميع النسخ الثمانية آلاف في أيام حمل النعش والدفن. تم إصدار طبعة ثانية بـ 6000 نسخة ونفدت دون مرتجعات.

صدرت «الشياطين» في 3500 نسخة في 24 تشرين الثاني 1873.

وصدرت «الأبله» في 2000 نسخة في 24 كانون الثاني 1874.

وصدرت « مذكرات بيت الموتى» في 2000 نسخة في 21 كانون الأول عام 1875.

وصدرت «الجريمة والعقاب» في 2000 نسخة في 18 كانون الأول 1876.

وصدرت «مذلون ومهانون» في 2400 نسخة في 10 تشرين الثاني 1879.

وصدرت «الإخوة كارامازوف» 4000 نسخة في نهاية 1880.

فرح دوستويفسكي كثيراً بتعديل أوضاعه المالية. وهو لم يفتخر بنجاح مؤلفاته فحسب بل بأنها، أيضاً، تمنحه دخلاً جيداً وتتيح له المجال كي يسدد الديون وتجلب له الرخاء واليسر. تم الاحتفاظ بورقة في إحدى مفكراته يجري فيها حساب المدخول الصافي من كل الطبعات.

وإليكم المفكرة:

عام ١٨٧٧

«الجريمة والعقاب» – المبيع 487 روبلاً 12 كوبيكاً

«النسخ المجلدة من اليوميات» لعام 1876 497 روبلاً 80 كوبيكاً

«الشياطين»، «الأبله»، «مذكرات من بيت الموتى» 561 روبلاً 63 كوبيكاً

لعام 1876 295 روبلاً 40 كوبيكاً

الناتج 1841 روبلاً 25 كوبيكاً؟

عام ١٨٧٨

«الشياطين»، «الأبله»، «مذكرات من بيت الموتى» 1199 روبلاً 50 كوبيكاً

«الجريمة والعقاب» 548 روبلاً 98 كوبيكاً

النسخ المجلدة لعام 1877 346 روبلاً 50 كوبيكاً

النسخ المجلدة لعام 1876 281 روبلاً 68 كوبيكاً

الناتج 2376 روبلاً 66 كوبيكاً

عام ١٨٧٩

«الشياطين»، «الأبله»، «مذكرات من بيت الموتى» 1271 روبلاً 99 كوبيكاً

«الجريمة والعقاب» 797 روبلاً 16 كوبيكاً

«اليوميات» المجلدة لعام 1877 121 روبلاً 2 كوبيكً

«اليوميات» المجلدة لعام 1876 98 روبلاً 61 كوبيكاً

«مذلون ومهانون» 227 روبلاً 24 كوبيكاً

الناتج 2516 روبلاً 2 كوبيكً

عام ١٨٨٠

«الشياطين»، «الأبله»، «مذكرات من بيت الموتى» 1287 روبلاً 20 كوبيكاً

«الجريمة والعقاب» 933 روبلاً 99 كوبيكاً

«اليوميات» لعام 1877 219 روبلاً 14 كوبيكاً

«اليوميات» لعام 1876 247 روبلاً 6 كوبيكات

الناتج 2687 روبلاً 39 كوبيكاً

«مذلون ومهانون» 548 روبلاً 51 كوبيكاً

«اليوميات» لعام 1880 893 روبلاً 87 كوبيكاً

الناتج 4129 روبلاً 77 كوبيكاً

«الإخوة كارامازوف» 3681 روبلاً 27 كوبيكاً

نضيف إلى الجداول تلك المبالغ المحصول عليها لقاء الروايات الجديدة المطبوعة في المجلات بهدف تقديم مفهوم كامل عن أعمال دوستويفسكي.

طبعت «المراهق» في «المذكرات الوطنية» وحصل على /250/ روبلاً لقاء كل صفحة مطبوعة وحصل على 300 روبل لقاء كل صفحة مطبوعة من رواية «الإخوة كارامازوف». بعد عام 1878 لم تعد هناك أية ديون وبدأ دوستويفسكي جمع رأسمال غير كبير.

آنّا دوستويفسكايا:

عشية رأس السنة الجديدة 30 و31 كانون الأول أجرى حساباته في بيع مطبوعاتنا في تلك السنة وكان مسروراً حتى المستحيل عندما كان يرى مبيعات كتبنا تجري على ما يرام.

الأهل والأقارب

الوالـدان

أندريه دوستويفسكي:

أنهى والدي ميخائيل أندرييڤيتش دوستويفسكي نشاطه الاجتماعي وكان مستشاراً في الكلية وفارساً بثلاث ميداليات. من مواليد محافظة كامينيتس – بودولسكي. تعود عائلة الدوستويفسكيين في أصولها إلى عدد من العائلات العريقة النبيلة.

على أقل تقدير ورد في كتاب الأنساب للأمير دولغوروكوف أن عائلة النبلاء تعود إلى العائلات الليتوانية الموجودة قبل عام 1600. لم أسمع بآخرين حملوا الكنية نفسها أي لا وجود إلا لأسرتنا. سمعت أنه في وقتنا الحاضر توجد في محافظة كامينيتس – بودولسكي بلدة اسمها دوستويڤو كانت تعود ملكيتها في وقت ما مضى، إلى أجدادنا. ومن بين بعض الأوراق التي تعود للمرحوم الوالد وصلت إلى يديّ أن والد والدي أي جدي أندريه من ناحية الأب كان خورياً. بالنسبة إلى والدتي أذكر أن والدي كان يتذكرها باحترام مميز معتبراً إياها ذكية ومتنفذة في إقليمها النائي. على فكرة لا أعرف كنية والدتها.

بما أن جدي كان يود بالتأكيد أن يسير والدي (ابنه) على خطاه ويصبح خورياً وبما أن الوالد لم يشعر بالدعوة إلى هذه المهنة فقد ابتعد عن دار

الأب ميمماً شطر موسكو حيث انتسب إلى أكاديمية الطب الجراحي الموسكوفية. وعندما أنهى سنته الدراسية في العلوم في الأكاديمية أتته التوصية في عام 1812 كي يصبح طبيباً، في البداية في المستشفيات العسكرية في غُولوڤينسكي وكاسيموفسكي، ومن ثم فوج بوردينو إلى طبيب الأركان. في عام 1818 انتقل من فوج بوردينو إلى طبيب في المستشفى العسكري الموسكوڤي. فيما بعد تم تسريحه من الخدمة العسكرية وصار طبيباً في مستشفى مارلينسكي الموسكوڤي بصفة طبيب في الأركان. وفي شهر آذار عام 1825 حيث ولدت أنا، أنهى والدي عمله في الخدمة في عام 1837، أي خدم الخمسة والعشرين سنة بالكامل. عرفت من أحاديث الوالد مع الوالدة أن لدى الوالد في محافظة كامينيتس – پودولسكي، عدا الوالدين، شقيق ضعيف البنية وعدة شقيقات. ترك والدي الوطن واختفى من دار والديه دون أن تكون لديه وثائق عن أصله وهو لم يبحث عن أصله لأن مثل هذا البحث يحتاج إلى نقود كثيرة.

والدتي ماريا فيودوروڤنا، كنيتها قبل الزواج نيتشايڤا. والداها تاجران بلقب تجاري. والدها فيودور تيموفييڤيتش نيتشايف أذكره في طفولتي بصفته جداً عزيزاً ومحبوباً حتى عام 1812 أي حتى الحرب الوطنية. كان ثرياً للغاية ويحمل، وقتذاك، لقب المواطن – الوجيه الرفيع الشأن. في أثناء الحرب خسر كل أمواله إلا أنه لم يصبح مفلساً ودفع جميع ديونه حتى آخر كوبيك وأذكر مثل الحلم قصص والدتي كيف وهي فتاة في العشرين ربيعاً

برفقة والدها والأسرة كلها انطلقوا من موسكو فقط قبل أيام من احتلالها من قبل الفرنسيين. جمع والدي ما استطاع جمعه من النقود التي كانت موظفة في أعمال مختلفة مثل أي تاجر وقد حملها معه وكانت نقوده كلها ورقية. لذا عند المرور عبر مخاضة لنهر صغير كادت العربة تغرق بكل ركابها وخيولها وقد أنقذوا بفضل أعجوبة بعد أن بقيت العربة، لفترة طويلة، في الماء وابتلت الأوراق النقدية أي أصبحت عديمة الفائدة وظلوا، لفترة طويلة يفرزون هذه الأوراق النقدية ويجففونها على الوسائد ولكن دون فائدة تذكر.

كان الوالد يرعى الأولاد رعاية حريصة أخلاقياً لا سيما تجاه الإخوة الأكبر سناً. صار عمر الابن الأكبر **17** سنة والأخ فيودور **16** عاماً تقريباً. كانوا يذهبون إلى المدرسة على الخيول ويعودون على الخيول أيضاً. لم يكن والدانا شحيحين إطلاقاً بل على الأرجح كانا سخيين. وحسب مفاهيم ذاك الوقت كان من قلة الاحتشام أن يملك الأولاد مصروف جيب. وأظن أن الأشقاء تعرفوا إلى النقود عندما تركهم الوالد في بطرسبورغ وحدهم.

نقطة الضعف عند والدي هي أنه غالباً ما يكرر بأنه إنسان فقير وعلى أولاده، لا سيما الصبيان أن يستعدوا لشق طريقهم وأنهم بموته سيصبحون معدمين وما إلى ذلك. كل هذا رسم لوحة قاتمة!

في الختام قال لي الأخ فيودور: «هل تعرف يا أخي، إنهم كانوا تقدميين في الوقت الحاضر! ونحن وإياك لن نستطيع بناء عائلة كهذه ولن نكون آباء مثلهم!...»

الأخ ميخائيل

ألكسندر ريزينكامف:

كان تأثير الأخ الأكبر على فيودور هائلاً إذ كان في حالة من الصلة الوثيقة المتوطدة بصداقة ثابتة وحب أخوي. من الملحوظ أن الشقيقين يتمايزان فيما بينهما من حيث البنية والطبع وطراز الوجه والمحيّا. كان مظهر ميخائيل في عامه السادس عشر قد بقي كما هو طوال العمر: غير طويل القامة، نحيل بصدر غائر، ووجه جميل للغاية، ذكي ومستطيل، أسمر نوعاً ما ومظلل بشعر كستنائي طويل. ورغم الشحوب الدائم فإن لونه كان سليماً. العينان زرقاوان غامقتان، مفتوحتان ومعبّرتان وحيويتان، ناريتان تقريباً. الأنف مستطيل أحدب. الشفتان رقيقتان متحركتان تضغطان في هيئة سخرية. حديثه في أثناء اللقاء الأول، لا سيما في محيط الغرباء متحفظ وحريص... مواده المفضلة الأدب والموسيقى، وكان إلقاؤه ساحراً. لم يزعل ولم يغضب إطلاقاً. إنه رجل اجتماعي لبق يميل إلى التفاؤل.

فيودور دوستويفسكي، من مقالة له عن ميخائيل بعنوان «عدة كلمات عن ميخائيل»:

هو إنسان ينظر باحترام إلى عمله ويؤديه هو نفسه دوماً دون تكليف أحد حتى في أثناء التزامه في التحرير. يعمل بلا انقطاع. وهو مثقف، متطور

يحترم الأدب وهو نفسه أديب يكتب الشعر بكل حمية وشغف وهو نفسه شاعر. امتلك قناعاته بصورة مستقلة مع التعطش للكمال والحاجة إلى القناعة الأخلاقية. لم يؤمن بقناعاته إلا بعد معاناتها عضوياً.

مراقبته وتأملاته في الظواهر الحياتية ضمنت له، إلى حد كبير، عدم الوقوع في الأخطاء وأضفت على نظرته حضور الذهن الدائب. فهو كان يتابع، بكل شوق وحماس حركة الحياة الاجتماعية المعاصرة. وبقدر ما أذكر كان لديه دوماً رأي دقيق حولها. كان مطلعاً على اللغات والآداب الأوروبية. يقرأ كثيراً ولديه القدرة على استكشاف ما يلزم للقارئ وما هي اهتمامات القارئ الروسي في اللحظة الملموسة. يعود الفضل إلى ميخائيل نفسه في تحديد قوام كتيبات المجلة واختيار المقالات وانتقاء المسائل التي ينبغي الآن التكلم عليها. كان يصغي بكل رغبة إلى النصائح وهو نفسه كان يسألهم دون أن يرى في نفسه الحكم الفصل. ولكن بعد الإصغاء إلى النصيحة كان تقريباً، دوماً، يتصرف بصورة مستقلة. هو إنسان متواضع حتى أنه خارق ومفعم باحترام الذات أي ما يعرفه عنه المقربون منه. لم يكن يمنح قلبه بسهولة ودون تمحيص. ومنْ يحبهم يعرفون كيف هو قادر على الحب. كان يفصح عن رأيه بحذر وحرص ولم يكن يحب تطويل أمد الجدالات وكان يميز، بشكل صائب ما هو جدي عن الثرثرة أو عن النزوات المتصنعة. في وقت مضى في فترة اليفاعة اهتم بالأدب الفني إذ كتب عدداً من القصص الطويلة والقصيرة. وهي تضمنت علامات

الموهبة لا سيما في قصة قصيرة نشرها في عام **1848** في «المذكرات الوطنية». ولكن بعض النجاح الذي أحرزه للمرة الأولى لم يغر ميخائيل. فهو صارم ومتطلب دوماً تجاه ذاته ولم أعرف أبداً أنه صاحب إبداع أكيد حتى أنه توقف عن الكتابة. نادراً ما نصادف مثل هذه النظرة الناضجة والواعية والأبيّة إلى العمل الأدبي الذاتي لدى الكتاب الشباب المبتدئين بينما كان ميخائيل صارماً للغاية تجاه أعماله ذاتها. قوّم تقويماً أرفع ترجماته لشيلروغوته وأهمها ترجمة «دون كارلوس» لشيلر التي ظهرت، في البداية في «المذكرات الوطنية» وفيما بعد نشر السيد هربيل و«رينيكس – ليس» غوته التي صدرت قبل ثلاث سنوات في كتاب منفصل والطبعة الثانية أيضاً. على فكرة، لم يتحادث شقيقي مع أحد حول أعماله الأدبية.

كان ميخائيل مثابراً ودؤوباً وحيوياً نشيطاً إذ كان ينتمي إلى ذاك الصنف من الناس العمليين الذين يندر وجودهم فيما بيننا، الناس غير القادرين على التفكير والبدء بالخطوة الأولى فحسب بل القادرين على إيصال الأمور حتى النهاية رغم العقبات. لسوء الحظ كان طبع المرحوم، وإلى أعلى حد، حساساً. وفي ظل هذه الحساسية بالانطباعات كان قليلاً ما يثق بالآخرين ونادراً ما كان يفصح عن مكنوناته لا سيما في أوقات الفواجع والنكبات والإخفاقات. عندما كان يتألم، كان يتألم وحيداً ولم يثقل على الآخرين فورة العواطف. كان يتقاسم مع الأهل والأقارب فقط النجاح والتوفيق والسعادة. في هذه اللحظات لم ترغب البقاء وحيداً. هذا التعريف لطبعه

يتطابق كلمة بكلمة مع حادث عشية وفاته إذ تم الإفصاح عنه من قبل الأطباء المستشارين عن سمات طبع ميخائيل ميخائيلوڤيتش دوستويفسكي.

الزوجة الأولى ماريا ديمترييفنا

بيوتر بتروفيتش سيمونوف – تيان – شانسكي (1827– 1914)
شخصية اجتماعية ورجل دولة، عالم – جغرافي وإحصائي:

امرأة شابة (لم تبلغ بعد الثلاثين من العمر). كانت ايسايڤا زوجة إنسان مثقف للغاية ولديه خدمة كبيرة في سيميپالاتينسك. كانت إنساناً جيداً بالمعنى السامي لهذه الكلمة. سرعان ما افترقا. لم تكن سعيدة في زواجها. زوجها ليس رديئاً ولكن كان من المستحيل علاجه من الإدمان على الكحول. وهي لم تتمكن من استيعاب حالته المعنوية الأخلاقية. بل فقط انحصر جل اهتمامها على طفلهما حيث كان عليها أن تحميه يومياً من اختبال الأب. وفجأة ظهر في أفقها إنسان بمواصفات رفيعة ومشاعر رقيقة. إنه فيودور دوستويفسكي. لقد فهما بعضهما بعضاً بسرعة ووجدت لديه المشاركة الدافئة والفرح والسمو الروحي وهي شكلت بالنسبة إليه معيناً في أثناء وجوده الكئيب في مدينة سيميپالاتينسك التي لا تمنح أية اهتمامات روحية للقاطن فيها.

ألكسندر فرانكل:

قطعت ماريا الثلاثين عاماً، شقراء جميلة بطول متوسط، نحيفة، بطبعٍ حامٍ وحماسي للغاية. لعبت الحمرة المشؤومة بوجهها الشاحب، وبعد عدة

سنوات سحبها السل الرئوي إلى لحدها. كانت واسعة الإطلاع ومثقفة للغاية ومحبة للمعرفة وهي طيبة وحيوية وحساسة. شاركت مع دوستويفسكي مشاركة حامية، دلّلته ولا أظن أنها قدرته بعمق بل على الأرجح أشفقت على التعيس المنسي من قبل قدر الإنسان. لقد ارتبطت به إلا أنها لم تقع في حبه إطلاقاً. فهي كانت تعرف أنه يعاني مرض الصرع ولديه الحاجة الملحة للنقود ناهيك أنه إنسان «بلا مستقبل» حسبما تقول هي. تقبل دوستويفسكي شعور الشفقة والرأفة والحنان على أنه الحب المتبادل وأحبها بكل حماس الشباب.

فارفارا تيموفييفنا (و. بوتشينكوفسكايا):

أدهشني دوستويفسكي، بشكل ما، باعترافه غير المتوقع:

– هل تعرفون ما هو الإطراء الذي سأقوله لكم الآن؟ لعلك لم تسمع مثل هذا الإطراء من أحد ما.

صمت ثم أضاف: أنت تذكرينني بزوجتي الأولى. أنا متأهل للمرة الثانية وأنجبت لي ولدين. أما زواجي الأول فكان في سيبيريا. والزوجة الأولى، ومن العجب العجاب، تشبهينها. فهي شاحبة وماتت بسبب السل الرئوي...

واصل دوستويفسكي كلامه: الإطراء لك ليس لسبب أنها كانت زوجتي. ما هذا الإطراء! لأنها كانت امرأة روحي الأكثر سمواً وبهجة. يمكن القول

إنها كانت تشتعل في نار هذه البهجة وفي السعي إلى المثل الأعلى. كانت كاملة بكل ما في الكلمة من معنى – نعم! ونقية وساذجة تماماً مثل الطفل. عندما تزوجتها كان عندها ابن فتأهلت بأرملة. وليكن، هل أنت راضية عن إطرائي؟ أنهى حديثه بلهجة المزح.

نيقولاي فون – فوخت:

رأيت الزوجة الأولى لكاتبنا الشهير فقط مرة واحدة في موسكو عند عائلة أيڤانوف. وقد تركت لديّ انطباع المرأة المسقام والمضطربة عصبياً.

نيقولاي ستراخوف:

أذكر كيف رأيت للمرة الأولى قرينته الأولى ماريا. وقد تركت لديّ انطباعاً مفرحاً بشحوبها وخطوط وجهها، الناعمة رغم أن هذه السمات غير سليمة وضئيلة. هذا واضح من ميلها نحو المرض الذي أودى بحياتها.

فيودور دوستويفسكي ، من رسالته إلى ألكسندر فرانكل بتاريخ 14 نيسان 1865:

أوه، يا صديقي! كانت تحبني بلا حدود وأنا كنت أيضاً أحبها بصورة مفرطة، إلا أننا لم نتعايش سوية بسعادة. سأروي لك كل شئ في أثناء الموعد أما الآن فأقول فقط إنه رغم أننا تعساء سوية بصورة إيجابية (وفقاً

للطبع الموسوس والخيالي المؤلم العتيق) فنحن لم نستطع التوقف عن أن نحب بعضنا بعضاً حتى أنه بقدر ما نحن تعساء بقدر ما كان تعلقنا أحدنا بالآخر أكبر. ويا لها من غربة وهذا ما حدث بالفعل. إنها المرأة الأكثر نزاهة ونبلاً وسخاء من بين جميع الذين عرفتهم في حياتي. لقد شاهدتها وهي تفارق الحياة خلال سنة كاملة وشعرت بآلام العذاب الروحي إلا أنني لم أتصور إلى أي مدى صارت حياتي مؤلمة وتافهة عندما واروها التراب. ها قد مضت سنة وأنا أحس بالشعور ذاته وهو لا يتضاءل.

فيودور دوستويفسكي ، من رسالة إلى أبولون مايكوف بتاريخ 21-22 آذار عام 1868:

ماريا المسكينة تركت لي باقل وهي على فراش الموت! كيف يمكن رميه؟ كلا، كلا، ينبغي علي أن أساعده لا سيما أنني أحبه بكل إخلاص. لقد كبر في داري لفترة تزيد عن عشر سنوات. كيف يمكن إهماله وهو في هذا العمر. ربما كنت أسوأ منه في هذا العمر. يسود انطباع طيب في قلبه وهذا سيفيده في نموه اللاحق.

آنّا دوستويفسكايا:

لن أقول إن باقل كان أحمقاً أو غير طيب. مأساته تكمن في أنه لم يكن قادراً إطلاقاً على إدراك وضعه. باعتياده منذ الطفولة أن يرى الطيبة من جانب أهل وأصدقاء دوستويفسكي اعتبر هذا الموقف واجباً إلزامياً ولم يفهم إطلاقاً أن موقف المودة والمحبة لا يظهر لأجله هو نفسه بقدر ما يتبدى لأجل دوستويفسكي. فضلاً عن هذا بغية تثمين وكسب محبة المحيطين به، كان يتصرف بصورة عشوائية واتخذ موقف الاستهتار ومن فوق: تجاه الجميع وهذا ما أغضب هؤلاء الناس. تحمل أبولون مايكوف المحترم تصرفات باقل وكل هذا التحمل لأجل دوستويفسكي وحاول

مايكوف توجيه أفكاره وتصرفاته في الاتجاه السليم ولكن، مع الأسف، لم يوفق في ذلك.

كان يتخذ موقف الاستخفاف ومن فوق أيضاً تجاه زوج أمه رغم أنه كان يسميه «الوالد» ويسمي نفسه «ابن» دوستويفسكي.

لم يكن يستطيع أن يكون ابن دوستويفسكي لأنه ولد في عام 1845 في أستراخان بينما دوستويفسكي لم يغادر بطرسبورغ حتى عام 1849.

عاش پاڤل عشرين سنة عند دوستويفسكي ووجد لنفسه طريقاً خاصاً به وهو كان على قناعة عميقة بأن «الوالد» ينبغي أن يعيش حصراً لأجله، ويعمل ويكسب النقود لأجله. هو نفسه عدا أنه لم يساعد دوستويفسكي في أي شئ ولم يخفف عنه الأعباء فهو، على العكس، غالباً ما كان يستثير هو ويغضب بتصرفاته العشوائية وسلوكه السخيف والتافه حتى أنه، كما قال المقربون، أوصله إلى النوبة. كان پاڤل يرى في دوستويفسكي نفسه «عجوزاً هرماً فات زمانه وبدت الرغبة بالسعادة الشخصية سخفاً». هذا ما كان يقوله صراحة أمام الأهل.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى أبولون مايكوف بتاريخ 18 أيار 1868:

ماذا سيحدث له فلا أعرف – أنا فقط أصلي للرب لأجله... هو ينظر إليّ فقط كشخص ملزم بإرسال النقود إليه...

آنّا دوستويفسكايا:

لم يكن يرجو بل يطلب وكان على قناعة عميقة بأن له الحق في ذلك. كان دوستويفسكي يرسل له دفعات كبيرة من النقود ولكن عند پاڤل كانت تظهر، دوماً، احتياجات فورية وكان يأتي إلى دار زوج الأم لأجل النقود رغم أنه كان يعرف جيداً الوضع المادي الصعب لدى دوستويفسكي.

– سأل هو: كيف البابا؟ كيف صحته؟ يلزمني التحدث معه. أحتاج حاجة ماسة لأربعين روبلاً. أجبته:

– أنت تعرف أن كاتكوف لم يرسل شيئاً وليست لدينا نقود إطلاقاً. اليوم رهنت البروش (المشبك) بخمسة وعشرين روبلاً. هذا هو الوصل! انظر!

– فليكن، ارهني شيئاً آخر!

– رهنت كل شئ عندي.

– أصر پاڤل: تلزمني بعض النفقات.

– عندما نحصل على النقود.

– لا يمكنني تأجيل ذلك.

– ليس عندي نقود!!

فأجاب:

– ماذا يهمني، احصلي عليها في أي مكان.

أخذت أتوسل إلى پاڤل ورجوته أن لا يطلب أربعين روبلاً التي لا أملكها بل خمسة عشر روبلاً كي يبقى عندي، وليكن، خمس روبلات ليوم الغد.

بعد عدة توسلات تنازل پاڤل، على ما يبدو، معتبراً أنه يؤدي بذلك معروفاً كبيراً وأعطيت للزوج خمسة عشر روبلاً لأجل ابن الزوجة مفكرة بحزن أنه كان بإمكاننا العيش بهذه النقود ثلاثة أيام بينما الآن سنضطر غداً لرهن شئ ما. لا يمكنني أن أنسى الحزن والمنغصات التي سببّها لي هذا الشخص الوقح!

لوبوف دوستويفسكايا:

رغم أن پاڤل هو ابن ضابط ومن عائلة حسنة (كان والده نبيلاً بالوراثة) وتربّى في فيلق الكاديت سوية مع الشبان اللطفاء والأخلاقيين وكان يقضي العطل دوماً عند عمي ميخائيل وهو يتلقى كل أزهار آداب ذاك الزمن، رغم كل ذلك كان يتصرف تماماً مثلما، على الأرجح، كان يتصرف الأجداد من ناحية الأم في إحدى واحات الصحراء، نادراً ما كنت أرى هذا الغريب الأطوار. فهو شرير ووقح ينطق بكل السفاهات ويزعج الجميع. كان أهلنا يستاؤون منه ويشتكون عليه للوالد. ينزعج دوستويفسكي منه ويرميه خارج الباب. ولكن مثل الطبيعة نفسها پاڤل يظهر من جديد عبر النافذة. استمر في التمسك بالوالد ولم يقم بشئ بل يطلب النقود...

ألكسندر ميليوكوف (1817 – 1897) مؤرخ الأدب، ناقد، مربٍ:

كان زواج دوستويفسكي الثاني سعيداً كلياً إذ اكتسب في آنّا الزوجة المحبة وربة المنزل العملية والمثمنة الذكية للموهبة. وإذا استطاع دوستويفسكي في ظل حياته اللاعملية أن يسدد أكثر من خمسة وعشرين ألفاً من ديونه وديون شقيقه فهذا يعود الفضل فيه فقط لتدبير زوجته وطاقتها، هذه المرأة التي استطاعت حل الأمور مع الدائنين ومساندة الزوج في الأيام القاسية.

دوستويفسكي من رسالة له إلى آ. مايكوف بتاريخ 26 تشرين الأول عام 1868:

إن طبع آنّا حساس وحركي نشيط.

فارفارا سوفوستيانوفا (كنيتها قبل الزواج دوستويفسكايا):

محبة للحياة، لطيفة، أبيّة...

ماريا ستويونينا 1846 – 1940 شخصية اجتماعية، مربية وصديقة آنا من أيام الدراسة:

عاشت آنّا خمسة وثلاثين عاماً بعد رحيل دوستويفسكي وهي كرست كل هذه السنين لذكراه وللدعاية لفكره ونشر مجده كما أنها لم تهمل رسائله ليلاً ونهاراً وكانت تحملها معها في كل مكان.

أذكر ذات مرة أن دوستويفسكي جنى **350** أو **500** روبل فأسرع إلى حوش غوستيني واشترى من محل ماروزوف اسوارة ذهبية أهداها إلى آنّا. وهي روت لي بالتفصيل كيف تمكنت من التخلص من هذه الهدية. قالت: «انظري عند الأولاد لا توجد أحذية ولا أخفاف ولا قباقيب، ولا توجد ألبسة أما هو فيقدم لي اسوارة». هو ينام في مكتبه وآنّا في غرفة النوم. هبوا للنوم بينما هي تتعذب وتفكر ماذا تفعل بهذه للاسوارة وهي بحاجة إلى النقود. ثم رجت زوجها التخلص من الاسوارة لشراء ما يلزم للأولاد ولم يقتنع إلا بصعوبة بالغة.

آنّا دوستويفسكايا:

تحولت من فتاة جبانة وخجولة إلى امرأة بطبع حازم دون وجل من مصائب الحياة، وبصورة أصح، من الديون... بقي عندي المرح وحب الحياة إلا أن هذا قد تجلى فقط داخل الأسرة وفي وسط الأهل والأصدقاء. كنت حريصة وحذرة للغاية بحضور الغرباء لا سيما في وسط الرجال مقتصرة على اتخاذ موقف اللطف البارد، وفي أكثر الأحيان كنت أصمت وأصغي باهتمام أكثر مما كنت أفصح عن آرائي. أكدت لي

زميلاتي أنني هرمت بصورة مرعبة في السنين الأربع الأخيرة وعاتبتني لماذا لا أهتم بهيئتي الخارجية وباللباس وتسريحة الشعر حسب الموضة. وافقت معهن إلا أنني لم أرغب في تغيير شئ عندي إطلاقاً. كنت مقتنعة قناعة حازمة أن دوستويفسكي لا يحبني لأجل مظهري الخارجي بل للسمات الحسنة لعقلي وطبعي وتيسر لنا أن نشغف روحنا كما كان دوستويفسكي يقول. لم يستطع مظهري الخارجي العتيق والتهرب الظاهري من المجتمع الرجالي أن يؤثر تأثيراً جميلاً في زوجي لأن هذه الصفات لم تقدم الحجج لظاهرة السمة الرديئة لطبعه – غير المبنية على أي واقع أساسي.

ميخائيل ألكسندروف:

اعتنت آنا عناية ذكية ومحبة بصحة زوجها الهشة وإن عائلة دوستويفسكي والمعجبين به حتى العبادة مدينون لآنّا بعدة سنوات من حياته.

آنّا دوستويفسكايا:

ظل الأمر نوعاً من اللغز فإن زوجي لم يكن يحبني ويحترمني مثل الكثيرين من الأزواج الذين يحبون زوجاتهم ويحترمونهم فحسب، كان تقريباً يسجد أمامي كما لو كنت كائناً مميزاً مخلوقاً، وبالذات لأجله. وهذا الأمر لم يحدث في الفترة الأولى من زواجنا بل في جميع السنوات الباقية حتى

لحظة رحيله. ومن المعلوم أنني لم أتميز، بالفعل، بالجمال ولم أتمتع لا بالمواهب ولا بنمو عقلي مميز. تعليمي متوسط. ولكن رغم كل هذا فقد استحققت من هذا الإنسان الذكي والموهوب التبجيل العميق، وتقريباً السجود.

توضح لي هذا اللغز قليلاً عندما قرأت ملاحظة ف. روزانوف على رسالة نيقولاي ستراخوف بتاريخ 5 كانون الثاني عام 1890 في كتاب «المنفيون الأدبيون». أنقل هذه الملاحظة (ص 208): «لا يوجد أحد، حتى ولا «صديق» يمكنه تصويبنا إلا أن السعادة العظيمة في الحياة تصادف إنساناً بتركيبة أخرى كلياً وبتكوين آخر وبنظرات أخرى، هذا الإنسان الذي يظل دوماً هو نفسه دون ان يكرر ولا يزّور ولا ينجرّ بروحه في سيكولوجيتنا وفي تشوشنا وفي لفافتنا بحيث بإمكانه أن يشكل جداراً ثابتاً ومصدّاً «لحماقاتنا» و«جنوننا» وليس في التوافق. في الحقيقة أهدى لي الرب كمعلم الصداقة معه وكان الموقف منه دوماً يشكل الجدار المتين الذي كنت أشعر بأنني أستطيع دوماً الاستناد إليه. وهو لن يسقط ولن يشتعل».

وبالفعل شكلنا نحن مع دوستويفسكي بشراً «من تركيبة أخرى وتكوين آخر ونظرات أخرى».

كل هذا يعود إلى الثقة العجيبة التي أولاها زوجي بصددي وبالنسبة إلى جميع تصرفاتي رغم أن كل ما قمت به لم يخرج عن حدود ما هو طبيعي.

إن هذه الصلات من جانب الطرفين منحتنا الإمكانات كي نعيش الأربعة عشر عاماً من حياتنا الزوجية في سعادة ممكنة لأجل البشر فوق الأرض.

الحياة والمصير

الطفولة الموسكوفية

آنّا دوستويفسكايا:

عندما كان صغيراً كانت والدته تسميه فيدشا.

أندريه دوستويفسكي:

كان نهارنا يمضي برتابة. نستيقظ في الصباح الباكر، الساعة السادسة تقريباً. في الساعة الثامنة كان الوالد يخرج إلى المستشفى أو إلى غرفة العنابر. في هذا الوقت كان يجري توضيب الغرف وإشعال المواقد في أيام الشتاء وما إلى ذلك. في التاسعة صباحاً يعود الوالد من المستشفى ويذهب بعدها في جولة طواف على مرضاه الكثيرين أو كما يقال، للتمرين. في غيابه كنا، نحن الأولاد، نهتم بدروسنا. وفي وقت متأخر أكثر كان الشقيقان الأكبران يتواجدان في البانسيون. يعود الوالد قرابة الثانية عشر. وفي الساعة الواحدة: وقت الغداء. الاستثناءات في أيام الصوم الكبير حيث كنا يومياً نتناول الفطيرة المحلاة (الزلابية). بعد الغداء ينهض الوالد ويذهب إلى غرفة الضيوف كي يتمدد على الأريكة حيث يغفو لفترة ساعة إلى ساعتين. في هذا الوقت كان يسود صمت مطبق في الصالون. قليلاً ما يتحدثون وبالهمس كي لا نوقظ الوالد. وهذا الوقت كان الأكثر ضجراً

طوال النهار. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان من الجميل أن تجلس العائلة كلها في مكان واحد أي في الصالون. كان الوضع سيئاً في النهار إذ كنت أطرد الذباب عن الوالد النائم جالساً في كرسي بمسند بجانب الأريكة حيث كان يرقد. وأخيراً يستيقظ الوالد وأنا أغادر خلوتي.

في الساعة الرابعة نهاراً نشرب شاي المساء بعده يذهب الوالد، مرة ثانية، إلى غرف عنابر المرضى. كنا نمضي الأمسيات في غرفة الضيوف المضاءة بشمعتين شحميتين أما شمعات الستيرين فلم تكن موجودة بعد. كان يتم إشعال الشمعدانات فقط أمام الضيوف وفي أثناء المناسبات العائلية. لم تكن لدينا لمبات. الوالد لم يكن يحبها. ومن لديه مثل هذه اللمبات كان يستخدم لإشعالها زيت الصوم الذي له رائحة كريهة. ولم تكن موجودة بعد لا الكيروسين ولا الزيوت الجبلية الأخرى. كان والدي يقرأ في الأمسيات بصوتٍ عال لاسيما في أيام ما بعد عيد الفصح وفي غرفة الضيوف بالذات كنا نلعب، أيضاً وبمشاركة الولدين، بورق الشدة. وكان الأمر مبهجاً بهذا العيد حيث كنت أتذكر تلك الفترة لمدة طويلة! وفي أيام الفصح كنا نلعب لعبة خاصة – دحرجة البيض. السجاد ممدد في الصالون أو البسط القطنية وكانت تتم دحرجة طابات خاصة بالبيض. كان ينضم إلينا أحياناً الكبار في السن والغرباء أي يصل العدد حتى العشرة أشخاص. في التاسعة مساءاً تصبح المائدة عامرة بطعام العشاء. بعد العشاء كنا نحن الأولاد نقف أمام الأيقونة ونقرأ الصلوات ثم نودع الوالدين ونذهب إلى النوم. إن مثل هذه

التمضية للوقت كانت تتكرر يومياً. الغرباء أو ما يسمون الضيوف كانوا نادرين للغاية وخاصة في الأمسيات وجميع معارف الوالدين كانوا محصورين بالجزء الأكبر من زوار الصباحات. على فكرة، في وقت متأخر عندما بقيت وحدي مع الوالدين (الأشقاء والشقيقات في المدارس) أي في الأمسيات كان يتردد علينا كثيراً فيودور ماركوس... كنت دوماً ألزم البيت في غرفة الضيوف وأصغي إلى أحاديثهما. وبسفر الوالدين كان يبدأ غناء الأغاني ومن ثم الكورس والألعاب والغميضة بمشاركة جميع الأبناء والبنات... يعود الوالدان في الساعة التاسعة – العاشرة مساءً...

من كلمات آنّا فيلوسوفوفا (1837 – 1912) شخصية اجتماعية ومشاركة في الحركة النسائية:

روى دوستويفسكي مشهداً من طفولته. «عندما كنت أعيش في موسكو، في مستشفى الفقراء حيث كان والدي يعمل طبيباً، لعبت مع فتاة صغيرة (ابنة الحوذي أو الطاهي). عمرها 12 سنة تقريباً، هشة رشيقة القد وعندما رأت وردة تشق طريقها بين الأشجار قالت: «انظر إليها، يالها من وردة جميلة وطيبة!». وإذا بسافل في هيئة سكير اغتصب هذه الفتاة وهي فارقت الحياة والدماء تسيل منها. وروى دوستويفسكي – أرسلوني إلى الوالد في جناح آخر في المستشفى. هرع الوالد ولكن سبق السيف العذل. ظلت هذه الذكرى تلاحقني مدى الحياة بصفتها أفظع جريمة

وأرهب إثم بحيث يستحيل الغفران له وبسبب الجريمة الأكثر رعباً أعدمت ستاڤروغين في «الشياطين».

فلاديمير كاتشينوفسكي:

كان والد فيودور دوستويفسكي طبيباً في مستشفى مارينسكي لأجل الفقراء في سوشيفا في موسكو. وكان لوالدي م. ت. كاتشينوفسكي في هذه البلدة دار له كانت تعيش فيها عائلتنا. حصل والدي المخلص للغاية لأعماله العلمية بعدد قليل جداً من المعارف العائلية إلا أنهم كانوا يقدرونه.

حدث في الصيف أن كانت والدتي تأخذني أنا وأختي مرتين في الأسبوع لزيارة عائلة شيروفسكايا... وما كدنا ندخل إلى الشقة حتى أسرعنا، نحن الأولاد، إلى الحديقة الظليلة للمستشفى واختلطنا مع الأطفال اللاعبين للأطباء والمستخدمين المحليين. وأذكر كما الآن أن في عدادهم كان هناك ولدان أشقران أحدهما أكبر مني والآخر– بخمس سنوات. لأجل اللعب أختار لأنفسهما الرفاق الأكثر ملاءمة من حيث العمر وصارا يقودانهما.

كانت شهرتهما ملحوظة بين اللاعبين وبالنسبة إليّ أنا الطفل. كان هذان الولدان هما فيودور وميخائيل دوستويفسكي... مرت تقريباً سنتان صرت على صلة أقرب بالشقيقين اللذين أعلماني أنهما يدرسان في المدرسة.

خشية أن لا أكون دقيقاً فأنا لا أحدد سنوات ذكريات الطفولة التي صارت دقيقة فقط بدءاً من عام 1834. ففي هذه السنة انتسبت إلى مدرسة ليونتي كارلوفيتش تشيرماك التي كانت تتمتع بأفضل سمعة من حيث الرقابة اليقظة على التلاميذ ومن حيث قوام المدرسين. يكفي القول إنه كان في عدادهم د. م. پيرڤوتشيكوف وآ.م.كوباريف وك.م.رومانوفسكي من خيرة معلمي ذاك الزمن.

في اليوم الأول من الانتساب عندما انفصلت عن الأسرة وأنا محاط بوجوه غريبة عليّ كمبتدئ وهم يزعجونني حتى كدت أصل إلى مرحلة اليأس وإذا بي وأنا في هذه الحالة، في أثناء الاستراحة بين درس ودرس أسمع صوتاً غير غريب بالنسبة إليّ... إنه فيودور دوستويفسكي الذي رآني فأسرع نحوي وطرد المسيئين لي وأخذ يواسيني ونجح في ذلك. ومنذ ذاك الوقت صار يزورني في الصف ويهتم بدروسي، وفي أثناء الاستراحات كان يروّح عني بحكايات شيقة وممتعة مما خفف من حنيني إلى الدار والأهل.

كان يحتفي بي كثيراً. في هذا الوقت كان فيودور دوستويفسكي وشقيقه في الصفوف الأعلى. كان صبياً جدياً متأملاً في التفكير، أشقر اللون بوجه شاحب. نادراً ما تشغله الألعاب: في أثناء الاستراحة لم يترك تقريباً الكتب ويمضي الجزء المتبقي من أوقات الفراغ في أحاديث مع الأكبر سناً ومع المربين في المدرسة – أ.م.لوموفسكي، ف.وآل.ميلغاوزين ود.آ.شوماخير وپيريڤوشيكوف.

في عام 1835 ترك الأخوان دوستويفسكي المدرسة وانتسبا إلى مدرسة الهندسة في بطرسبورغ محتفظين بذكرى دافئة عن مكان تعليمهما الأولي لا سيما فيودور دوستويفسكي.

أندريه دوستويفسكي:

ذكرت أعلاه عن القراءات الأسروية في غرفة الضيوف. وهذه القراءات تواصلت بصورة مستمرة في محيط الوالدين. كان الوالدان يقرأان بصوت مسموعٍ ويشاركهما دوماً الشقيقان الأكبر حتى قبل انتسابهما إلى المدرسة. وفي وقت لاحق بدأا يقرأان بصوت مسموعٍ عندما كان الوالدان يتعبان. أغلب المقروء مؤلفات تاريخية: «تاريخ الدولة الروسية» لكارامزين (احتفظنا بنسختنا) و«السيرة الذاتية» لميخائيل لومونوسوف وغيرهما كثير. ومن بين المؤلفات الأدبية النثرية أذكر أنني قرأت ديرجاڤين (لا سيما قصيدة «الرب») وجوكوفسكي ومقالاته المترجمة نثراً، وكارامزين « رسائل رحالة روسي» و«ليزا المسكينة» و«مورفا باسادنيتسا» وغيرها، وبوشكين، على الأغلب النثر. في وقت لاحق شرعنا في قراءة الروايات: « يوري ميلوسلاڤسكي» و«البيت الجليدي» و«الرامي» والرواية العاطفية « عائلة هولمز».

كنت أرى بين يدي فيودور ڤالتر سكوت « كوينتين دورڤارد» و«ڤاڤارلي». كنا نقرأ الكتاب غير مرة رغم الترجمة الثقيلة والمرعبة. حديث مثل هذه القراءة الثقيلة بما يخص جميع مؤلفات بوشكين؟.

كان الأخ فيودور يحب، أيضاً، قصص ناريجني ومنها « مربي المدرسة الدينية» التي أعاد قراءتها غير مرة. لا أذكر ما إذا كان قد قرأ، حينذاك لغوغول لذا لا أستطيع التحدث عن ذلك. أذكر فقط أنه أبدى إعجابه، وقتذاك برواية والتمان « القلب والخاطرة» وكان « تاريخ كارامزين» على المكتب دوماً ويقرأه دائماً عندما لم يكن هناك جديد.

أكثر ما كان فيودور يقرأ هو المؤلفات التاريخية الجدية وبعض الروايات التي تصير في متناول اليد بينما شقيقه ميخائيل يحب الشعر وهو نفسه ينظم الشعر. وقد حفظ الاثنان غيباً كل ما وقع في أيديهم من شعر بوشكين. عند ذاك لم تكن مطبوعة بعد المؤلفات الكاملة. كانت شهرة بوشكين وقتذاك أقل من شهرة جوكوفسكي حسب رأي أساتذة اللغة والأدب ورأي الوالدين مما كان يثير أشد الاحتجاجات من قبل الأخوين...

توديع الطفولة

أندريه دوستويفسكي:

ساد الحزن في داخل أسرتنا بدءاً من خريف عام **1836** إذ بدأت الوالدة، منذ الخريف تتوكع وتسقم. الوالد، بصفته طبيباً، أدرك وضع مرضها ولكن، على ما يبدو، كان يواسي نفسه ويعللها بالأماني بتمديد اجل المرض والسيطرة عليه. هبطت قواها بسرعة بحيث أنها، خلال فترة وجيزة، لم تعد تستطيع تسريح شعرها الكثيف والطويل. بدأ هذا الإجراء ينهكها بقوة ورأت أن تقديم رأسها إلى أيد غريبة فيه شئ من البذاءة والفحش لذا قررت قص شعرها تقريباً وتسريحه في صف واحد. أذكر هذا الظرف لأنه هزني بقوة. في بداية عام **1837** تردت حالة الأم بقوة فهي، تقريباً لم تعد تنهض من السرير ومنذ شهر شباط اضجعت نهائياً في الفراش. في ذاك الوقت صارت شقتنا مثل دار مفتوحة إذ كان عندنا زوار دائمون. منذ التاسعة صباحاً كان يؤم الدار الأطباء وعلى رأسهم ألكسندر ريختر. وانطلاقاً من الأسى على الوالد كرفيق لهم صاروا يجرون الاستشارات اليومية. ملأت الزجاجات بالأدوية والكاسات جميع النوافذ بحيث كنا، يومياً، نرفعها كي تتبدل بجديدة...

في نهاية شباط أخبر الأطباء والدي أن محاولاتهم لا جدوى منها وقريباً ستكون النهاية الحزينة. لقد قضي على الوالد نهائياً! أذكر ليلاً قبيل رحيل

الوالدة أي 26–27 شباط. على الأرجح عادت الوالدة قبيل سكرة الموت إلى الذاكرة وطلبت أيقونة المنقذ، وللمرة الأولى باركتنا جميعنا مانحة إيانا البركات والإرشادات المسموعة ومن ثم أرادت مباركة الوالد. كانت اللوحة مؤثرة وكلنا لجأنا إلى النحيب. بعد ذلك بوقت قصير بدأت سكرة الموت ووقعت الوالدة في حالة من فقدان الذاكرة، وفي السابعة من صباح 27 شباط رحلت عن الدنيا وعمرها سبعة وثلاثون عاماً. كانت إجراءات الدفن والتأبين والحداد... منهكة للغاية. وقد جرت مراسيم الدفن يوم الاثنين الأول من آذار في أول أيام الصوم الكبير.

بعد فترة من الوقت من وفاة الوالدة بدأ الوالد يفكر جدياً بالسفر إلى بطرسبورغ (لم أزرها بعد في حياتي) بغية تأمين الشقيقين الكبيرين في مدرسة الهندسة...

لا أعرف لأية أسباب وصل خبر وفاة بوشكين إلى أسرتنا بعد دفن الأم. على الأرجح يعود السبب إلى حزننا الشخصي ومكوث الأسرة كلها في الدار بصورة دائمة.

أذكر أن الشقيقين كادا يصابان بالجنون ما إن سمعا عن هذا الموت وكل تفاصيله. ففي حديث فيودور مع شقيقه الكبير كرر غير مرة انه لو لم يكن عندنا حداد في الأسرة لكان رتّب حداداً على بوشكين بإذن من الوالد.

اعتزم الوالد بعد العودة من بطرسبورغ الانتقال نهائياً إلى القرية (فهو قدم استقالته).

فيودور دوستويفسكي ، من «يوميات كاتب» **1876**:

سافرنا أنا والأخ الأكبر مع المرحوم الوالد إلى بطرسبورغ بغية التسجيل في مدرسة الهندسة الرئيسية. كان الجو حاراً في شهر أيار. توقفنا في المحطات ساعتين – ثلاث وأخيراً أضجرتنا هذه السفرة التي استمرت أسبوعاً. سعيت أنا والشقيق حينذاك إلى حياة جديدة وحلمنا بشئ ما إلى حد الإرعاب، بشئ «جميل وسامٍ» – وقتذاك كانت هذه الجملة لا تزال طازجة وينطق بها دون سخرية. ما أكثر هذه الكلمات الجميلة الرائعة في ذاك الوقت! كنا نؤمن بشئ ما بشعور من الشغف كنا، نحن الاثنين، نعرف يقيناً ما هو المطلوب للامتحان في الرياضيات إلا أننا لم نحلم إلا بالشعر والشعراء. كان الشقيق ينظم الشعر بمعدل قصيدة إلى ثلاث في اليوم الواحد وأنا ألفت في ذهني رواية من حياة البندقية. وقتذاك كان قد بقي شهران على رحيل بوشكين. ونحن اتفقنا مع الشقيق بعد الوصول إلى بطرسبورغ الذهاب إلى موقع المبارزة والتسلل إلى شقة بوشكين القديمة بغية رؤية الغرفة التي فاضت فيها أنفاسه.

في مدرسة الهندسة

ألكسندر سافيليف (1816 – 1907) ضابط سرية في المدرسة في سنوات دراسة دوستويفسكي في مدرسة الهندسة الرئيسية:

انتسب دوستويفسكي بمسابقة إلى مدرسة الهندسة الرئيسية في زمني. ومنذ أولى سنوات تواجده فيها حتى التخرج في صف الضباط العالي (1843) كان غير مشابه لرفاقه الآخرين في جميع التصرفات والميول والعادات لدرجة أن كل شئ بدا، في البداية، غريباً، غير طبيعي ومبهم وغامض مما أثار حب الفضول والذهول ولكن فيما بعد عندما لم يجلب هذا الضرر لأحد فإن الرئاسة والرفاق توقفوا عن توجيه الانتباه إلى غرابة الأطوار هذه. تصرف فيودور دوستويفسكي بتواضع وكان ينفذ التزامات خدمة الصف والدروس على أكمل وجه إلا أنه كان متديناً للغاية يؤدي التزامات المسيحية الأرثوذكسية.

كل هذا يلفت نظر الرفاق. بحيث سموه الراهب فوتي. بدا فيودور دوستويفسكي الرابط الجأش والهادئ بطبيعته، لامبالياً تجاه لهو رفاقه وتسلياتهم. فهو لم نكن نراه في حفلات الرقص ولا في الألعاب ولا في كورس المغنين. على فكرة، كان يشارك مشاركة نشيطة في كل ما يهم رفاقه. وسرعان ما أحبوه وغالباً ما كانوا يهتدون بمشورته أو برأيه. لا يجوز نسيان أنه في ذاك الوقت كان يعيش في المدرسة / 125/ طالباً ولكن

تنعدم الحياة ولا تتجلى ميول الشباب. إنه عالم ضيّق خاص له عاداته ونظمه وقوانينه.

ألكسندر سافيليف:

كان قادراً على إبعاد الرفاق عن حركات اللعب والعبث. ولكن مرت حالات حيث سمعْته ومكانته لم تسعفه. كان دوستويفسكي من هؤلاء البشر اللذين حافظوا على قوانين ساعات الصلاة، وعلى جميع أنواع الشرف والصداقة بين الرفاق والتي استمرت طوال العمر. كان فيودور عدواً للمداهنة والتزلف وانتزاع الانتباه من الرئاسة العليا ولم يستطع أن يكون لامبالياً تجاه المتملقين حتى عندما ينقذ التملق شخصاً ما من الفاقة والمصيبة. ومن خلال حكمنا عليه من خلال وجهه الهادئ ورصانته ورزانته فإنه يمكننا أن نحزر حزنه وربما مزاج روحه الموروث.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة له إلى الوالد بتاريخ **4** شباط **1838**:

تصوروا انه من الصباح الباكر حتى المساء في الصفوف يتيسر لنا متابعة المحاضرات. وفي المساء عدا أننا لا نملك وقت فراغ بل حتى ولا دقيقة واحدة لأجل الاستمتاع بوقت الفراغ تعويضاً عما سمعناه في الصفوف. يرسلوننا إلى تدريبات الجبهة ويعطوننا دروساً في المبارزة والرقص والغناء ولم يتجاسر أحد أن لا يشارك فيها. وأخيراً نقف في الحرس كي نمضي فيه

كل الوقت... حمداً لله، إنني أعتاد شيئاً فشيئاً على العيش في المكان، وعن الرفاق لا أستطيع قول أي شئ جيد. آمل أن يكون لدى الرؤساء نظرة جيدة بخصوصي... أيام الآحاد والأعياد الأخرى أنا لا أروح إلى أي مكان لأن كل واحد منا ينبغي أن يكون له أقارب يضمنون ذهابه.

فيودور دوستويفسكي: من رسالة له إلى الوالد بتاريخ 5 حزيران 1838:

بدأت امتحانات المرحلة الثالثة التي استمرت شهراً على أقل تقدير. تطلب الأمر أن نجد ونجتهد في النهار والليل. المخططات أهلكتنا. عندنا أربع مواد في الرسم: 1- الرسم التحصيني 2- الظرفي 3- المعماري 4- من الطبيعة. أنا أرسم بصورة سيئة كما تعرفون. فقط في المخططات التحصينية كنت جيداً. ما العمل؟ هذا الأمر أضرني كثيراً. أولاً، أصبحت بمعدل وسط في الصف لأنه يستحيل أن أكون الأول. تصور علاماتي كاملة تقريباً في جميع المواد الذهنية أي حصلت فقط على 5 علامات أكثر من الطالب الأول في جميع المواد باستثناء الرسم. هذا الأمر يحزنني. ثانياً، سبب صمتي المديد هو خدمة الجبهة. وقد أرهقتنا زيارة الأمير والقيصر. شاركنا في الغراس وفي ساحات الخيل سوية مع الخيالة، وقبيل كل استعراض كانوا ينهكوننا في السرية على التدرب الذي عملنا لأجله مسبقاً. وكل هذه الاستعراضات كانت تسبق عرض مايو الفخم والبراق حيث كانت تحضر كل العائلة القيصرية مع وجود 140 ألفاً من القوات.

هذا اليوم عذبنا للغاية. في الأشهر المقبلة ننطلق إلى المعسكرات. ومن حيث طولي صرت في سرية الرماة وفيها تعليم مزدوج – مدفعية ورماة. ما العمل لا يتيسر لنا اللحاق بوظائف الصفوف.

ألكسندر سافيليف:

هكذا كان فيودور دوستويفسكي. في فتوته أيضاً كان يبدو في مظهره عجوزاً مثلما في عمر النضج. وفي فتوته لم يستطع التهادن مع عادات ونظرات أترابه من الرفاق. ولم يستطع إيجاد عدة أشخاص في وسطهم الذي يفوق المئة بل كان يختار واحداً من بينهم. وهذا الواحد كان موهوباً للغاية ومتواضعاً ويحب الخلوة والعزلة مثله مثل دوستويفسكي، وكما يقال هو منطو على نفسه مثل جناح منعزل. في أثناء المناوبة غالباً ما كنت أرى هذين الزميلين. فهما، دوماً، سوية يقرأان جريدة «نحلة الشمال» أو عملاً لشعراء ذاك الزمن: جوكوفسكي، بوشكين، ڤيازيمسكي أو نشرات المحاضرين الليتوغرافية المقروءة من قبل الأساتذة.

كان يمكن رؤية زميلين بيرجيتسكي ودوستويفسكي اللذين يتجولان سوية بينما رفاقهما يرقصون أيام الثلاثاء في صف الرقص العادي أو يلعبون في ساحة العروض. وفي الصيف كانا يمضيانه في المعسكر في بيترغوف. وكان الاثنان يستاءان من كل أنواع المظاهرات...

قسطنطين تروتوفسكي:

كان، دوماً، طيباً ورقيقاً ونادراً ما يتآلف مع أحد من الرفاق. كان ثمة شخصان فقط يتحادث معهما لفترات طويلة حول مسائل مختلفة. هما بيريجيسكي، وأظن آ.ن.بيكيتوف. وقد أثار هذا الوضع الانعزالي لدوستويفسكي السخرية اللطيفة ولا أعلم لماذا لقبوه «فوتيا». بيد أن دوستويفسكي نادراً ما كان يعير انتباهاً لموقف الرفاق هذا. ورغم السخرية اتخذ الرفاق، بشكل عام، موقفاً فيه شئ من الاحترام تجاه دوستويفسكي. الشباب يشعر دوماً بتفوق الرفيق الذهني والأخلاقي.

ديمتري غريغوروفيتش:

برزت لدى دوستويفسكي سمات عدم العشرة الاجتماعية. فهو كان يعتزل ولا يشارك في الألعاب، يجلس غارقاً في الكتاب ويبحث عن مكان معزول وسرعان ما اكتشف هذا المكن وصار المفضل لديه: زاوية منزوية في الحجرة الرابعة فيها نافذة تطل على نافورة صغيرة. في أثناء الاستراحة يمكن إيجاده، دوماً هناك، ودوماً مع الكتاب.

مع كل التوقد المفرط لمزاجي والرقة المفرطة ولين العريكة لطبعي لم أحصر تعلقي بدوستويفسكي إلا أنني لم أخضع، إطلاقاً لتأثيره. ولكن هذا التأثير كان بالنسبة إلي مثمراً إلى مستوى رفيع. كان دوستويفسكي في كل المجالات أرفع مني من حيث النمو والتطور، وإطلاعه الواسع أذهلني.

إن أولى المؤلفات الأدبية التي قرأتها باللغة الروسية دلني عليها دوستويفسكي ومنها: «القط مور» لهوفمان و«اعتراف الإنكليزي الذي كان يتناول الأفيون» لماتيورين – كتاب ذو محتوى كئيب وكان دوستويفسكي ثمّنه تثميناً رفيعاً و«عالم الفلك» لوالتر سكوت وعلى الخصوص «بحيرة أونتاريو» لمؤلفها كوبرو والتي جذبتني نهائياً إلى عالم القراءة.

ديمتري غريغوروفيتش:

حسبما أذكر كانت دراسة دوستويفسكي غير جيدة وغير رديئة. فهو كان يكره نفسه أن ينهي سنته الدراسية وينتقل من صف إلى آخر دون تأخير. ففي أحد الصفوف رسب في الامتحان وكان عليه إعادة السنة الدراسية. هذا الإخفاق هزّه كلياً. أصيب بوعكة صحية وهجع لفترة من الوقت في المستشفى العسكري.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة له إلى الوالد بتاريخ 4 شباط عام 1838:

اقترب موعد امتحاننا من نهايته. كنت أفتخر بامتحاني وأديت الامتحانات بدرجة – ممتاز – وماذا؟ لقد أبقوني سنة أخرى في الصف. يا إلهي! بم أغظتك؟ لماذا لا ترسل لي هناءتك وغبطتك التي يمكن أن أُفرح

بها أحد أرقّ الوالدين؟ ما أكثر الدموع التي كلفتني. لقد أسئ لي عندما سمعت بذلك. نجح الممتحنون الذين هم أسوأ مني بمئة مرة (بالمحسوبية). ما العمل سينكشف أنك لن تمهد الطريق بنفسك. أسرد عليك علاماتي دون أن أخفي شيئاً – سأكون صريحاً، من أصل العلامة الكاملة /15/:

– في الجبر: 11 (المدرس أراد أن أعيد السنة فهو ساخط علي أكثر من الجميع).

– التحصين: 12

– المدفعية: 8

– الفرنسية: 10

– الهندسة: 10

– الألمانية: 10

– التاريخ: 10

– قانون الرب: 10

– الجغرافيا: 10

والآن احكموا بأنفسكم عندما سمعت أنني بقيت سنة ثانية بمثل هذه العلامات.

أندريه دوستويفسكي:

كان الوقت برحيل والدتي قبل عودة أبي من بطرسبورغ وقتاً مفعماً بالنشاط لأنه وهو منغمس في العمل نسي شقاءه أو على أقل تقدير، تحمله بصورة طبيعية أكثر مما يمكن التعبير عنه. كما أن جني المحصول والانتقال إلى القرية شغله كثيراً. وها هو، أخيراً، في القرية في أشهر الخريف والشتاء عندما توقفت حتى أعمال الري... بعد نشاط مرهق استمر خمسة وعشرين عاماً رأى الوالد نفسه محصوراً في غرفتين – ثلاث غرف من بناء قروي دون أية صحبة أو معشر! لقد ترمل في عمر غير كبير نسبياً إذ كان في السادسة والأربعين – السابعة والأربعين. حسب روايات المربية ألينا فرولوڤنا حتى في الفترة الأولى فقد وصل إلى حد أن يتحدث مع الزوجة المرحومة بصوت مسموع ويجيب ذاته بكلمات عادية!... هذه هي الحالة، لا سيما في حالة العزلة، لم يكن بعيداً عن الجنون! وبغض النظر عن كل هذا بدأ، قليلاً، يتناول المشروبات الروحية. في هذا الوقت تقرب من الفتاة كاترينا التي كانت تخدم عندنا سابقاً في موسكو. ومن سيدينه بسبب هذا في وضعه وعمره. جميع هذه الظروف التي وعاها الوالد نفسه أجبرته أن ينقل الابنتين ڤاريا وڤيرا إلى موسكو للسكن عند العمة. استقرت ڤاريا هناك منذ ربيع 1838 أما ڤاريا فذهبت إلى المدرسة...

الطلة الأدبية الأولى

ديمتري غريغوروفيتش:

عندما بدأت العيش مع دوستويفسكي كان قد أنهى لتوه قراءة ترجمة رواية بلزاك «يفغيني غرانديه». كان بلزاك كاتبنا المحبوب والمفضل وأقول «كاتبنا» لأننا نحن الاثنين قرأناه بصورة متعادلة معتبرين إياه أعلى بما لا يقاس من جميع الكتاب الفرنسيين... لا أستطيع تذكر الطريقة التي وصلت فيها ترجمة «يفغيني غرانديه» إلى مجلة «مكتبة لأجل القراءة» إلا أنني أذكر فقط عندما وصل كتاب المجلة إلى أيدينا. دوستويفسكي غضب بعمق بسبب أن «يفغيني غرانديه» هي الرواية الثالثة في صيغة مقتضبة. قالوا إن هذه هي عادة عند سينكوفسكي رئيس تحرير «مجلة لأجل القراءة».

على فكرة، كان دوستويفسكي يجلس أياماً كاملة وجزءاً من الليل وراء مكتبه. لم ينطق بكلمة عما يكتبه، وكان يرد على أسئلتي عن غير رغبة وباقتضاب، ولمعرفتي بإنطوائيته توقفت عن السؤال (كنا نعيش سوية على حسابه). يمكنني فقط رؤية أوراق عديدة مكتوبة بذاك الخط الذي كان يميز دوستويفسكي. الأحرف كما لو كانت مرسومة رسماً. ولم أجد مثل هذا الخط لاحقاً إلا عند اسكندر دوماس الأب. وما أن يتوقف دوستويفسكي عن الكتابة حتى يظهر كتاب في يديه على الفور. في وقت

من الأوقات أدمن على روايات ف.سوليه وأعجبته خاصة « مذكرات شيطان». وقد أثر العمل المضني وملازمة البيت بصورة دائبة تأثيراً ضاراً للغاية في صحته كما عززت حالات مرضه الذي تبدى، غير مرة، في شبابه، في أيام وجوده في المدرسة. ففي أثناء نزهاتنا النادرة معه في زقاق ترويتسكي أصيب، غير مرة، بنوبة.

ذات مرة بينما نعبر هذا الزقاق صادفنا جنازة سرعان ما أشاح دوستويفسكي وجهه ورغب العودة إلى الوراء ولكن قبل أن يتيسر له هذا أصيب بنوبة كانت قوية لدرجة أنني بمساعدة المارة اضطررت إلى نقله إلى أقرب دكان ألبان وأجبان. وبصعوبة هائلة أعدناه إلى رشده. بعد مثل هذه النوبات حل وقت انقباض النفس والكآبة الذي يستمر يومين أو ثلاث أيام.

ذات صباح (كان الوقت صيفاً) يدعوني دوستويفسكي إلى غرفته. وما أن دخلت حتى وجدته جالساً على الأريكة التي هي مفرش نوم أيضاً وأمامه على المكتب دفتر سميك من القطع الكبير بهوامش وكتابة صغيرة الحروف. قال دوستويفسكي بحيوية غير معهودة: اجلس يا غريغوروڤيتش. البارحة بيضت هذه الصفحات. أريد أن أقرأها لك. اجلس ولا تقاطعني.

ما قرأه لي في جلسة واحدة دون توقف تقريباً ظهر سريعاً في الطبع تحت اسم «المساكين».

كنت، دائماً وأبداً، أحمل رأياً سامياً عن دوستويفسكي وسعة إطلاعه ومعرفته الأدب ومحاكماته وجدية الطبع وكل هذا أثر فيّ تأثيراً ملهماً

وموحياً. من صفحات «المساكين» الأولى فهمت أن ما كتبه دوستويفسكي في «المساكين» هو أفضل من كل ما ألفته حتى الآن. وكانت القناعة تشتد بقدر ما تستمر القراءة. وقد قاطعته بإعجابي حتى درجة المستحيل، ورميت نفسي على رقبته ومما أعاقني هو معرفتي بعدم حبه لإبداء العواطف الضجوجة والمعبرة وأنا لم أستطع الجلوس في مكاني بهدوء وقاطعت القراءة بصيحات الحماسة البهيجة.

نتيجة هذه القراءة معروفة، إلى حد ما لجمهور القراء. وإن قصة كيف سحبت مخطوط «المساكين» بالقوة تقريباً وأخذته إلى نيكراسوف، مروية من قبل دوستويفسكي نفسه في «يومياته».

فيودور دوستويفسكي، من «يوميات كاتب» عام **1877**:

في مساء ذلك اليوم عندما أعطيت المخطوط ذهبت لزيارة أحد الرفاق السابقين في مكان بعيد. ظللنا، طوال الليل نتكلم معه عن « النفوس الميتة» وقرأناها وأذكر... عدت أدراجي إلى البيت في الساعة الرابعة في ليلة بطرسبورغية بيضاء كالنهار. كان الوقت دافئاً جميلاً ورائعاً وما إن ولجت الشقة لم أتمدد للرقاد، فتحت النافذة وجلست بجانبها. فجأة يقرع جرس الباب ولعجبي الشديد أرى أمامي غريغوروڤيتش ونيكراسوف يهجمان علي للعناق في حالة من الفرح الكامل وكاد الاثنان يبكيان. فهما، في العشية مساء عادا باكراً إلى البيت وأخذا مخطوطي وشرعا يقرأان لأجل

التجريب: «من الصفحات العشر سيتبين كل شئ». وما إن قرأا الصفحات العشر حتى قررا قراءة عشر صفحات أخرى ومن ثم، ودون انقطاع، جلسا طوال الليل حتى الصباح وهما يقرأان بصوت مسموع ويتناوبان عندما يتعب أحدهما. بعدها قررا المجئ إلي: سنوقظه فهذا أرفع شأناً من النوم!...

ديمتري غريغوروفيتش:

قرأت وفي الصفحة الأخيرة عندما يودع العجوز ديڤوشكين، ڤاريا لم أستطع أن أتمالك نفسي وبدأت أنشج. نظرت خلسة إلى نيكراسوف: سالت الدموع على وجهه أيضاً. أخذت، بحمية وحماس، أقنعه بأن العمل الجيد لا يجوز تأجيله أبداً وأنه يجب الآن التوجه إلى بيت دوستويفسكي رغم تأخر الوقت (كانت الساعة قرابة الرابعة صباحاً) لإعلامه عن النجاح والتحدث معه، على الفور، عن طبع الرواية.

وافق نيكراسوف وهو مضطرب، ارتدى بسرعة وسلكنا طريقنا. ينبغي الاعتراف أنني تصرفت، في هذه الحالة، بصورة عشوائية. فأنا أعرف جيداً طبيعة شريكي الذي أعيش معه في الشقة وبعده عن الصحبة والعشرة والناس وحساسيته المريضة وإنطوائيته لذا لزم الأمر كي أروي له ما حدث في اليوم الآخر ولكن برباطة جأش عدم إيقاظه وإزعاجه بالمسرة غير المتوقعة، إضافة إلى هذا عدم مرافقة غريب إليه ليلاً ولكنني كنت أنا، حينذاك في حالة مضطربة، ومثل هذه الدقائق يحاكمها بشر أكثر هدوءً.

رداً على النقرة فتح دوستويفسكي الباب. وما إن رأى بجانبي وجهاً غريباً حتى ارتبك وتكدر وشحب لونه وظل غير قادر على الرد على الكلمات التي نطق بها نيكراسوف. بعد ذهابه توقعت أن يبدأ دوستويفسكي بشتمي بسبب هذه الحمية المفرطة إلا ن هذا لم يحدث. لقد اكتفى فقط بأنه أغلق باب الغرفة على نفسه وبعد ذلك بفترة غير قصيرة سمعت وهو ممدد على الأريكة، خطواته التي تقول لي عن الحالة المضطربة لروحه.

فيودور دوستويفسكي، من «يوميات كاتب» عام **1877**:

قضيا عندي نصف ساعة، وفي نصف الساعة هذه الله وحده يعلم ما أكثر ما تحادثنا. كنا نفهم بعضنا بعضاً من نصف كلمة، صيحات وهتافات، تكلمنا على الشعر والحقيقة و«الوضع الماثل وقتذاك»، وبالطبع تناولنا غوغول ونحن نقتبس من « المفتش» و«النفوس الميتة» إلا أن الحديث الرئيسي كان عن بيلينسكي.

قال نيكراسوف ببهجة وفرح: «اليوم سأحمل إليه روايتك وأنتم سترون – نعم هو إنسان هكذا! ستتعارفان وسترون أي روح يمتلك!». قال نيكراسوف هذه الجملة وهو يهزني من كتفيّ بيديه الاثنتين. «ولكن ناموا، ناموا ونحن نذهب وغداً ستأتي إلينا! استطعت أن أغفو بعدهما! يا لها من سعادة، يا له من نجاح والشئ الرئيسي كان الشعور عزيزاً». أذكر بوضوح: «لدى شخص آخر ثمة نجاح يمدحونه، يستقبلونه، يهنئونه بينما هذان

هرولا بالدموع، في الساعة الرابعة يوقظونكم لأن هذا أسمى شأناً من النوم... آه حسناً! فكرت أي نوم هذا»!

أحضر نيكراسوف المخطوط إلى بيلينسكي في اليوم ذاته. وقف أمام بيلينسكي بكل التبجيل ويبدو انه أحبه أكثر من أي شخص آخر في حياته...

وعند دخوله صرخ نيكراسوف وبيده « المساكين»: « ظهر غوغول جديد!» و«ينمو الغوغوليون عندنا مثل الفطر». لاحظه بيلينسكي بصرامة إلا أنه أخذ المخطوط منه. وعندما قدم نيكراسوف ثانية إليه في المساء استقبله بيلينسكي «ببساطة في اضطراب»: «ترجموها، ترجموها بسرعة!».

ايفان پانايف (1812 – 1862) ، كاتب وصحفي وناشر:

لم يستقبل بيلينسكي مخطوط «المساكين» بثقة وتصديق وظل، على ما يبدو، عدة أيام، حتى أقبل عليها.

للمرة الأولى شرع في قراءتها بعد أن تمدد في السرير معتقداً أنه سيقرأ قليلاً ولكن من الصفحة الأولى أثار المخطوط اهتمامه...

تولع به أكثر فأكثر ولم ينم طوال اليوم حتى قرأه مرة واحدة دون توقف.

في الصباح ألفى نيكراسوف، بيلينسكي في حالة من الفرح القلق والمحموم.

في هذا الوضع أخذ يروح ويجئ في أرجاء الغرفة في حالة من الاضطراب واللهفة. جسده كله مضطرب. في هذه اللحظات كانت ثمة حاجة أكيدة لشخص مقرب بحيث يمكن نقل الانطباعات إليه...

مما لا شك فيه أن بيلينسكي فرح بقدوم نيكراسوف.

كانت كلماته الأولى: أعطيني دوستويفسكي!

بعد ذلك أخذ نفساً ونقل إليه انطباعاته قائلاً إن «المساكين» تكشف عن موهبة عظيمة هائلة وإن مؤلفها سيذهب أبعد من غوغول وما إلى ذلك...

عندما أحضروا له دوستويفسكي استقبله برقة، وتقريباً بحب أبوي وفي الوقت ذاته أفصح عن كل شئ ونقل له كل حماسته.

فيودور دوستويفسكي، من «يوميات كاتب» ، عام 1877:

وهكذا أحضروني إليه (كان هذا في اليوم الثالث). أذكر أنه للوهلة الأولى أدهشتني هيأته الخارجية، أنفه، جبينه. لا أعرف لماذا تصورته إنساناً آخر كلياً – « هذا الناقد الفظيع، المرعب». استقبلني بوقار وحرص فظننت: «وماذا ربما ينبغي هكذا» ولكن لم تنقض دقائق حتى تغير كل شئ. لم يكن هذا وقار الوجه ولا الناقد العظيم الذي يستقبل كاتباً مبتدئاً ابن الثانية والعشرين ربيعاً بل، كما يقال، بسبب احترامه لتلك المشاعر التي أراد أن يسكبها لي بأسرع ما يمكن، إلى تلك الكلمات الوقورة التي أسرع في النطق بها. تحدث بصورة ملتهبة بعينين ناريتين. كرر على مسامعي وهو

يصرخ كعادته: «أنتم نفسكم تدركون ماذا كتبتم! كان يصرخ دوماً عندما كان يتكلم بإحساس قوي.» فقط ببديهة مباشرة، كفنان، استطعتم كتابة هذا ولكن هل أدركتم بنفسكم كل هذه الحقيقة المرعبة التي أنتم أشرتم إليها؟ يستحيل أن تكونوا وأنتم في عامكم العشرين، قد استوعبتم هذا. إن موظفكم المسكين التعيس قد خدم قبل ذلك... وكان قد أوصل نفسه إلى هذه النتيجة... وعندما أعطاه الجنرال هذه المئة روبل صار محطماً من الدهشة بحيث أن شخصاً مثله أمكنه أن يشفق على «فخامتهم» وليس فخامته بل «فخامتهم» كما يجري التعبير عنه عندكم! هذا زر مقطوع وتلك لحظة تقبيل يد الجنرال - هنا ليس الأسف على هذا المسكين التعيس بل رعب، رعبه! كامن في هذا الشكر! إنها مأساة! لقد تلمستم جوهر القضية، والشئ الرئيسي أنكم أشرتم دفعة واحدة! نحن الكتاب والنقاد نحاكم الأمور ونحاول بالكلمات توضيح ذلك وأما أنتم الفنانين مرة واحدة تدخلون الجوهر نفسه في الشخصية بغية أن يصبح كل شئ مفهوماً فجأة بالنسبة إلى القارئ الذي لا يحاكم الأمور بنفسه! هذا هو سر السمة الفنية، هذه هي الحقيقة في الفن! هذه هي خدمة الفنان للحقيقة! الحقيقة مفتوحة أمامكم وتسمو وهي هدية. ثمّنوا هذه الهدية وابقوا واثقين وكونوا كاتباً عظيماً!...».

كل هذا قاله لي وقتذاك... خرجت من داره في حالة من الحبور. وقفت عند زاوية بابه ونظرت إلى السماء، إلى ضوء النهار، إلى المارة وشعرت

بكل كياني أن لحظة مهيبة حدثت في حياتي وانعطافاً أبدياً حيث بدأ شئ ما جديد كلياً إلا أنه ليس مما افترضته وقتذاك حتى في أحلامي الملتهبة الشغوفة. (كنت، حينذاك، حالماً حتى درجة الإرعاب). وفكرت بخجل عن ذاتي في تلك البهجة الوجلة: «هل من المعقول أن أكون عظيماً إلى هذا المستوى» ولكن، وقتذاك، كان يمكن تحمل هذا! «أوه، سأكون جديراً بهذه الثناءات ويا لهم من بشر! هاهم البشر! سأستحق ذلك، سأحاول أن أكون رائعاً كما هم وسوف أكون «واثقاً»! أوه، يالي من سخيف! لو عرف بيلينسكي فقط تلك الأشياء الكريهة الدنيئة المخجلة في داخلي! يقول الجميع إن هؤلاء الأدباء متعجرفون ومتكبرون وأنانيون. على فكرة، مثل هؤلاء الناس موجودون فقط في روسيا. إنهم وحدهم ولكن عندهم وحدهم الحقيقة والطيبة والخير وهم ينتصرون دوماً على العيوب والشرور. نحن ننتصر، معهم!».

پافل أنينكوف (1812 – 1887) ناقد أدبي، مؤرخ للآداب، كاتب ذكريات:

في إحدى زياراتي لبيلينسكي قبل الغذاء عندما كان يستريح من أعمال الكتابة الصباحية رأيته من الحوش الخارجي عند نافذة غرفة الضيوف ودفتر كبير في جيبه مع كل علامات الاضطراب على الوجه. هو، أيضاً، لاحظني وصرخ: أسرع عندي خبر... وتابع: « لا أستطيع الاستغناء عن هذا

المخطوط لليوم الثاني. إنها رواية موهوب مبتدئ. هذا هو السيد وهذا هو حجم أفكاره. لا أزال لا أعرف فالرواية تكشف عن أسرار الحياة والطباع في روسيا والتي لم يسبق أحد قبله حتى أن يحلم بها. علّها أول محاولة عندنا للرواية الاجتماعية ومبنية مثلما يبني عادة الفنانون أي أن يشكوا هم أنفسهم بما يصدر عنهم. القضية بسيطة: يوجد غرباء الأطوار أنيسون لطيفون يفترضون أن إبداء الحب للعالم بأسره هو سعادة غير عادية وواجب على كل شخص. لا يمكنهم استيعاب أي شئ عندما سارت عجلة الحياة بكل منظوماتها فوقهم وحطمت أعضاءهم وعظامهم بصمت. أية دراما رائعة هذه! أية نماذج! نعم نسيت أن أقول لكم إن الفنان اسمه دوستويفسكي. وشرع بيلينسكي بحماس خارق قراءة المواضع التي أدهشتني أكثر من غيرها. هكذا استقبل اول مؤلف لكاتبنا الرومانسي.

ديمتري غريغوروفيتش:

بعد التعرف إلى نيكراسوف، ومن خلاله إلى بيلينسكي الذي قرأ مخطوط «المساكين» جرى تبدل ملحوظ عند دوستويفسكي. ففي أثناء طبع «المساكين» وقع، بصورة دائمة، في حالة قصوى من الهياج العصبي.

فيودور دوستويفسكي ، من رسالة إلى الأخ ميخائيل بتاريخ 1 شباط 1846:

الآن أبعث إليك التقويم الأدبي. صدرت «المساكين» في الخامس عشر. ما أكثر الشتائم القاسية التي صبت على المساكين! وفي « الصور الإيضاحية» لم أقرأ نقداً بل شتائم. وفي «نحلة الشمال» الشيطان وحده يعرف ما هذا ولكنني أذكر كيف استقبلوا غوغول وكلنا نعرف كيف استقبلوا بوشكين. حتى أن الجمهور في حالة من التكالب والحنق: 4/3 القراء يشتمون و4/1 يمدحون بتهور. يشتمون، يشتمون، يشتمون ومع ذلك يقرؤون. تنفد نسخ التقويم الأدبي بصورة غير معقولة. ثمة أمل بأن لا تبقى في السوق ولا نسخة واحدة بعد أسبوعين. هذا ما حدث مع غوغول. كانوا يشتمونه، يشتمونه، يشتمونه – يشتمون ومع ذلك صاروا يقرؤونه والآن تصالحوا معه وصاروا يمدحونه. دسست لهم عظمة كلب. دعهم يقرضونها. سيقيمون لي المجد الأحمق. قبل هذا ستصاب بالخزي والشنار. يا له من حنق أحمق! في الآن ذاته يا لها من مدائح وثناءات أسمعها يا أخي! تصور أن ناسنا حتى بيلينسكي وجدوا أنني ذهبت حتى أبعد بكثير من غوغول. وفي «المكتبة لأجل القراءة» حيث يكتب الناقد نيكيتينكو سيكون فيها تحليل هائل « للمساكين» في صالحي. سيرد بيلينسكي على الأقاويل في آذار ويكتب أدايفسكي مقالة مستقلة عن «المساكين». وزميلي سولوغوب أيضاً. يا أخي، لقد اندفعت إلى الأوج وبعد ثلاثة اشهر سأروي لك شخصياً كل مغامراتي.

ثمة غريزة في جمهورنا كما هي الحال في كل حشد من البشر إلا أنه لا توجد ثقافة. إنهم لا يفهمون كيف يمكن الكتابة بهذا الأسلوب. فهم اعتادوا في كل شئ أن يروا وجه المؤلف. أنا لم أكشف عن وجهي ولم يخطر على بالهم ما يقوله ديفوشكين وليس أنا وأن ديفوشكين غير قادر على التكلم بصيغة أخرى. إنهم يرون أن الرواية مسهبة مطولة بينما لا توجد فيها كلمة زائدة. إنهم يجدون فيّ تياراً أصيلاً جديداً (بيلينسكي وغيره) كامناً في أنني أتصرف من خلال التحليل وليس التركيب أي أنني أسير في العمق وأحلل الذرات وأفتش عن الكل بينما يأخذ غوغول مباشرة الكل وليس عميقاً مثلي أنا. وترى بنفسك. مستقبلي الوضاء يا أخي!.

فلاديمير سولوغوب (1813 – 1882)، أديب وكاتب ذكريات:

في عام 1845 أو 1846 قرأت في إحدى المجلات الشهرية قصة طويلة عنوانها «المساكين». تجلت فيها الموهبة الأصيلة والبساطة والقوة بحيث أنها أدت بي إلى حالة من الفرح والحبور. ما إن قرأتها حتى توجهت، على الفور، إلى ناشر المجلة. حسبما أذكر اسمه أندريه كرايفسكي للاستفسار عن المؤلف. سمّى لي دوستويفسكي وأعطاني عنوانه. دون انتظار توجهت إلى عنوانه ووجدته في شقة صغيرة في أحد شوارع بطرسبورغ النائية وأظن بيسكوف. إنه شاب شاحب ومعتل الهيأة يرتدي سترة منزلية رثة بأكمام قصيرة. عندما قدمت نفسي وعبّرت بكلمات

بهيجة عن انطباعي العميق والمدهش الذي تركته روايته التي نادراً ما تشبه كل ما صدر إلى حينه ارتبك دوستويفسكي وأعطاني كرسياً بمسند للجلوس كان هو الوحيد الموجود في الغرفة. جلست وتحادثنا. للحقيقة أقول أنا تحدثت أكثر منه وهذا من ذنوبي الدائمة. أجاب دوستويفسكي بتواضع بل حتى بمراوغة. في تلك اللحظة رأيت أن هذا الطبع خجول ومتحفظ وأنوف إلا أنه، وعلى أرفع مستوى، موهوب وحلو ولطيف. جلست عنده عشرين دقيقة ثم نهضت ودعوته للذهاب إلى داري لتناول الغداء.

ببساطة شعر دوستويفسكي بالفزع.

تفوّه دوستويفسكي بكلمات فيها الحيرة والارتباك: كلا يا كونت، اعذرني ماسحاً يداً بيد...

بعد شهرين تقريباً قرر دوستويفسكي المجئ إلى «معرض الوحوش».

أفدويتا پانايفا:

بسبب الفتوة والعصبية لم يكن قادراً على تمالك الذات وكان يعبر بصراحة عن أنفته وعزة نفسه وصلفه بخصوص موهبته الكتابية. وهو كإنسان حساس مشدوهاً بخطوته الأولى البراقة وغير المتوقعة في مضمار الأدب والمدائح المنثورة عليه من قبل أشخاص ذوي أهلية وإطلاع، لم يستطع إخفاء كبريائه أمام أدباء شباب آخرين دخلوا ميدان الأدب

بمؤلفاتهم بتواضع فصاروا يغتابونه ويضجرونه ويهيجون عزة نفسه بوخزات في الأحاديث وخاصة المعلم تورغينيف - فهو تعمد جرّ دوستويفسكي إلى الجدل وإيصاله إلى أعلى مستويات التهييج. وقد قفز على الجدران ودافع عن نفسه بكل حمية، بل أحياناً عن نظرات سخيفة نطق بها في حماة غضبه بينما التقطها تورغينيف وتسلى بها...

ذات مرة وصف تورغينيف بحضور دوستويفسكي، لقاءه في الريف مع شخصية اعتبرت نفسها عبقرية وصور الجانب المضحك في هذه الشخصية بمهارة فائقة. امتقع دوستويفسكي مثل الخيش، اهتاج جسده كله وهرب دون أن يسمع قصة تورغينيف حتى نهايتها. لقد لاحظت ماذا أوصل دوستويفسكي إلى الخروج. ولكن تورغينيف كان في مزاج مرح للغاية وجذب إليه الآخرين بحيث أن لا أحد أضفى أهمية على خروج دوستويفسكي السريع. صار تورغينيف يؤلف أشعاراً هزلية على ديڤوشكين بطل «المساكين».

لم يعد دوستويفسكي يحضر أمسياتنا بعد ذلك حتى أنه تلافى اللقاءات في الشارع مع أحد من الحلقة. ذات مرة التقى فيه بانايف في الشارع وأراد إيقافه وسؤاله لماذا لم يعد يحضر إلا أن دوستويفسكي هرول إلى الطرف الآخر.

في حلقة پتراشيفسكي

ستيبان يانوفسكي:

من جهة الحب الذي يكنّه للمجتمع وللنشاط الذهني، ومن جهة أخرى نقص المعارف في مجالات أخرى عدا ذاك التخصص الذي كان من نصيبه ألا وهو مدرسة الهندسة لذا كان من السهل عليه أن يأتلف مع پتراشيفسكي. ذات مرة أجريت حديثاً مع دوستويفسكي وسألته لماذا يحضر حلقة باكروف أيام الجمع ولماذا يحضر كثير من البشر في هذه اللقاءات؟ أجاب دوستويفسكي جوابه الدائم: «أنا نفسي أحضر لأنني ألتقي عند پتراشيفسكي بأشخاص جيدين لا أرى مثلهم لدى معارف أخرين. يلتئم عنده شمل كبير لأن جلسته دافئة وحرة وللعلم يقترح دوماً العشاء وقدحاً من النبيذ وإن كان مزاً حاداً. يؤم اللقاء بشر مختلفون ولكن ليس سهلاً الحصول على موافقة بالحضور.

پيوترتيان شانسكي:

... أيام جمع محدودة هي مكان وزمن لقائنا الرئيسي حيث كنا نجتمع عند أحد رفاق المدرسة – ميخائيل ڤاسيليڤيتش بوغاشيڤيتش – پتراشيفسكي. هنا تعرفنا إلى حلقة شبيبة المثقفين البطرسبورغية في ذاك الزمن ومنهم من عرفته أكثر من غيرهم، من الذين عانوا في تاريخ

بتراشيفسكي – سبيشنيف والأخوان ديبو ودوروف وپالم وكاشكين ومن الهاربين من مصيرهم – د.ف.غريغوروڤيتش وآ.م.جيمتشونيكوف والأخوان مايكوف ويه.ي.لامانسكي وبيكليميشيف والأخوان مارديتوف وڤلاديمير ميليوتين وبانايف وغيرهم. كانوا جميعاً يحضرون حلقة پتراشيفسكي الكريمة بكل رغبة لأنه كانت لديه دار خاصة به وإمكانية ترتيب مثل هذه الأمسيات رغم أن پتراشيفسكي نفسه بدا لنا غرائبياً بل حتى طائشاً. كان يعمل مترجماً في وزارة الخارجية وانحصرت واجباته في العمل كمترجم مع الأجانب في جرد الموجودات وخاصة تركة المتوفى بلا وريث ولا سيما المكتبات. عمله هذا خدمه كثيراً إذ كان يختار من هذه المكتبات الكتب الأجنبية الممنوعة مبدلاً إياها بالمسموح بها، ومن الكتب الممنوعة شكل مكتبته الخاصة التي أثراها بشراء مختلف الكتب وقدم خدماته للاستفادة منها من أفراد فئة التجار ومجلس الدوما في المدينة لشؤون البلديات حيث كان عضواً فيها. كان ليبرالياً وراديكالياً متطرفاً في زمنه وملحداً وجمهورياً واشتراكياً. وقد مثّل النموذج الرائع للداعية بالفطرة إذ كانت تعجبه وبالذات النشاطات الدعائية والتحريضية التي حاول إبداءها في داخل جميع الفئات المجتمع. لم تكن دعاياته التحريضية مترابطة كما يجب ولا متوازنة. فهي خليط من معاداة الملكية بل حتى من الأفكار الثورية والاشتراكية ليس في حلقات الشبيبة المثقفة فحسب بل أيضاً في صفوف الناخبين للمجالس. ومن أجل غايات الدعاية سعى كي يصبح معلماً في

المؤسسات التعليمية العسكرية أيضاً. ورداً على روستوفتسيف: ما هي المواد التي يمكنه تدريسها أجاب: /11/ مادة. وعندما امتحنوه في إحداها بدأ محاضرته التجريبية بالكلمات التالية: «يمكن النظر إلى هذه المادة من عشرين وجهة نظر» – وبالفعل عرض هذه العشرين إلا أنهم لم يقبلوه في سلك التعليم. كان يتميز في طقمه بأصالة مفرطة ناهيك عن الشعر والشاربين واللحية الطويلة السائدة حينذاك. كان يضع على رأسه قبعة عالية بأربع زوايا محاولاً لفت أنظار الجمهور الذي كان يستميله بكل الوسائل – مثلاً إطلاق الألعاب النارية وإلقاء الخطابات وتوزيع الكتيبات وما إلى ذلك ثم كان يدخل معه في أحاديث سرية.

ستيپان يانوفسكي:

كان عدد حضور اجتماعات پتراشيفسكي ودوروف قليلاً جداً بحيث يضيع في بطرسبورغ مثل نقطة الماء في النيڤا السريع الجريان. مجموعة صغيرة، خليط من الألقاب والفئات والمهن والأعمار. وأظهر هذا التركيب المبرقش أنهم لم يستطيعوا التأثير على جماهير المجتمع. لم تكن هناك أية وسائل مالية. وباستثناء سبيشنيف وپتراشيفسكي ودوروف وغريغوريف كان جميع أفراد الحلقة فقراء، كما لم تكن لديهم أسلحة مع استثناءات نادرة. كثيرون منهم، على أقل تقدير في أربعينات القرن التاسع عشر حاولوا إضفاء أهمية مميزة على أن بعض ضباط الحرس شاركوا في اجتماعات

پتراشيفسكي. وأضفوا أهمية جدية على هذه النقطة. وفي الواقع لم تكن هناك أية صلات بين هؤلاء الضباط ولا تجمعهم آراء موحدة مع الرفاق ولا مع الآخرين ولا مع ذوي الرتب الأخرى. أذكر كيف أن فيودور دوستويفسكي نفسه نظر نظرة ارتياب إلى هذا النوع من محاكمة الأمور. وإن الرفاق الأكثر ذكاء في الأفواج، مثلاً كابتن فوج الخيالة ڤلاسوفسكي وزڤوليانسكي وغيرهما ببساطة ضحكوا عل تولع الرفاق وسموهم مجانين. وفيودور دوستويفسكي نفسه لم يضف أية أهمية على اجتماعات پتراشيفسكي إلا أنه واصل الحضور لسبب واحد هو أن الحاضرين يصغون إليه. وفي وجوده الدائم عند پتراشيفسكي لم يخجل من الإفصاح للكثيرين من زملائه المقربين عن عدم احترامه لپتراشيفسكي وسماه محرضاً ومكائدياً... كل هذا أقوله بثقة لأنني سمعت ذلك من فيودور دوستويفسكي نفسه.

فيودور دوستويفسكي:

في الثاني والعشرين، أو من الأفضل الثالث والعشرين من نيسان عام 1849 عدت إلى البيت في الساعة الرابعة قادماً من دار غريغوريف، رقدت وغفوت على الفور. بعد فترة لا تزيد عن الساعة لاحظت، من خلال النوم، أنه دخل إلى غرفتي أشخاص مريبون وغير عاديين. قعقعة السيوف. يالها من غرابة! فتحت عيني الاثنتين بجهد جهيد وسمعت صوتاً رقيقاً ناعماً عطوفاً: «انهض!».

نظرت: رئيس مركز الشرطة السرية أو شرطة الحي بفودين جميلين. ولكن لم يتكلم هو بل تكلم سيد يرتدي الأزرق بكتافيات مقدم.

نهضت من السرير وسألت: ماذا حدث؟

– بأمر من...

نظرت: بالفعل «بأمر». عند الباب يقف جندي، بالأزرق أيضاً. السيف عنده يصلصل...

– ظننت: آه! إذا الأمر!

– لا بأس، لا بأس، ارتدوا... نحن سننتظر – أضاف المقدم بصوت ألطف.

بينما كنت ألبس طلبوا كل الكتب وأخذوا ينبشون. لم يجدوا الشئ الكثير فأعادوا النبش. ربطوا أوراقي ورسائلي بكل اتقان. كشف رئيس الشرطة في هذا الصدد عن بعد نظر وبصيرة: فهو دس يده في الموقد وتحسس الرماد. وقف ضابط الصف الدركي على الطاولة وتسلل إلى الموقد إلا أنه وقع فجأة من الأفريز وسقط سقطة شديدة على الطاولة ثم على الأرضية. وعند ذاك اقتنع السادة الفطنون انه لم يكن يوجد شئ على المدفأة.

– سألت أنا: أليس هذا مزيف؟

– هم... بيد أنه يجب التفتيش... – دمدم رئيس الشرطة وأنهى بأنه ربطه بالقضية.

خرجنا. رافقتنا ربة المنزل المرعوبة ورجلها ايفان الذي كان رغم رعبه إلا أنه نظر بمهابة غبية إلى هذه الحادثة، وللعلم المهابة مرحة. كانت تقف عربة خيل عند المدخل. جلسنا في العربة، الجندي وأنا ورئيس الشرطة والعقيد. توجهنا إلى فونتانكا، الجسر المعلق عند الحديقة الصيفية.

حركة مشاة كبيرة هناك. صادفت الكثيرين من معارفي. كانوا جميعهم صامتين مثل النائمين. سيد من السادة، مدني ولكن برتبة عالية يستقبلنا... كان السادة بألبسة زرقاء يدخلون بلا انقطاع.

– قال أحدهم في أذني: هذا لك يا جدتي، يوم يوريف!

في 23 نيسان كان فعلاً يوم يوريف. لقد تحلقنا حول السيد المدني تدريجياً والقائمة في يديه. كان مكتوباً في القائمة أمام اسم السيد أناتولي بقلم الرصاص: «عميل في قضية مكتشفة».

ظننا نحن: هذا أناتولي. لقد أوقفونا ووزعونا في زوايا مختلفة بانتظار القرار النهائي أي إلى أين يأخذوننا. التأم شمل سبعة عشر شخصاً فيما يسمى القاعة البيضاء...

دخل ليونتي ڤاسيليڤيتش...

ولكن هنا أقطع قصتي. من الممكن الحديث مطولاً. إلا أنني أؤكد أن ليونتي ڤاسيليڤيتش كان وديعاً ولطيفاً أكثر من اللازم.

ألكسندر ميليكوف:

في الثالث والعشرين من نيسان عام 1849 وأنا عائد إلى البيت من المحاضرة ألفيت عندي ميخائيل دوستويفسكي الذي كان ينتظرني مدة طويلة. لاحظت من النظرة الأولى انه كان منزعجاً وقلقاً للغاية.

– سألت: ماذا بك؟

– فقال: ألا تعلم!

– ماذا يجري؟

– تم اعتقال الأخ فيودور.

– ماذا تقول! متى؟

– ليلاً... كان هناك تفتيش... سحبوه... تم ختم الشقة...

– وماذا بالنسبة إلى الآخرين؟

– تم اعتقال پتراشيفسكي وسبيشنيف... لا أعرف شيئاً عن الآخرين... سيسحبونني أنا أيضاً ليس اليوم، بل غداً.

– لماذا تفكر بهذا الشكل؟

– اعتقلوا الأخ أندريه... هو لا يعرف شيئاً. وهو لم يحضر إطلاقاً معنا... اعتقلوه عن طريق الخطأ عوضاً عني.

تباحثنا كي نذهب الآن للاستعلام عمن اعتقلوه أيضاً من أصدقائنا، وفي المساء سنلتقي ثانية. قبل كل شئ، توجهت إلى شقة س.دوروف. كانت مقفلة وعليها الختم الحكومي. الوضع نفسه عند شقة ن.مومبيلي، في ثكنات موسكو وفي جزيرة ڤاسيليف – عند فيليبوف. وعلى أسئلتي إلى الضابط المراسل وإلى البواب أجابوني: « يا إلهي، أخذوه ليلاً». قال الضابط المراسل مومبيلي الذي كان يعرفني، هذا الكلام والدموع في مقلتيه. ذهبت في المساء لزيارة ميخائيل دوستويفسكي كي نتبادل المعلومات المحصول عليها من قبلنا. كان هو في زيارة لمعارفنا المشتركين وعرف أن الجزء الأكبر منهم قد تم اعتقاله في الليلة الفائتة. وانطلاقاً مما عرفناه يمكننا أن نلخص كل شئ بأن المحبوسين هم فقط من عداد هؤلاء المجتمعين عند پتراشيفسكي. كان ميخائيل دوستويفسكي أيضاً في عداد هؤلاء الحضور ولم يعتقلوه بل اعتقلوا شقيقه أندريه عوضاً عنه عن طريق

الخطأ. وبناء عليه داهمهم خطر سيف ديموقليس صرت أتوقع لفترة أسبوعين كاملين ضيوفاً حتميين كل ليلة.

أندريه دوستويفسكي:

أمضينا طوال يوم الثالث والعشرين من نيسان حتى الليل في القسم الثالث. وزعونا على قاعات منفصلة بمعدل 8–10 أشخاص في كل قاعة وفرضوا علينا عدم التحدث فيما بيننا. كان يوماً شاقاً من أيام المجهول. ولكن في منتصف النهار حضر الأمير آرلوف (رئيس الدرك سابقاً).

ألقى حديثاً قصيراً على المعتقلين في كل قاعة أذكر ملخصها أننا لم نستطع الاستفادة من الحقوق والحريات الممنوحة لجميع المواطنين وأننا، بتصرفاتنا، أجبرنا الحكومة على حرماننا من هذه الحرية وأنه من خلال التحليل المفصل لجرائمنا ستنعقد محاكمة، وإن مصيرنا النهائي سيتعلق برحمة العاهل. قدموا لنا الشاي والقهوة والفطور والغداء وكل شئ تم بتأدب وأناقة... بكلمة، أطعمونا مثل ضيوف في الفرع الثالث.

كان يجلس دوماً بجانبي على الأريكة شاب لطيف سحب ورقة صغيرة من جيبه وكتب عليها بالقلم الرصاص: «كيف عائلتك ولماذا اعتقلوك؟» سلمني هذه الوريقة كي أقرأها.

كتبت عليها: «اسم عائلتي دوستويفسكي أما لماذا أنا معتقل – فهذا ما لا أفقهه». وسألته بدوري السؤال نفسه، وبتلك الطريقة استلمت الرد وهو

أن اسم عائلته دانيليفسكي وسبب الاعتقال غير معروف بالنسبة إليه أيضاً...

امتدت ساعات النهار الشاق وأخيراً حل المساء، وفي وقت الغسق أخذت تطير إلينا أحاديث متقطعة بين رجال الدرك المارين بلا توقف:

– هل أحضروا؟

– كلا لا زالوا يحضرون.

هذا الكلام قيل عن الجسر الذي يجب أن ينقلونا عليه إلى القلعة التي لم تكن مبنية في وقت الربيع ولكن لم تكن هذه الكلمات مفهومة بالنسبة لي.

عندما سادت الظلمة أي في الحادية عشر بدأوا ينادوننا وكل مدعو لم يعد إلينا ثانية. وأخيراً وصل الدور إلي وتبين أنهم استدعوني إلى مكتب ل.ف.دوبيلت.

في هذا المكتب كان يجلس جنرال نحيف في سترة زرقاء وكتافيتي جنرال بيضاء. كان هو ل.ف.دوبيليت. نظر إلي بتفحص وإمعان وسألني كيف بدا لي الوضع، قاس للغاية:

– دوستويفسكي.؟

– أجبت: تماماً صحيح.

– اسمحوا لي أن تتوجهوا مع السيد الملازم ن ن. ذكر الكنية ولكن بالطبع لم اذكرها وربما لم أكن على مايرام وقتذاك.

خرجت مع ملازم الدرك إلى البهو الذي مررت عبره صباحاً. ألبسوني معطفاً وأخذوني إلى الشارع. وفي الفناء الخارجي كانت بانتظاري عربة لأربعة ركاب مثل تلك التي أقلتني صباحاً. أجلسوني في العربة وبجانبي ملازم الدرك، وبالمقابل دركي ضابط صف. أغلقوا أبواب العربة وأنزلوا البرادي وانطلقت العربة.

كانت سفرتنا هذه المرة أطول. ومما يدعو للغرابة انه لم يخطر ببالي وقتذاك الشئ الأبسط ألا وهو أنهم يسوقونني إلى القلعة. وربما نتيجة لاضطرابي العصبي بدا لي أنهم ينقلونني خارج المدينة، خارج بوابة المدخل وهناك يجلسونني على عارضة متجهاً إلى سيبيريا...

وأخيراً، بعد مرور متنوع تحت قناطر محدودة (عبر بوابات في القلعة) توقفت العربة وأجبروني على الخروج منها وساقوني إلى غرفة غير كبيرة لجناح القومندان الذي استقبلنا وهو جنرال عجوز والقائمة في يديه. إنه قومندان القلعة نابوكوف.

– دوستويفسكي؟

– صح تماماً فخامتكم – أجاب ملازم الدرك الذي أوصلني إليه.

– سوقوه إلى النمرة الأولى.

ومن جديد ساقوني، وفي هذه المرة، عبر فناء خارجي مكشوف يؤدي إلى ممر معتم. توقفنا أمام أحد الأبواب الذي انفتح أمامنا. أدخلوني إلى غرفة

بحيث انسد الباب، على الفور، ورائي. وبشئ من الضجيج تم إغلاق المزاليج وقفل الباب بقفلين معلقين. وجدت نفسي وحيداً...

أقلقت الأحاسيس التي عانيتها طوال النهار، من الصباح الباكر، والحالة المضطربة في أثناء استمرار اليوم بأكمله وسرية الانتقالات وظلمة الليل وصرير الباب وضربات الأقفال الموصدة، إن كل شئ في الفترة الأولى، أين أنا؟ وفي أي شئ ورطوني؟...

الغرفة منارة إنارة خافتة للغاية بإناء بسيط فيه فتيل مثلما كانوا يستخدمونه في الزمن الغابر في تزيين الشوارع بالإنارة ويوضع هذا الإناء على حافة كوة النافذة. كان الدخان الذي يخرج منه يأكل العيون. أردت إطفاءها إلا أنهم طرقوا على الشباك الصغير الموجود داخل الباب وقالوا إنه يجب علي عدم القيام بذلك. استنتجت من كل هذا أنهم يراقبون تصرفاتي دقيقة بدقيقة.

لاحظت بعد تفحص قليل أنه ينتصب في الوسط سرير معلق مع كيس نوم بسيط ووسادة، وفي الزاوية البعيدة الأشياء الضرورية أي المبولة ولا شئ آخر.

منزعج ومنهك من جراء كل ما حدث. لم أخلع ملابسي بل ألقيت نفسي على السرير المعلق وخلال لحظات استسلمت للنوم مثل المقتول. في الليالي اللاحقة لم اعد أستطيع النوم بهدوء.

وفي اليوم التالي استيقظت وظللت لفترة طويلة لا أستطيع تصور أين أنا. وأخيراً فهمت كل شئ وأذعنت لقدري. وإذا بي أسمع صوت جرس

الكنيسة على مسافة قريبة جداً، في البداية الدعوة إلى الصلاة الصباحية، بعد ذلك جرس الدعوة إلى قداس الصباح. مع صوت الموسيقى. وقد أجبرني هذا أن أخمن بأنني أقبع في قلعة بتروباڤلوڤسك، في إحدى زنزاناتها أو حجراتها المنعزلة، نهضت من السرير المعلق وبدأت أتفحص ملياً حجرتي رقم 1. تبين أنها غرفة كبيرة وعالية السقف ومغطاة بقنطرة. جميع الجدران رمادية وشعرت بالبرد يتسلل حتى عظامي. لم أخلع ولا مرة معطفي عن جسدي حتى أنني كنت أنام فيه. خدوش مختلفة واضحة على الجدران وهي حديثة.

ربما قبل انتظار قاطنين جدد بفترة وجيزة، جرت عملية حت لتواقيع مختلفة من قبل ساكنين سابقين. هنا نافذة واحدة إلا أن نورها يبدأ من أعالي الأرضية. على الأرجح، في وقت مضى، قرميدية لأنها مع الزمن مع الزمن ابيضت.

وهكذا جرت حياتي يوم بعد يوم في حالة من التبطل فلا كتب ولا أوراق ولا شئ على الإطلاق!... بقي فقط الحلم والتأمل والتفكير بما يمكن أن يحدث مستقبلاً. الشغل الوحيد الذي ابتكرته لنفسي هو النهوض من السرير المعلق والبدء بالمشي حاسباً عدد خطواتي بصوت مسموع وبعد حساب ألف خطوة كنت أجلس في السرير المعلق للراحة. بعد ذلك أبدأ من جديد العمل نفسه.

وبهذه الطريقة طردت الأفكار الكئيبة من رأسي.

في اليوم الأول من اعتقالي ذكر لي الرائد أنه يمكنني بنقودي الخاصة أن أحصل على الشاي مرتين.

– سألت: هل يمكنني التدخين هنا؟

– بقدر ما تريد.

وما إن عرفت ذلك حتى رجوت الرائد أن يأمر بشراء تنباك وسيجار وعلبة كبريت (دخان اللف لم يكن موجوداً حينذاك)... وكان رأسمالي كله روبلين.

– بكل المبلغ؟ سألني.

– أجبت: نعم وأنا أفكر بأول تدخين بشراهة.

بعد فترة من الوقت جلبوا لي التبغ وكل مستلزماته... ولكن يا للفظاعة، التبغ كان سعره ثلاثين كوبيكاً والسيجار بسبعة كوبيكات ونصف. وعندما سألت ألا يجوز تبديل السلعة المشتراة بأفضل منها أخبرني المستخدم العجوز المكلف بهذه المهمة:

– لا بأس، ستعتاد على هذا وهذه المادة تكفيك لفترة أطول... لأنه من غير المعروف الفترة التي ستمضيها في هذا المكان!

فكرت ووافقت على حججه وأبقيت مشترياتي. وعليه ضمنت احتياطياً كبيراً من تبغ التدخين الرفيع إلا أنني حرمت نفسي من امكانية شرب فنجان من الشاي الساخن ولو قليلاً جداً.

كانوا يفتحون أبواب الزنزانة خمس مرات يومياً في وقت محدد:

1- صباحاً في الساعة السابعة أو الثامنة عندما كانوا يحضرون لي لأجل الاغتسال ويرتبون الغرفة أي كانوا يخرجون المبولة.

2- في الساعة العاشرة - الحادية عشر عند طواف الرئاسة. كان القومندان يومياً تقريباً يزور بنفسه الزنزانات والحجرات المنفردة.

3- في الساعة الثانية عشر عندما كانوا يحضرون الغداء.

4- في الساعة السابعة مساء عندما كانوا يحضرون العشاء.

5- عندما تظلم الدنيا بغية وضع أواني الشموع.

الغداء دوماً مكون من صحنين: شوربة الكرنب أو حساء آخر فيه قطع من لحم البقر وعصيدة (الثريد) من الحنطة السوداء أو القمح علماً أنهم كانوا يحضرون الخبز بوفرة. والعشاء مكون من صحن ساخن. ولأجل الشرب كان يتوفر دوماً قدح قصديري فيه شراب الكفاس (من الشعير) أو قدح ماء حسب الرغبة. كما يتبين كان الطعام بسيطاً للغاية إلا أنه يستحيل أن تشتكي لأنه كان دوماً مشبعاً وطازجاً. لا وجود مع الطعام للسكاكين ولا الشوكات خوفاً، على الأكثر، من الانتحار.

منذ الليلة الثانية اكتشفت مفاجأة أخرى في زنزانتي. ما إن أظلمت وأحضروا أنيات الشمعات المشتعلة إلى الزنزانة حتى بدأت تظهر تدريجياً الجرذان بحجوم كبيرة. كنت دوماً أشعر وأشعر الآن بخوف ما وبحالة من

التقزز من الجرذان الكبيرة. فهي تظهر، أحياناً في جماعة من عشرة جرذان في وقت واحد وأن خشية من أن تنسل إلى السرير المعلق كنت أظل مستيقظاً حتى الفجر. لم أستطع إدراك من أين كانت تظهر. ربما من مكان ما قريب حيث يوجد مستودع حبوب. وكانت تختفي عند الشروق.

ولكن، على فكرة، صار وقت سطوع الشمس أبكر في نهاية نيسان وبداية أيار وأنا كان يتيسر لي النوم لفترة كافية. فضلاً عن هذا كنت أنام، نهاراً، أيضاً بعد الغداء.

ألكسندر ميليكوف:

طوال هذا الوقت كنا نلتقي يومياً ونتبادل الأخبار رغم أننا لم نستطع الاستعلام عن كل شئ جوهري. وفيما كانت الإشاعات والأقاويل التي كانت تنتشر في المدينة بصدد قضية پتراشيفسكي بكل ذيولها العادية في مثل هذه الحالات نحن عرفنا فقط أنه تم اعتقال قرابة الثلاثين شخصاً وجميعهم تم إحضارهم في البداية إلى الفرع الثالث ومن هناك إلى قلعة پتروباڤلوفسك كي يقيموا في زنزانات منفردة. كما يتبين الآن كانوا يراقبون ويتجسسون على حلقة پتراشيفسكي منذ فترة طويلة وتم دس شاب من وزارة الداخلية في هذه الحلقة يتظاهر بالتعاطف مع أفكار الشبيبة الليبرالية ويحضر بانتظام اجتماعاتها حتى أنه هو نفسه كان يحرض الآخرين على الولوج في أحاديث راديكالية بعدها يسجل كل ما ورد في الأمسيات كي

ينقله إلى حيث يجب. قال لي ميخائيل دوستويفسكي أنه يرتاب بهذا الشاب منذ فترة طويلة. وسرعان ما اتضح أنه لأجل دراسة قضية پتراشيفسكي تم تخصيص لجنة تحقيق خاصة برئاسة قومندان القلعة الجنرال نابوكوف ومن الأمير دولغوروكوف ول.ف.دوبيليت والأمير پ.پ.غاغارين ويا.ي.روستوفتسيف.

أندريه دوستويفسكي:

كل يوم كنت أتوقع الاستجواب الذي وعدني به قومندان القلعة حتى في اليوم الأول من حبسي في الزنزانة. وقد افترضت أنه سيحدث نهاراً إلا أن الأيام تلو الأيام مضت. وكل مساء أفكر بشئ من الحسرة والأمل: «أليس غداً؟» وهكذا مرت عشرة أيام أي حتى يوم الاثنين الثاني من أيار. ففي ذاك اليوم مساءً فقدت الأمل بأنهم سيستجوبونني وظننت، حسب العادة، أليس غداً؟ أحضروا العشاء. بدأت المشي وعد الخطوات حتى الألف... وفجأة سمعت ضجة الأقفال والمزالج التي تفتح. إنها ضجة غير معهودة. بدأ القلب بالخفقان! انفتحت الأبواب ودخل الرائد الميداني.

– تفضل للاستجواب!...

سقطت على ركبتي وظللت أصلي للرب عدة دقائق!

خرجت إلى الهواء الطلق، ولدهشتي رأيت الأرض مغطاة بالثلج الساقط لتوه. هبت عليّ نسمة نضرة... وفجأة شعرت بسوء حالتي بحيث أنني

كدت أسقط. توقف الرائد الميداني والحارس وأنا انحنيت نحو الأرض وأخذت قطعة ثلج ومسحت الصدغين والرأس. صار وضعي أفضل ونحن تحركنا إلى الأمام وعبر الفناء الخارجي إلى جناح القومندان كي لا تحدث العودة بعد الآن إلى الزنزانة رقم 1.

ساقوني، في البداية، إلى قاعة الاستقبال وهي غير كبيرة إلا أنها تسطع بالأنوار. فيها مرآة كبيرة نظرت إليها... وتعجبت. أولاً، اكتشفت أنني نحفت نحوفاً شديداً. ثانياً، رأيت في ظل الإضاءة الكاملة قميصي... كان أسود مثل السخام. فأنا لمدة أسبوعين لم أغير ألبستي الداخلية. والدخان الصادر عن أواني الشمعات الليلية زاد الطين بلة. دسست الياقة باشمئزاز وسرعة وراء ربطة العنق وزررت السترة حتى فوق.

بعد عدة دقائق نادوا عليّ إلى قاعة جلسات لجنة التحقيق.

يوجد مكتب مستطيل الشكل كبير في وسط غرفة كبيرة ومضاءة جيداً ومغطى بالجوخ. في موضع الرئاسة يجلس قومندان القلعة الجنرال نابوكوف. في المكان الأول على يمينه، كما عرفت لاحقاً، كان يجلس الأمير ڤاڤلوڤيتش غاغارين الذي صار، في وقت لاحق، رئيساً للجنة الوزراء، الثاني – ليونتي ڤاسيليڤيتش دوبيليت. والمكان الأول من جهة اليسار كان يشغله الأمير ڤاسيلي أندريڤيتش دولغوروكوف، والمكان الثاني ياكوف روستوڤتسيف، وكان يشغل طرف المكتب – الديوان، كبير المستمعين والسكرتير.

ديمتري أخشاروموف (1823 – 1910) من أنصار الطوباوي الفرنسي فوريه. مشارك في أيام الجمع عند پتراشيفسكي:

هكذا الحال حتى 22 كانون الأول 1849. في هذا اليوم، مثله مثل الأيام المنصرمة. أمضيت الليل قلقاً حتى الفجر وفي الساعة السادسة تقريباً نهضت من الفراش، وكعادتي السديدة منذ زمن بعيد توجهت، غريزياً نحو النافذة ووقفت على قاعدتها، فتحت الكوة وأخذت نفساً من الهواء العليل وانطبع في ذهني طقس اليوم الجديد. وفي هذا اليوم أيضاً كنت في حالة من خور العزيمة كما هي الحال في الأيام الأخرى.

لا زال الجو معتماً وأجراس كاتدرائية پتروپاڤلوفسك تدق دقات متباينة وتشير الساعة إلى السادسة والنصف. وسرعان ما لاحظت أن الأرض مغطاة بثلج ساقط حديثاً. تم سماع أصوات وكان الحراس مهمومين بشئ ما. بقيت لفترة أطول عند النافذة وتبينت أكثر فأكثر أنه ثمة حركة غير عادية تحدث هنا وهناك وأحاديث مستخدمي القلعة المستعجلين. على فكرة، صار الجو أكثر صحواً ونوراً وتتوضح حركة رئاسة مستخدمي الرق أكثر فأكثر. استمر هذا الوضع ساعة من الوقت. إنه لمشهد لم يحدث من قبل في القلعة ورغم خور العزيمة.

فجأة انتعشت وتنامى حب الفضول والانتباه إلى ما يجري أكثر فأكثر لحظة بلحظة. وفجأة أرى سيرعربات من وراء الكاتدرائية وهي واحدة، اثنتان، ثلاث.. تسير وتسير دون نهاية وتتوقف بالقرب من بيت أبيض.

أدركت عيناي منظراً جديداً آخر: سار في الدرب فصيل كبير العدد من الخيالة للوقوف بجانب العربات...

ماذا يعني كل هذا؟ إنها ليست جنازة أحد ما أليس كذلك؟ ولكن لماذا هذه العربات الفارغة؟ خفق القلب... نعم انتظرت اليوم الأخير!... ما بين 22 نيسان و22 كانون الأول أي ثمانية أشهر قبعت في الزنزانة. والآن ماذا سيحدث؟!

مستخدمون في معاطف رمادية يحملون ألبسة ملقية عبر الأكتاف. إنهم يسيرون بسرعة وراء الضابط متجهين نحو ممشانا. كان مسموعاً كيف دخلوا إلى الممشى. حزمة المفاتيح صارت تطن وأخذوا يفتحون صوامع المعتقلين. وصلني الدور.

دخل أحد الضباط من معارفي مع المستخدم. جلبوا لي ألبستي التي سحبوني فيها، عدا عن هذا جرابات دافئة سميكة. قيل لي أن أرتدي ألبستي وجراباتي لأن الطقس صقيعي. «لماذا كل هذا؟ إلى أين يأخذوننا؟ هل انتهت قضيتنا؟» سألته فرد عليّ بمراوغة واختصار وغادر المكان على عجل. ارتديت بسرعة. كان الجوربان سميكين لذا لبست الجزمة بصعوبة. وسرعان ما انفتح أمامي باب وأنا خرجت. أخذوني من الممشى إلى سقيفة باب اقتربت منها عربة وطلبوا مني الجلوس فيها. عندما دخلت إلى العربة انسل معي جندي بمعطف رمادي وجلس بجانبي. كانت العربة تتسع لراكبين. انطلقنا وسمعنا صرير الدواليب ونحن نتدحرج على ثلج عميق

ومشدود بالصقيع. ارتفع زجاج نوافذ العربة وجمد بقوة ولا يمكن رؤية شئ من خلاله. توقفنا. على الأرجح بانتظار عربات أخرى، بعد ذلك بدأت الحركة العامة والسريعة.

– فسألت: إلى أين نسافر ألا تعرف؟

– أجاب جاري: لا أستطيع أن أعرف.

– إلى أين نذهب الآن؟ يبدو أننا ننطلق إلى ڤيبرغسكايا؟

دمدم بشئ ما. استنشقت على الزجاج بجهد جهيد مما أمكنني رؤية شئ ما من الشباك خلال لحظة. وهكذا ارتحلنا عدة دقائق وعبرنا النيڤا. صرت أحك الزجاج بتواتر بإظفري أو أتنفس على الزجاج.

سرنا في شارع ڤوسكرينسك ثم تحولنا إلى شارع كيروتشنايا بعده شارع زنامينسكايا – هنا أنزلت بسرعة وبجهد كبير زجاج النافذة. جاري لم يكتشف في هذا الصدد، عن أي كراهية أو نفور – وأنا لفترة نصف دقيقة متّعت بصري بمنظر العاصمة في لوحة الصباح الشتوية. كان المارة يسيرون أو يتوقفون بعد أن رأيت أمامي مشهداً لم يسبق أن شاهدته – موكب سريع من الأطقم محاط من جميع الجوانب برجال الدرك والسيوف مصلتة. يخرج الناس من الأسواق. في كل مكان أعمدة الدخان الكثيف المنطلقة من المواقد والمدافئ الموقدة لتوها. نظرت عبر النافذة ورأيت في الأمام وفي الخلف عربات سرية خيالة من الدرك. وفجأة ظهر دركي بالقرب من عربتي وقفز إلى النافذة وأمرني بعدم النظر بصورة تهديدية. عند ذاك أسرع

جاري في إغلاق النافذة. كان ينبغي عليّ النظر بسرعة من خلال ثقب! انطلقنا إلى ليغوفكا ومن ثم ذهبنا إلى قناة التحويل. استمر هذا السفر قرابة نصف ساعة. ومن ثم اتجهنا إلى اليمين بعدها توقفنا. انفتح باب العربة وخرجت منها.

نظرت حولي فرأيت منطقة أعرفها. لقد أحضرونا إلى ساحة سيمونوف. كانت الساحة مغطاة بثلج سقط لتوه ومحاطة بقوات واقفة وقفة الاستعداد. بعيداً عنها يحتشد الناس الذين ينظرون إلينا. يسود الصمت. إنه صباح يوم شتوي والشمس سطعت لتوها بشكل كرة كبيرة حمراء أشرقت على الأفق عبر ضباب السحب الكثيفة. اعتقلونا في 22 نيسان ونحن في ألبسة ربيعية ونقلونا إلى الساحة في 22 كانون الأول.

اتجهنا إلى الأمام فوق الثلج ورأيت إلى اليسار مني في وسط الساحة سقالة، حسبما أذكر، مربعة الشكل بدرج للدخول وكلها مغلفة بالحداد الأسود – منصة إعدامنا. هنا، أيضاً، رأيت حفنة من الرفاق المحتشدين سوية وهم يمدون أيديهم بعضهم للبعض الآخر ويرحبون بعضهم ببعض بعد فراق قهري مشؤوم. وعندما تفحصت وجوههم أدهشني التغير المرعب. فهناك كان يقف: پتراشيفسكي ولڤوف وفيليبوف وسبيشنيف وآخرون. وجوه نحيلة منهكة شاحبة، بعضهم بلحية وشعر طويل...

پتراشيفسكي أيضاً تغير تغيراً ملموساً يقف عابساً متجهماً.. لا تزال العربات تجري في طريقها وهي توصل المعتقلين في القلعة. ها هم

بليشييف وخانيكوف وكاشكين ويفروبييوس... نحفاء في حالة من الإعياء والإنهاك... فجأة انقطعت تحياتنا وأحاديثنا بصوت جهوري للجنرال القادم إلى الساحة:

صرخ قائلاً: الآن لاشئ يدعو للتوديع! أوقفوهم. فهو لم يفهم أننا كنا لانزال تحت تأثير اللقاء ولم يتيسر لنا التأمل بالإعدام الداهم. كثيرون منا تربطهم روابط الصداقة المخلصة، والبعض الآخر القرابة مثل الأخوين ديبو. مباشرة بعد صوته العالي ظهر أمامنا موظف يحمل قائمة في يديه فقرأها وصار يدعو كل واحد حسب الكنية.

كان الأول في القائمة پتراشيفسكي يليه سبيشنيف ثم مومبيلي بعده وردت كنية الآخرين – كان المجموع ثلاثة وعشرين شخصاً (كان ترتيبي الثامن). بعد ذلك قدم الخوري والصليب في يديه ووقف أمامنا قائلاً: «اليوم ستسمعون قراراً عادلاً بصدد قضيتكم. تابعوني!» ساقونا إلى منصة الإعدام ولكن ليس مباشرة إليها بل بالطواف على طول صفوف من القوات المتراصة.

ومثل هذا الطواف كما عرفت لاحقاً مخصص لوعظ القوات، وبالذات الفوج الموسكوڤي لأنه في صفوفنا كان يوجد ضباط من هذا الفوج – مومبيلي، لڤوف...

في البداية تحدث الخوري والصليب في يده بعده مشينا نحن جميعنا الواحد تلو الآخر فوق الثلج العميق. في التنظيم العسكري كان يقف،

حسبما بدا لي، عدة أفواج لأن طوافنا على الصفوف الأربعة كان مديداً... سرنا ونحن نتحادث: «ماذا سيفعلون بنا؟ لماذا يسوقوننا فوق الثلج؟ لماذا الأعمدة عند منصة الإعدام؟ غير معروف، من المحتمل الإعدام رمياً بالرصاص أو إرسال الجميع إلى الأشغال الشاقة...».

مثل هذا الرأي تم التعبير عنه بصوت عال من الأمام تارة ومن خلفي تارة أخرى ونحن اقتحمنا طريق الثلج واقتربنا من منصة الإعدام. وما إن دخلنا المنصة حتى تجمهرنا سوية ثانية وتبادلنا عدة كلمات. دخل معنا الجنود المرافقون الذين توزعوا خلفنا ثم أخذ الضابط والموظف يدرسان القائمة. وضعونا في صفين عموديين مع حاجز المدينة... عندما تم توزيعنا حسب الترتيب المحدد أعطي الأمر إلى القوات: « قدمْ سلاحك». ودوى هذا الأسلوب الذي تنفذه عدة أفواج في آن واحد، في جميع أرجاء الساحة. ومن ثم أمرونا «فلتسقط الطواقي!» إلا أننا لم نكن مستعدين لهذه الخطوة وتقريباً لم يقدم أحد على تنفيذ هذا الأمر. عند ذاك تكرر غير مرة: «ارفعوا الطواقي ستتم قراءة المصادقة على الحكم» – صدر الأمر إلى الجندي الواقف وراءهم أن يسحب الطواقي ممن رفض خلعها. شعرنا جميعنا بالبرد. ورغم أن الطواقي عندنا ربيعية إلا أنها كانت تغطي الوجه. بعد ذلك صار الموظف المأمور في سترته الرسمية يقرأ نص الاتهام بصدد كل واحد على حدة وهو يقف في مواجهة كل واحد منا. كان من المستحيل التقاط كل

ما قرئ إذ قرأ بسرعة وبصورة غير مفهومة ناهيك أننا كنا جميعنا نرتجف من البرد...

استمرت القراءة نصف ساعة وشعرنا بقشعريرة البرد الفظيع. لبست الطاقية وتدثرت بالمعطف البارد إلا أنهم سرعان ما لاحظوا ذلك وانتزع الجندي الواقف خلفي الطاقية انتزاعاً. وحسب نص الاتهام فهو اختتم بالكلمات التالية: « حكمت المحكمة الجنائية الميدانية على الجميع بالإعدام رمياً بالرصاص» وفي التاسع عشر من كانون الأول أمر الامبراطور بالتوقيع باليد: «مع المصادقة».

وقفنا جميعنا مدهوشين ونزل المأمور من منصة الإعدام ثم أعطونا الميدعة الواسعة البيضاء والقلنسوة والكفن. والجنود الواقفون وراءهم ألبسونا. وعندما أصبحنا كلنا في الأكفان قال أحدنا: «أية حلة هذه!».

دخل الخوري إلى منصة الإعدام – وهو نفسه الذي ساقنا مع الإنجيل والصليب وكرسي عالٍ بسقف منحدر وتوجه إلينا بما يلي: «إخوتي! تجب التوبة قبيل الموت. فالمنقذ المخلص يغفر للتائبين... أدعو الجميع إلى الاعتراف...».

لم يستجب أحد لدعوة الخوري – وقفنا صامتين ونظر الخوري إلى الجميع وكرر دعوته إلى الاعتراف. عند ذاك اقترب واحد إليه هو تيموفسكي وهمس شيئاً له وقبّل الإنجيل وعاد إلى مكانه. لاحظ الخوري أنه لا أحد غيره يرغب بالاعتراف فاقترب من بتراشيفسكي بعدة كلمات.

ماقاله له ظل مجهولاً، ولم يسمع كلمات پتراشيفسكي إلا الخوري وقلة قليلة جداً من الواقفين بقربه بل ربما حتى جاره وحده سبيشنيف. لم يرد الخوري بشئ إلا أنه قرب الصليب من ثغره وقبَّل پتراشيفسكي الصليب. بعد ذلك مر على الجميع والصليب في يده. وبعد أن أنهى الخوري مهمته وقف في وسطنا كما لو كان في لحظة التأمل. وقتذاك دوى صوت الجنرال الجالس على حصانه بجانب منصة الإعدام: «يا أبت! أنجزتم كل شئ ولم تعد حاجة لوجودكم هنا!...».

غادر الخوري المكان ودخل عدة جنود نحو پتراشيفسكي ومومبيلي وسبيشنيف فأخذوهم من أيديهم وأبعدوهم عن منصة الإعدام نحو الأعمدة الرمادية وصاروا يربطون كل واحد منا بعمود منفرد بالحبال. الأحاديث هنا لم تكن مسموعة. المدانون لم يبدوا مقاومة. مدوا أيديهم إلى وراء الأعمدة ثم ربطوا الحبال بالحزام. ثم أعطي الأمر: «القلنسوات على العيون» بعد ذلك إنزال القلنسوات على الوجوه. واستعدت مجموعة من الجنود حوالي الستة عشر شخصاً واقفة عند المنصة نفسها وبأمر من فوق وجهوا سلاحهم نحو الهدف على پتراشيفسكي وسبيشنيف ومومبيلي... كانت هذه اللحظة فظيعة حقاً وأنت ترى الاستعداد للموت رمياً بالرصاص، أشخاصاً مقربين بعلاقات رفاقية، وأنت ترى السبطانات وننتظر – سينسكب الدم ويقعون أرضاً بلا حراك. نعم كانت لحظة مخيفة ومقززة ومرعبة... جمد القلب الذي ينتظر واستمرت هذه اللحظة المرعبة نصف

دقيقة. لم تكن هناك أية فكرة أن ما ينتظرني هو نفسه. تنامت حالتي المضطربة أكثر فأكثر عندما سمعت طبول الحرب التي لم أفهمها. إنها كل شئ! أخذوا يفكون پتراشيفسكي وشبيشنيف ومومبيلي ونقلوهم ثانية إلى الأماكن السابقة على منصة الإعدام. قدم ضابط من ضباط حاشية القيصر ومعه ورق تم تسليمها للقراءة فوراً وفيها إهداء الإمبراطور بتبديل حكم الإعدام بعقوبة أخرى كل حسب ذنبه...

ونتيجة لقراءة هذه الورقة رفعوا عنا الأكفان والقلنسوات. ومن ثم دخل أشخاص إلى منصة الإعدام من نوع الجلادين في أردية رجالية طويلة، قديمة وملونة. هم اثنان كسّرا السيوف فوق رؤوس المنفيين الجالسين على ركبهم (إلى سيبيريا). بعد ذلك أعطوا لكل معتقل طاقية وفروة صوف الضأن ومعطفاً من فروة الضأن وجزمات. ارتدينا المعاطف، قبل كل شئ، اتقاء من البرد القارس... أخذوا پتراشيفسكي إلى وسط المنصة ووضع حدادين على رجليه طوقين حديدين وثبتاهما بمسامير. في البداية وقف پتراشيفسكي هادئاً، بعد ذلك التقط شاكوشاً من يد أحدهما وجلس على الأرض وصار يسمّر الأصفاد بنفسه على نفسه. من الذي حرضه على وضع الأصفاد بيديه وما هو التعبير الذي أراد الإفصاح عنه فهذا صعب علينا كنهه أما نحن فكنّا، في هذه اللحظات، في حالة من الحماسة المفرطة.

اقتربت من منصة الإعدام عربة مسقوفة – ترويكا للمراسلة وفيها ساع حربي ودركي واقتُرِح على پتراشيفسكي أن يجلس فيها إلا أنه ألقى نظرة وقال: «إنني لم أُنهِ مهمتي بعد!»

فسأله الجنرال بشئ من التعجب بعد أن اقترب من المنصة نفسها:

– ما هي مهمتكم؟

– أجاب پتراشيفسكي: أريد توديع رفاقي!

– كان الرد الكريم: يمكنكم أن تؤدوها.

وللمرة الأولى يخطو پتراشيفسكي خطوة وهو مكبل بالأصفاد وبالكاد تحركت رجلاه بسبب عدم الاعتياد. اقترب من سبيشنيف وقال له عدة كلمات وعانقه، بعده اقترب من مومبيلي وودعه وقبّله بعد أن قال شيئاً ما. ثم اقترب بالترتيب حسبما كنا واقفين، من كل واحد منا فقبّله وعند التوديع كان يصمت أو ينطق بشئ ما.

بعد توديع الجميع انحنى، مرة أخرى، أمام الجميع وبصعوبة نقل رجليه ونزل على الدرج وجلس في الترويكا وجلس بجانبه الضابط الساعي مع الحوذي والعسكري مع سيفه والمسدس عند الحزام. انطلقت الترويكا من محيط الناس المتجمهرين وتحولت إلى طريق موسكو واختفت عن العيون...

كان الانطباع الذي تركه فينا جميعنا في هذه الساعات إجراء طقس الإعدام ومن ثم إبداله بحالات نفي مختلفة، كان متبايناً مثلما هي طباعنا

متباينة. فالأخ الكبير ديبو وقف في حالة من الانقباض العميق ولم يتكلم مع أحد بينما ايپوليت ديبو عندما اقترب منه قال: «من الأفضل كان الرمي بالرصاص!».

كنت مع ذلك سعيداً لأن السجن ولى وأنهم نفوني للأشغال الشاقة ولن أعيش وحيداً بل في جمع من البشر وهم مثلي منهوكون وتعساء يتلاءمون مع حالتي الروحية.

عبر رفاق آخرون على منصة الإعدام عن نظراتهم أيضاً ولكن لم تكن هناك إطلاقاً أية دموع في عيون أحد باستثناء واحد منا كان يقف الأخير من حيث ذنبه وقد نجا من أي عقاب. وأقصد بذلك پالم الذي وقف بجانب الدرج وهو ينظر إلينا جميعنا والدموع تسيل بغزارة من مقلتيه. وقد قال للرفاق الذين كانوا يقتربون منه: «ليحفظكم الرب!».

أخذت العربات تقترب ونحن مشدوهون بسبب كل ما يحدث ودون أن نودع بعضنا بعضاً جلسنا ورحلنا فرداً فرداً. في هذا الوقت صرخ أحدنا: أعطونا عربة! جلست في عربة زجاجها مقفل وأحاط رجال الدرك الخيالة بسيوفهم سفرتنا السريعة في طريق العودة في موكب سريع.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة له إلى الشقيق ميخائيل بتاريخ 22 كانون الأول 1849:

يا أخي، يا صديقي اللطيف العزيز! كل شئ تقرّر! صدر الحكم عليّ 4 سنوات من الأشغال في القلعة (اورنبورغ حسبما أظن) بعدها أتحول إلى عسكري عادي. اليوم 22 كانون الأول نقلوني إلى ساحة سيميونوف. هناك قرؤوا علينا جميعنا حكم الإعدام وطلبوا منا أن نلثم الصليب وأحنوا السيوف فوق رؤوسنا وأعدوا مستلزمات الإعدام (قمصان بيضاء). ومن ثم وضعوا ثلاثة منا نحو العمود لتنفيذ الإعدام. كنت السادس.

صاروا يستدعوننا ثلاثة ثلاثة، وعليه كنت في الدور الثاني وبقي لي للعيش ليس أكثر من دقيقة. تذكرتك أنت يا أخي وجميع الأهل. في اللحظة الأخيرة أنت، أنت وحدك كنت في ذهني، وهنا فقط أدركت ما أقوى حبي لك يا أخي المحب! تيسر لي أن أعانق بليشيف ودروروف الذين كانا بجانبي وأودعهما. وأخيراً دق جرس العود وقد نقلوا المربوطين بالعمود إلى الوراء وقرأوا علينا أن عظمة الامبراطور يهبنا الحياة ثم تتالت الأحكام الحالية. پالم وحده نال العفو واحتفظ برتبته في الجيش.

قالوا لي الآن يا أخي الكريم أنه علينا التوجه اليوم أو غداً في مسير. رجوت أن ألتقي بك إلا أنهم قالوا أن هذا مستحيل. يمكنني فقط أن أكتب إليك هذه الرسالة التي أرجو أن ترد عليها بالسرعة الممكنة. أخشى أن تكون على علم بالحكم الصادر بحقنا (بالموت). من نوافذ العربة عندما

نقلونا إلى ساحة سيميونوف رأيت الهاوية التي يعيش فيها الناس. ربما مر الخبر إليك أيضاً وأنت تألمت لأجلي. وضعك سيكون أخف وطأة بصددي. يا أخي! أنا لم أكتئب ولم تخر عزيمتي. الحياة هي الحياة في كل مكان، الحياة فينا، في نفوسنا وليست في الخارج. وأنا شخص بين البشر وسأبقى كذلك إلى الأبد مهما كانت التعاسات فهي لن تكربني ولن تهني. ولجت هذه الفكرة في كياني. نعم في الحقيقة، لقد اقتطع ذاك الرأس الذي أبدع والذي عاش سمو الفن والذي أدرك واستأنس بمتطلبات الروح الرفيعة، اقتطع عن كتفيّ. بقيت الذاكرة والشخصيات المبدعة وغير المجسدة بعد من قبلي. في الحقيقة بقي عندي القلب وذاك اللحم والدم الذي يمكنه أيضاً أن يحب ويتألم ويرغب ويتذكر وهذه هي الحياة!

ألكسندر ميوليوكوف:

نقلوا المدانين من القلعة إلى المنفى على دفعات بمعدل شخص أو ثلاثة في الدفعة الواحدة. إذا لم أكن مخطئاً في اليوم الثالث بعد العقاب الجسماني في ساحة سيميونوف قدم إلي ميخائيل دوستويفسكي وقال لي سيرسلون أخي في ذاك المساء وهو ذاهب لتوديعه. وأنا، كان بودي، أن أودع من لن أراه لفترة طويلة، وربما لن أراه أبداً. ذهبنا إلى القلعة، إلى الرائد الميداني الذي نعرفه وأملنا، من خلاله، نيل الإذن باللقاء. إنه إنسان محب للخير على أرفع مستوى. وقد أكد أنهم بالفعل سيرسلون

دوستويفسكي ودوروف، هذا المساء، إلى اومسك إلا أنه يستحيل اللقاء مع المرتحلين عدا الأهل المقربين، بدون إذن من القومندان. وسمح لي القومندان أن ألتقي بدوستويفسكي ودوروف.

رافقونا إلى غرفة كبيرة في الطابق السفلي من بناء القومندانتية. صرنا في ظلمة الليل وهي كانت مضاءة بمصباح واحد. انتظرنا فترة طويلة. وينفتح الباب ودخل فيودور دوستويفسكي وس. دوروف يرافقهما ضابط. صافحنا بعضنا بعضاً بحرارة. ورغم الاعتقال لثمانية أشهر في الزنزانات فهما لم يتغيرا تقريباً. الهدوء الجدي ذاته على وجه أحدهما والابتسامة البشوشة على وجه الآخر. جلس ضابط القلعة، بتواضع، على كرسي قريب من المدخل دون أن يضايقنا إطلاقاً. فيودور دوستويفسكي أفصح، قبل كل شئ عن سروره بشقيقه وأنه لم يعان سوية مع الآخرين وسأله عن الأسرة والأطفال بروح من الرعاية الدافئة وولج أصغر التفاصيل عن صحتهم وأشغالهم. وعلى أسئلتي عن تأمين المستلزمات في القلعة ردّ دوستويفسكي ودوروف بحرارة خاصة بصدد القومندان الذي كان يعتني بهما دوماً ويخفف الأمور بقدر استطاعته. ولم يعبّرا عن أية شكوى بصدد المحكمة أو قسوة الحكم. وإن آفاق حياة الأشغال الشاقة لم ترعبهما، وبالطبع لم يتكهنا في ذاك الوقت بمدى تأثيرها اللاحق على صحتهما...

وفي النظر إلى توديع الأخوين دوستويفسكي بإمكان أي شخص أن يلاحظ أن الذي يتألم ويعاني أكثر هو الذي بقى طليقاً في بطرسبورغ وليس

ذاك الذي ينبغي عليه أن يرحل إلى سيبيريا للعمل في الأشغال الشاقة. وترقرقت الدموع في عيني الشقيق الأكبر وارتجفت شفتاه بينما كان فيودور هادئاً يواسيه.

– قال هو: توقف يا أخي. فأنت تعرف أنك لا تشيعني إلى القبر، وفي موقع الأشغال الشاقة لا توجد وحوش بل بشر وربما يكونون أكثر جدارة مني... سنلتقي ثانية وآمل ذلك بل حتى لا أشك في ذلك، بأننا سنلتقي... اكتب لي، وإذا عشت ابعث لي بالكتب وسأكتب لك أية كتب لأنه سيكون بالإمكان القراءة، وبعد الخروج من الأشغال الشاقة – سأبدأ الكتابة. في هذه الشهور عانيت الشئ الكثير وسوف أكتب لك عما سأراه هناك.

استمر لقاؤنا أكثر من نصف ساعة إلا أنه تبين لنا أنه قصير للغاية رغم أننا تحادثنا مطولاً. كان من المحزن أن تدق أجراس ساعات القلعة حيث الرائد الميداني وقال أنه آن أوان التوديع. وللمرة الأخيرة تعانقنا وتصافحنا... ساقوهما عبر الفناء الخارجي برفقة ضابط وعسكريين من الحرس. تباطأنا لفترة من الوقت في القلعة ثم خرجنا وتوقفنا عند تلك البوابات التي كانت يجب أن ينطلق منها المدانون. لم يكن الليل بارداً وكان مضيئاً. كانت الساعة تدق التاسعة على ساعة أجراس القلعة عندما انطلقت عربتان في كل منها معتقل مع دركي.

– صرخنا: الوداع.

– أجابا: إلى اللقاء! إلى اللقاء!

telegram @t_pdf مكتبة

في سجن اومسك

بيوتر كوزميتش مارتيانوف (**1827 – 1899**) كاتب وشاعر – هزلي فكاهي:

بدا مشهد البتراشيفيين الرائعين حزيناً للغاية. فهم في لباس المعتقلين العام المكون من قطعة رمادية بقسمين وكنزة سوداء مع حقيبة ظهر صفراء وسدارة، وفي الصيف معطف قصير من فرو الضأن بقفافيز وأغطية تقي الأذن، وفي الشتاء مصفدين بالأغلال التي تصدر صوتاً راعداً في كل حركة. إنهم، في مظهرهم الخارجي لا يتميزون عن باقي المعتقلين – فقط بالمستوى التربوي والتعليمي. هذا المستوى أفرزهم من بين جمهور المعتقلين. كان فيودور دوستويفسكي يتحلى بمظهر العامل المتين القصير القامة العريض المنكبين الذي تم تقويمه بفضل الانضباط العسكري. ولكن الوعي بقدره الثقيل الذي لا يعالج جعله كما لو كان قد تحجر. كان أخرقاً نادر الحركة وصموتاً. ولم ينتعش وجهه الشاحب الترابي والمرقش بلطخات حمراء غامقة، بأية ابتسامة أما فمه فينفتح فقط للردود المقتضبة والقصيرة حول الموضوع ذات العلاقة. كان يميل الطاقية على الجبين حتى الحاجبين وله نظرة متجهمة ومركزة وسمجة. كان يميل برأسه إلى الأمام ويخفض العينين إلى الأرض. الأشغال الشاقة لم تكن تحبه إلا أنها اعترفت بهيبته الأخلاقية وليس بلا كراهية للتفوق. كانت الأشغال الشاقة تنظر إليه

وتتنحى جانباً. وهو برؤيته لهذا التنحي كان هو نفسه يتنحى عن الجميع فقط باستثناء حالات نادرة عندما كان يشعر بالإرهاق أو بالحزن الذي لا يحتمل فكان يدق أبواب الحديث مع بعض المعتقلين.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة له إلى شقيقه ميخائيل بتاريخ **30** كانون الثاني – **22** شباط **1854**:

تعرفت إلى المشمولين بالأشغال الشاقة حتى في توبولسك وهنا، في أومسك، لزم الأمر كي أعيش معهم أربع سنوات. هذه الزمرة من الناس فظة غليظة القلب ضجرة ومهيجة وحقودة. وكراهيتهم للنبلاء تفوق كل الحدود لذا استقبلونا (نحن النبلاء) بعداوة وبسعادة حانقة عن مأساتنا. فهم كما لو كانوا يريدون التهامنا فيما لو تيسرت لهم الفرصة. ألم يكن الدفاع هائلاً عندما لزم الأمر العيش والشرب والأكل والنوم مع هؤلاء البشر عدة سنوات وحيث لا وقت إطلاقاً للتشكي من الإهانات العديدة والممكنة. وكان الموضوع الذي هاج وماج أربع سنوات هو التالي: «أنتم النبلاء، أصحاب الأنوف الحديدية قضيتم علينا نقرأ...» هم دائماً كانوا يعون أننا أسمى منهم. فهم لم يملكوا أي إدراك لجريمتنا. ونحن أنفسنا صمتنا عن ذلك لذا لم نفهم بعضنا بعضاً بحيث اضطررنا لتحمل كل الثأر والاضطهاد الذي يعيشونه ويتنفسونه تجاه فئة النبلاء. وقد لزم الأمر أن نحيا بصورة رديئة. فالأشغال الشاقة العسكرية أسوأ من المدنية. أمضيت أربع سنوات في

السجن بلا أمل وراء الجدران ولم نخرج إلا إلى العمل الشاق. كان يحدث أن تخور قواي لاسيما في الجو الملبد بالغيوم وفي النخامة وفي الوحل وفي الزمهرير الذي يستحيل احتماله. وأصابتني القشعريرة. عشنا سوية في ثكنة واحدة. تصور بناءً خشبياً متداعياً بحيث ينبغي هدمه منذ زمن بعيد. وفي الصيف انحباس في الهواء لا يحتمل، وفي الشتاء برد لا يحتمل. جميع الحقول تآكلت وتعفنت. ترتفع أوساخ الأرض إلى 5 سم إذ يمكن الانزلاق والسقوط. النوافذ الصغيرة مغطاة بالصقيع بحيث أنه تستحيل القراءة طوال النهار. ويتجمع الجليد / 5/ سم على الزجاج. وشرشرة من الأسقف من جراء ذوبان الثلوج. يوقدون المواقد ولكن ينعدم الدفء وبالكاد يذوب الجليد في الغرفة. غاز الفحم لا يحتمل. هذه هي الحال طوال الشتاء. وهنا في الثكنة يغسل المعتقلون ألبستهم الداخلية وتحدث طرطشة الماء في جميع أرجاء الثكنة. لا مكان للحركة ويستحيل الخروج من الثكنة لقضاء بعض الحاجات من الغسق حتى الفجر لأن الثكنات تقفل ولهذا السبب يحدث انحباس الهواء. وتخرج النتانة من المحكومين بالأشغال الشاقة مثل الخنازير. كنا ننام مستخدمين وسادة واحدة. والأغطية معاطف شتوية قصيرة والأرجل دوماً عارية طوال الليل. نرتجف ليلاً من البرد القارس. البراغيث والقمل والصراصير. في الشتاء نرتدي معاطف الفرو وهي لا تدفئ والجزمات في الأرجل. كانوا يقدمون لنا للأكل حساء الكرنب والخبز، وفي الحساء قطعة لحم بقر للشخص

الواحد. وفي أيام الأعياد يقدمون العصيدة (الثريد) بدون زيت، وفي أيام الصوم الملفوف مع الماء وتقريباً لاشئ آخر. لقد مرضت غير مرة وصارت معدتي تؤلمني. تصور لو كان العيش بلا نقود لكنت قد رحلت عن الدنيا ولا يوجد معتقل واحد يستطيع تحمل الحياة دون نقود. ولكن كل واحد يعمل شيئاً ما، يبيع ويمتلك كوبيكاً ، كنت أشرب الشاي وآكل قطعة لحم البقر التي تخصني وهذا كان ينقذني. وكان يستحيل، أيضاً، عدم التدخين لأنه كان من الممكن الاختناق في مثل هذا الاحتباس. وكل هذا يجري خلسة. غالباً ما كنت أذوي مريضاً في المستشفى العسكري. وبسبب التشوش العصبي كنت أصاب بالصرع إلا أن حدوثه كان نادراً ولا زلت أعاني من الروماتيزم في رجليّ. عدا هذا أشعر أنني سليم معافى.

إضافة إلى كل هذه المعوقات كان من المستحيل تقريباً الحصول على كتاب وما تحصل عليه فإنك تقرؤه خلسة إذ تحيط بك العداوات الدائمة وحالات الخصام والشتائم والصراخ والضجيج والغوغاء ودوماً الحرس واستمرت هذه الحال طوال السنوات الأربع دون تبديل. خطر إلقاء المسؤولية جاهز دوماً والأصفاد والتضييق الكامل على النفوس. لن أروي لك ما حدث لروحي ومعتقداتي وعقلي وقلبي في هذه السنوات الأربع فهذا حديثه طويل.

شيمون توركارجيفسكي 1824 – 1899 مشارك في الحركة الثورية البولونية:

كان العمل بوجود «الرخام الشفاف» هو الأفضل والأسهل من عداد تلك الأعمال التي خصصوها لنا في قلعة اومسك ويسمى عمل « العمال البسطاء» أي الذين لا يعرفون أية مهنة.

كان الرخام الشفاف «أليباستر» موجوداً تحت إشراف المهندسين الذين كانوا متعلمين ومهذبين وهم متعاطفون مع المحكومين السياسيين بالأشغال الشاقة، ويكرمونهم إلى حد معين.

لذا كانوا يخصصون لنا نحن البولونيين وللكاتب الروسي فيودور دوستويفسكي العمل في «أليباستر» على الدوام.

ففي التخشيبة المبنية لهذا الغرض على ضفة نهر ايرتيش إشراف المعلم الماهر في هذه الورشة أندريه ألمازوف. كان هناك شغل كثير عند إضرام الموقد ووضع الأليباستر المحروق فيه. وفي ظل تقسيم العمل كنا نعمل بصمت. يوضع الأليباستر المحمّى أكثر من اللزوم في علب. وكل واحد يأخذ علبته ومطرقة ونستأنف حديثنا عند تكسير الكتل الأليباسترية الصغيرة الجديدة.

كان الحديث بيننا وبين فيودر دوستويفسكي له أساس سياسي ويبدأ بلهجة مسالمة ومع تبادل الآراء سرعان ما كان ينتقل إلى الجدل الحاد والنقاش الساخن بصدد مسائل أخرى.

كانت الكلمات تطير بسرعة من الأفواه وبمرافقة ضرباتنا الحامية النشيطة بالمطرقة التي تسبّب تطاير الغبار في الهواء والذي يملأ التخشيبة بمليارات الشرارات البيضاء الساطعة وكما لو كانت حية.

في مثل هذا الجدل السريع الغضب والانفعال والمثير للأعصاب وللدم كنا ندق بالمطارق بتلك الحجوم حتى أن المشرف عليها الطيب أندريه ألمازوف صرخ: «أخف، يا شباب! أخف!» وغالباً ما كان يقترح علينا فترات راحة قبل الوقت المحدد.

عند ذاك كنا نأخذ المطارق ونستريح من الجدالات وفي الشتاء والصيف نخرج من التخشيبة إلى الهواء الصافي والهدوء الصحراوي الذي انعكس، بصورة مثمرة، على أعصابنا بعد الهرج والمرج المتواصل والصراخ.

وعلى ضفة ايرتيش المقابلة تمتد مساحات تفوق الألفي كيلو متر حيث السهب الكئيب ويضفي على تنوعه وجود كثرة من أماكن سكن القبائل الرحل، وخاصة القيرغيز. يا لها من فساحة من الأرجاء بعد المعتقل الضيق والخانق.

انجذبت قلوبنا إلى الحرية والحركة والحياة عندما تابعنا بعيوننا الحزينة التحليق الحر في هواء نسور السهب... ويصرخ ألمازوف: تعالوا إلى الغداء... لن يقدروا على العيش بحرية والآن تضجرون! يا لكم من مجانين!...

كان دوستويفسكي من محبي الحيوانات وهو الحزين المفعوم بالمصير التراجيدي لكولتباكا كان أول من اكتشف وجود ضيف من نوع الكلاب وصار يتوجه إليه بمودة.

اقترب القلب بثقة. كان نحيلاً للغاية وعظامه تهتز من خلال صوف مبلل ومشاكس بلون غير واضح. من الجلي الواضح أنه منهك وجائع لأنه كان يسحب رجليه بجهدٍ جهيد.

بدأ دوستويفسكي يلاطفه حتى اقترب من ركبتيه وبدأ يزعق من شدة الفرح. كالعادة كان معنا دوماً احتياطياً من الخبز لأننا لم نكن نعود إلى السجن، إلى الغذاء في أيام الخريف والشتاء القصيرة. وبناء عليه كان عندنا ما نطعم به صديقنا ذا الأربعة أرجل. وأشربه دوستويفسكي من كسارة، بعد ذلك حفر الكلب في حزمة من التبن والقش كي يبيت فيها. وسمح أندريه ألمازوف بذلك...

من كلمات آ.ك. روجنوفسكي، سياسي بولوني محكوم بالأشغال الشاقة باسم آ. يوجنوف:

بدأ روجنوفسكي كلامه: «الفقيد» تجهلونه ولكن إذا ذكرت لكم اسم ذاك الذي أسميه حسب الذاكرة القديمة «الفقيد» فإنكم، على الأرجح، لن تقولوا «لا أعرف». كانوا يسمون دوستويفسكي «الفقيد» في الأشغال الشاقة. كان هذا منذ زمن بعيد. كنّا سوية هناك. على فكرة أنا قدمت قبله

إلى هناك. يبدو أنه بعد سنة أو سنتين بعدي أحضروه إلى هذا المكان. أنا لست من الثائرين – لقد قدموا بعدي. عندما وصل دوستويفسكي لم يعجب « الڤاتاكا» من أول مرة. للأشغال الشاقة قوانينها والمحكومون بالأشغال الشاقة يتقيدون بصرامة بالتنفيذ الدقيق لها. وهو من غير ذلك فإنهم هم أنفسهم يذبحونه. قانون لينتش كان معمول به. بالنسبة إلى النساء كان الوضع صارماً وجميع المحكومين كانوا يدافعون بحماس في هذه القضية. فكل واحد منا كان بالدور يتناوب في الأمسيات عندما كانت الغسالات يعدن من المغسل بينما كان دوستويفسكي يرفض المناوبة عندما كان الدور يصل إليه. في مرة أخرى حصل على ورقة تبغ مفروم من الجندي. وحسب قواعد ذاك الوقت إذا حصلت على تبغ فإنك تأخذ نصفه لنفسك والصف الآخر يكون من نصيب من تقع عليه القرعة.

كان دوستويفسكي يتخلى عن حصته ولم يرغب بإلقاء القرعة بل يوزعها بين اثنين مصابين بداء الاسقريوط لذا وبخه « كبارنا» قائلين له: « قدمت إلى هنا لإدراج نظم جديدة وهل أردت أن تهلك نفسك بنفسك ولكن ما أنقذ دوستويفسكي إلا ظرف واحد. ذات مرة سقطت في طعام أحد المحكومين كتلة أو كومة. فتحوها فرأوا خرقة فيها عظام وقاذورات. ربما حدث هذا عن غير قصد وربما عن قصد. من سقطت هذه الكتلة في طعامه أراد أن يرمي بالطعام ويمسك عن الجواب فقال دوستويفسكي: يجب رفع الشكوى وإذا كنت تخاف اعطني الكتلة وأنا سأشتكي. أردنا

تحذيره من تقديم الشكوى ومنعه «الكبار». بعد ذلك يخرج دوستويفسكي مع الخرقة. انقض الرائد الميداني والمشرف على الاحتياطات الغذائية عليه» أنت تعمدت أن تخلق هذه الحادثة كي تثير تمرداً. ايه، من رأى أن هذه الخرقة كانت في فنجانه اصمت المعتقلون و«الكبار» يخافون.

– إلى مبنى الحرس العسكري (التعذيب الجسماني)! خمسون!

ساقوا دوستويفسكي. مكث، فيما بعد، أسبوعين في المستشفى ثم أخرجوه – شفي. هذه الحادثة أنقذته من الهلاك. وهو تألم نيابة عن القاتاكا.

مضى عام واحد على هذه الحادثة.

عملت معه في حزب واحد. أعجبني طبعه الهادئ فهو لن يمس أحداً بإصبعه مثلما يفعل الآخرون رغم أنهم، أيضاً من المميزين. كان الضمير يعذبني لماذا لم أؤكد على كلماته أمام الرائد الميداني. أصيب دوستويفسكي بعد العقاب الجسدي بمرض طوال حياته.

يحدث أحياناً أن يبدأ الضرب على أرضية خشبية للنوم فنحن نربطه بالسترات ويهدأ.

ذات مرة ذهبنا لتكسير سفينة شحن غير ذاتية الحركة وأخذنا درساً ثلاثتنا. كان الثالث جندياً كنيته غولوڤاتشيف. كان هذا الجندي قد وجه لكمة إلى رئيس السرية. بدأنا العمل. الطقس حسن ونفوسنا مرة أكثر من العادية وجرى العمل بسرعة. وما أن أنهينا الدرس حتى سقطت المطرقة مني

سهواً في الماء. ما العمل – ينبغي استرجاعها بأي شكل من الأشكال. الحرس يطلب أن تكون المطرقة موجودة وإلا يهددون البندقية. خلعت السترة والبنطلون وربطت نفسي بحبل وبدأت أنزل. كل شئ كان يمكنه أن يكون جيداً ولكن لسوء الحظ كان الرائد الميداني يجول على العمل ورأى أن دوستويفسكي وغولوڤاتشيف يمسكانني في الماء ويسأل:

– ماذا يجري هنا؟

الحراس يجيبون.

– صرخ على غولوڤاتشيف ودوستويفسكي: لا تعيقوا العمل. فهو نفسه يعرف. ارميا الحبل. هما لا يصغيان. تطاير الشرر من الرائد الميداني وظهر الزبد على شفتيه. كان وحشاً ولم يكن بشرياً.

– إلى مبنى الحرس العسكري بعد العمل!

جلس في عربة ركوب خفيفة وغادر.

استرجعت المطرقة وخرجت من الماء. كان إنهاء العمل شيئاً مريعاً ولكن ينبغي إنهاؤه وليس إضافة شئ عليه.

عدنا في المساء إلى مكاننا.

ظننت أنهم سيأخذونني أنا أيضاً إلى مبنى الحرس العسكري. كلا، لقد سحبا فقط دوستويفسكي وغولوڤاتشيف. لا أعلم كيف عاقبوهما. ولكن تسربت الأنباء إلى اليوم التالي أن دوستويفسكي فارق الحياة. صدقت هذا الخبر لأنني أعلم أنه لم يعتد على مثل هذا التعذيب ناهيك أنه مريض.

ظلت الإشاعة قوية وكنا واثقين من وفاته ولكن لا نعرف الحقيقة كاملة إذ لم يخرج من المستشفى أي شخص في ذاك الوقت.

مضى شهر ونصف الشهر على هذا العقاب الجسدي وبدأ الكثيرون ينسون دوستويفسكي وأنا وحدي لم أستطع إطلاقاً نسيانه فهو كما لو كان يقف أمام عينيّ.

ذات مرة في العمل كنا نكسر الأحجار. كان الوقت متأخراً بحيث كانت الظلمة في بدايتها عندما قدمت. اقتربت من الأرضية الخشبية الخاصة للنوم وأنظر فأرى شخصاً جالساً. ظننت أنه جديد علينا ولم أعره اهتماماً خاصاً. فجأة أسمع صوتاً أعرفه:

– مرحباً يا روجنوفسكي!

أتفحصه بإمعان... دوستويفسكي.

لا أستطيع أن أنقل إليكم كم ارتعبت في هذه اللحظة. بدا لي أن هذا الشبح من عالم آخر. وهكذا تيبست في مكاني.

– لماذا تنظر هكذا؟ ألم تعرفني؟

يمد يده.

– دوستويفسكي! هل أنت حي؟ هذا ما استطعت قوله: ضحك ودموع – كل شئ اختلط في الحنجرة وأنا تعلقت به من رقبته.

بعد ذلك اتضح كل شئ. إلى جانب سرير دوستويفسكي في المستشفى العسكري كان يتمدد مريض مصاب بالحمى. وقد توفي في اليوم التالي من

دخول دوستويفسكي إلى المستشفى العسكري. وسجل الطبيب المساعد (التمرجي) أن دوستويفسكي هو الذي فارق الحياة عن طريق الخطأ. وقد توضح كل شئ بعد أن شفي دوستويفسكي وخرج من المستشفى العسكري. بعد هذه الحادثة منحوا دوستويفسكي لقب «الفقيد». ولم يعد أحد يناديه باسم الكنية إطلاقاً.

– تابع روجنوفسكي: أذكر حادثة أخرى.

كان عند الرائد الميداني مربية شابة. جرت شائعة قوية أنه يغازلها وهي، كما يقال، تسيطر عليه. كان المعتقلون يسمونها نيوتكا ويخافون منها مثل النار: كانت حية حقيقية ونداً لند مع الرائد الميداني. كانوا يروون عنها أنها عندما يسحبون المعتقلين إلى مبنى الحرس العسكري (مبنى التعذيب) كانت تقترب من المبنى وتسمع الصراخ. على فكرة، أنا لا أصدق هذا. كان عند نيوتكا حمامات منزلية جلبتها من روسيا وتعتني بها عناية فائقة. غالباً ما كانت هذه الحمامات تطير إلينا حيث الفناء الخارجي والكثيرون منا طمعوا بها إلا أن المراقبين كانوا يتابعون باهتمام كي لا يصطادها أحد منا. إحدى هذه الحمامات التصقت التصاقاً كبيراً بدوستويفسكي. وهو، بدوره، يطعمها الخبز. كانت تطير إليه كل يوم من أجل حصتها. ثار الحراس، في البداية، على هذا إلا أنهم لاحظوا أن دوستويفسكي لا يسئ للحمامة بشئ بدأوا يغضون الطرف. لزم الأمر ، ذات مرة، أن نشعل الأليباستر والطريق بجانب دار الرائد الميداني. العمل شاق لذا سمحوا لنا

بالدخول إلى القصر قبل المعتاد. نظرنا فرأينا نيوتكا تطعم الحمامات. خطرت في ذهن دوستويفسكي فكرة متهورة مفادها التصفير للحمامات فصعد السرب كله إلى الجو أما حمامة دوستويفسكي فيبدو أنها عرفته فطارت إلى القرب منه وكانت تدور حول رأسه. قفزت نيوتكا إلى الطريق وانقضت مباشرة على دوستويفسكي.

– أنت الذي تستدرج حماماتي يا لص! يا قاطع الطريق: قف ولسوف أريك!

في الحقيقة، لا أذكر رد دوستويفسكي عليها ولكن يبدو أنه قال بأنها أسوأ من حيوان لا ضمير له والذي أعرفه فقط هو أنه نطق بعبارة قوية وموحية وجمدت نيوتكا في مكانها.

ابتعدنا كثيراً عن دار الرائد الميداني وهي لاتزال واقفة ثم نظرت فإذا بها تغطي وجهها بيديها وتعود إلى الدار بهدوء.

كلنا توقعنا أن هذا الانفعال سيكلف دوستويفسكي غالياً بيد أن كل شئ سار على مايرام. وعرفنا بعد أسبوعين أن نيوتكا سافرت إلى روسيا سوية مع حماماتها ولكن الأكثر عجباً هو أن حمامة دوستويفسكي بقيت وظلت تطير إليه كل يوم كسابق عهدها. هل أبقتها نيوتكا عن قصد أم أنها هي نفسها طارت منها فهذا ما لم نستطع معرفته. بعد سفر نيوتكا صار الوضع في القصر أسوأ إذ كبحه كبار المسؤولين غير مرة. ولم يمض يوم إلا وكان يتم إرسال عدة أشخاص إلى مبنى الحرس العسكري (للتعذيب).

نيقولاي فون – فوخت:

لم يرو لنا دوستويفسكي إطلاقاً أي شئ عن وجوده في سيبيريا أو في الأشغال الشاقة. وهو، بشكل عام، لم يكن يحب التكلم عن هذا الموضوع. كلنا نعرف هذه النقطة بالطبع ولم يقدم أحد أبداً على إثارة الحديث حول ذلك. فقط، ذات مرة، تمكنت وأنا جالس عند دوستويفسكي نشرب شاي الصباح من أن أسمع منه عدة كلمات بصدد انجيل غير كبير كان موضوعاً على مكتب صغير. وقد أثار اهتمامي ذاك الظرف وهو أن أطراف المجلد الجلدي العتيق مقتطعة في هذا الانجيل. وعن سؤالي حول معنى هذه المقصوصات شرح لي دوستويفسكي. أنه عندما كان عليه أن يرحل إلى سيبيريا كان الأهل يباركونني وينصحونني قبيل الرحيل بهذا الكتاب الذي تختبئ في تجليده النقود. لم يكن يسمح للمعتقلين أن يحوزوا على نقود خاصة بهم لذا إن مثل هذه الفطنة لدى الأهل قد خففت، إلى حد ما، في الفترة الأولى، من الوضع القاسي في السجن السيبيري.

– قال دوستويفسكي بحزن: نعم، النقود – هي الحرية المسكوكة...

ولم يفترق دوستويفسكي طوال حياته عن هذا الانجيل وظل موضوعاً أمامه على المكتب.

في سيميپالاتينسك

ألكسندر فرانكل:

بعد الإفراج عنه من الأشغال الشاقة في ربيع عام 1854 تحول دوستويفسكي، كما هو معروف، إلى عسكري عادي، دون علاوة مدة الخدمة، في سيميپالاتينسك. في الفترة الأولى ولمدة قصيرة جداً عاش سوية مع الجنود في الثكنة ولكن سرعان ما سمحوا له وبرجاء من الجنرال ايڤانوف وغيره، بالعيش وحيداً بالقرب من الثكنة والمسؤول عنه قائد السرية ستيپانوف. عدا هذا وضعوه تحت مراقبة الرقيب الأول الذي كان مستعداً أن يغض الطرف لقاء «رشوة» زهيدة.

كانت الوحدة الكاملة صعبة بالنسبة إليه في الفترة الأولى... ولكن، تدريجياً، تعرف إلى بعض الضباط والموظفين رغم أنه كان بعيداً عن الصلة الوثيقة معهم. وبالطبع، إن وضعه الجديد، القاسي من الناحية المادية بعد المنفى والأشغال الشاقة بدا له بفضل الحرية النسبية، فردوساً ونعيماً وهو نفسه قال لي هذا الكلام...

تقع سيميپالاتينسك على الضفة العليا اليمنى من نهر ايرتيش. إنه نهر عريض غني بالأسماك عندما لم تكن هناك بعد السفن والشختورات.

في زمني كانت سيميپالاتينسك شبه مدينة، شبه قرية. جميع مبانيها خشبية مبنية من جذوع الشجر والقليل منها مغطاة بألواح خشبية. عدد

سكانها خمسة – ستة آلاف نسمة سوية مع الحامية والتجار الآسيويين والكوكانديين والبخاريين والطشقنديين والقازانيين. كان القيرغيز شبه المتحضرين يعيشون على الضفة اليسرى ومعظمهم في بيوت خاصة بهم هي في الحقيقة أشبه بالبيوت رغم أن بعض الأثرياء كانوا يملكون دوراً وأبنية صغيرة ولكن فقط لقضاء الشتاء (التشتاية) ويصل عددهم إلى الثلاثة آلاف.

توجد في المدينة كنيسة أرثوذكسية واحدة ومبنى حجري واحد وسبعة مساجد وحوش كبير للمقايضة والتبادل إلى حيث تأتي قوافل الإبل والخيول وحيث توجد الثكنات والمستشفى العسكري الحكومي والدوائر والمكاتب ومدرسة واحدة وصيدلية واحدة حكومية ومخزن واحد يحتوي على كل شئ من المسمار إلى العطور الباريسية ومستودع للأجواخ. لا وجود لأية مكتبة ولا يوجد قراء وهناك عشرة أشخاص – خمسة عشر شخصاً يتلقون الجرائد وهذا الأمر صعب أيضاً. فالبشر في ذاك الوقت كانوا في سيبيريا يهتمون فقط بورق اللعب والمنادمة وحفلات الشرب والنمائم والشؤون التجارية...

تنقسم سيميبالاتينسك إلى ثلاثة أجزاء تفصل ما بينها أرض رملية. إلى الشمال سلوبودكا القوقازية وهي المنطقة الأكثر راحة وجمالاً ونظافة في سيميبالاتينسك. وفيها الجنينة والحدائق ومباني القيادة العامة للفوج

والمدرسة الحربية والمستشفى. لم تكن هناك ثكنة للقوزاق إذ كانوا جميعهم يعيشون في بيوتهم وأراضيهم.

الجزء الجنوبي من المدينة أي سلوبودا التترية وهو الأكبر. البيوت خشبية بنوافذ مطلة على الحوش لأجل الزوجات والحريم. كانت الأسوار العالية تخفي عن عيون الفضوليين حياة المسلمين الداخلية. البيوت في كل مكان ولا شجرة واحدة – صحراء رملية صافية. بشكل عام لم يكن هناك في كل سيميپالاتينسك شارع مرصوف واحد إلا أن الأوساخ قليلة لأن الرمال السريعة الانهيار تمتص الماء بسرعة لذا كان المشي صعباً فالحر الشديد يصل إلى 30 درجة في الظل. وببساطة كان الحر يحرق الرجل في الرمل المشقوق.

كانت المدينة الروسية وسط سلوبودكا قسم منها لا يزال يسمى القلعة رغم أن القلعة صارت أثراً بعد عين. السدود انجرفت والخنادق امتلأت بالرمال ولم يبق للذكرى إلا البوابات الحجرية الكبيرة. فهنا كانت تعيش الحياة العسكرية مثل الكتيبة العسكرية ومدفعية خيالة القوزاق والرئاسة وغرفة الحجز والسجن – إدارتي. فلا قرية ولا شجيرات بل رمل سريع الانهيار وأشواك.

فيودور دوستويفسكي:

حالياً أخدم في العمل. أروح إلى التدريب وأتذكر القديم. صحتي جيدة، وفي هذين الشهرين تعافيت. هذا هو ما يعنيه الخروج من الضيق وانحباس الهواء والأسر القاسي. المناخ هنا صحي للغاية. فهنا بداية السهب القيرغيزي. المدينة كبيرة وكثيرة السكان. الآسيويون كثيرون. السهب مفتوح على الأرجاء. الصيف طويل وحار والشتاء أقصر مما هو في توبولسك واومسك إلا أنه قاسٍ. لا وجود للنباتات ولا للشجر – سهب نظيف. وعلى بعد عدة كيلومترات يوجد حرش يمتد عشرات بل ربما مئات الكيلومترات. هنا يكثر شجر الشوح والصنوبر والصفصاف ولا وجود لأشجار أخرى. طرائد الظلمة. يتاجرون باستقامة ولكن المواد الأوربية غالية لدرجة أنه لا مجال للوصول إليها. سأكتب لك في وقت ما عن سيميبالاتينسك بتفصيل أكثر. فهذا جدير بذلك.

بوريس غريغوريفيتش غيراسيموف (1872 – 1934)، اختصاصي في الأقاليم:

بدا دوستويفسكي، وهو يعيش في الثكنة، شاهداً إجبارياً على تلك التدابير الصارمة التي أدخلها الديسيبلين في الحياة العسكرية. وقد تميز وضع دوستويفسكي هذا بذاك الظرف وهو أن الكتيبة السابعة كانت مضطربة إذ كان فيها الكثيرون من المنفيين من قبل الملاكين ومن يسمون

الأجراء المرتزقة الذين يتم استئجارهم كي يؤدوا الخدمة العسكرية عوضاً عنهم.

عنصر مجازف لا مبال ولا يميل إلى تنفيذ قواعد النظام العسكري. كل هذا رفع من مستوى مزاج الثكنة. كانت موجودة دائماً عناصر الاستياء والضجر التي كانت يتم سحقها بلا شفقة ولا رحمة. وكان نمو الاضطهاد والتعسف يعتمد على درجة حقد الجنود وضغينتهم.

كان عمر الجندي متنوعاً ومتبايناً للغاية إذ كان هناك العجائز والشبيبة وعدد غير قليل من الكانتونيين (الكانتوني هو ابن الجندي الذي يسجل اسمه منذ ولادته في الإدارة العسكرية ويتم إعداده للخدمة العسكرية في مدرسة عسكرية دنيا – المترجم) ومن بينهم البرمياكي (كاتس) الذي صار جندياً وجاراً لدوستويفسكي على أرضية النوم الخشبية. أشفق دوستويفسكي على كاتس وحماه من كل إهانات الثكنة. وعند انتهاء الخدمة العسكرية استقر كاتس في سيميپالاتينسك لأجل الإقامة الدائمة واشتغل في مهنة الحياكة وكانت له داره ورحل عن الدنيا قبل اثنتي عشر سنة. قال لنا كاتس أنه انجذب نحو دوستويفسكي: شعرت بكل روحي أن دوستويفسكي المتجهم والعابس أبداً هو إنسان طيب يستحيل عدم إبداء الحب له. صار كاتس خياطاً وكسب غير كثير من النقود وكان يشعل السماور الذي كان يتحلق حوله مع دوستويفسكي في أوقات الفراغ. كان دوستويفسكي يرتاح وراء السماور. وكان الشاي إضافة ملحوظة إلى الطاولة العسكرية

المتواضعة. وغالباً ما ينهض دوستويفسكي من نومه ويذهب بنفسه لإحضار الحليب كي يضاف إلى الشاي كما يحدث أحياناً أن ينهض كاتس في الصباح الباكر وبرغبة قوية يضع السماور ويعد الحليب.

من كلمات ن.ف. كاتس الذي اشترك في الخدمة مع دوستويفسكي في سيميبالاتينسك:

حسب كلماته كان دوستويفسكي مخلصاً قلبياً ومستجيباً لكل ما هو طيب حيث كانت لديه قوة لا تقاوم لجذب كل جندي رغم طبعه المكفهر والكئيب. كانت الخدمة سهلة في الكتيبة وقتذاك. لم يكن هناك تدريب قاس، ونادراً ما كان دوستويفسكي يذهب إلى الخدمة في الحرس. كان طوال الوقت تقريباً يقرأ ويكتب لاسيما في الليالي...

كما الآن أرى أمامي فيودور دوستويفسكي متوسط الطول بصدر مسطح ووجه حليق ووجنتين بدا أنهما سقيمتان. العينان رماديتان. النظرة جدية ومتجهمة. نحن في الثكنة لم نره ولا مرة وعلى وجهه ابتسامة كاملة. يحدث أن يطلق أحد المرحين لأجل اللهو والسلوى، نكتة مسلية فيتدحرج جميع الحضور من الضحك بينما فيودور دوستويفسكي يضحك ضحكة خفيفة وغير ملحوظة تقريباً. كان صوته ناعماً وهادئاً ولطيفاً. يتكلم دون استعجال وبوضوح ودقة. لا يتحدث إلى أحد في الثكنة عن ماضيه.

وبشكل عام، كان نادر الكلام. ومن بين جميع الكتب كان يحتفظ فقط بالإنجيل الذي يأخذه معه، وعلى ما يبدو، كان عزيزاً عليه للغاية...

لم يرو دوستويفسكي لأحد في الثكنة عن القضية التي أدت به إلى سيبيريا ولا عن حياته بصورة عامة. كان رقيقاً تجاه زملائه في الخدمة ومستعداً دوماً لتقديم المساعدة قدر الإمكان. بعد سنة تقريباً نقلوا دوستويفسكي إلى رتبة ضابط صف وتغيرت نظرة الرئاسة إليه إذ سمحوا له بالعيش في شقة خاصة وكان معفى تقريباً من أية خدمة. وعندما يريدونه لسبب ما في الثكنة كانوا يبعثون إليه المراسل. وكان دوستويفسكي دوماً يعطي النقود للمراسل بحيث أن الجنود كانوا يحبون إرسالهم إليه.

تركت أثراً كبيراً في ذاكرة كاتس أحد أنواع التعذيب الجسماني وبالذات العقاب بالأغصان الناعمة عندما كان دوستويفسكي في الخدمة العسكرية، وبالطبع يكون مضطراً إلى توجيه ضربته إلى الظهر العاري لمدان تعيس. ومن خلال الصفوف كان يخطو خطوات لئيمة الضابط الرهيب فيدينايف ولقبه المعروف به بوران. كان فيدينايف يراقب التعذيب الجسماني ويتابع باهتمام شديد فيما إذا كان أحدهم يخفف الضربات. كانت القضبان وسيلة عقاب مستخدمة يحبها بوران كثيراً وله أمجاد في هذا الاتجاه.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة له إلى شقيقه ميخائيل بتاريخ 30 تموز 1854:

قدمت إلى هنا في شهر آذار ولم أكن أعرف شيئاً عن الخدمة في الجبهة. في شهر تموز وقفت في الاستعراض إلى جانب آخرين وعرفت أن المطلوب مني ليس أسوأ من الآخرين. لقد شعرت بالتعب وكلفني ذلك كثيراً. ولكن هذه مسألة أخرى غير أنهم راضون عني حمداً لله! طبعاً بالنسبة إليك كل هذا غير ممتع ولا مهم ولكن، على أقل تقدير، أنت تعرف أنني كنت مشغولاً حصراً مهما كتبت فإنك لن تروي شيئاً إطلاقاً من خلال الرسائل. أظن أنك تفهم، مهما كان الأمر غريباً عليك، أن الخدمة العسكرية ليست مزحة وأن حياة الجندية بكل التزامات العسكري ليست أبداً سهلة بالنسبة إلى شخص بتلك الصحة وتلك العادة أو، من الأفضل القول بهذا الجهل الكامل في مثل هذه الأشغال. ينبغي بذل جهد كبير لاكتساب هذه المهارة. أنا لا أتذمر فهذا صليبي وإنني استحققته.

من كلمات أندريه باخيروف قائد سرية دوستويفسكي في سنوات الخدمة في سيميپالاتينسك:

كان دوستويفسكي يتميز بهيئة فتية ومهارة في الأساليب في أثناء دعوة الحرس إلى تقديم السلاح. من حيث الخدمة كان موفقاً ولم يتعرض لأية ملاحظات.

وصل اتقانه في الحرس إلى حد أنه لم يبح لنفسه كي يفك الابزيم عند الطاقية ومشبك قبة اللباس الرسمي أو المعطف حتى عندما كان يسمح النظام بذلك.

أعفوه وهو عسكري عادي من الألبسة الخاصة بالأعمال المتعلقة بالتدبير وحسن الإدارة وأما في الحرس فقد تم الأمر فقط بتعيين الأشخاص في السرية في حالات النقص. ولكن بما أنه جرى عمل كبير في ذاك الوقت في تحضير الأخشاب لاحتياجات الكتيبة ولأجل البيع وكذلك لأجل أعمال البناء فقد تطلب الأمر عدداً كبيراً من القوة العاملة من ذوي الرتب الدنيا وخاصة لأجل ألبسة الخدمات العادية.

وقد اضطر دوستويفسكي للوقوف حارساً تقريباً في كل مناصب ذلك الزمن.

آ.س. سيدوروف، بواق متقاعد من الكتيبة السابعة، اشترك مع دوستويفسكي في الخدمة:

ما أكثر تواضعه إلى حد الخنوع. كان دوماً يحاول وضع نفسه أدنى من الجميع. يقدم الاحترام للجميع وفي الحديث معه يجيبك بلباقة وتأدب وإجلال وإكرام. كان إنساناً جيداً... ذا عقل عظيم... ولكن، وقتذاك، لم نكن نعرف هذا، لم نكن ندرك...

ألكسندر فرانكل:

مع مرور كل يوم كنا نتآلف ونتصادق مع فيودور دوستويفسكي. ازدادت زياراته لي في أي وقت من أوقات النهار أي بقدر ما كانت تسمح له خدمته العسكرية وخدمتي الوظيفية. كان جزئياً يتناول الغداء عندي إلا أنه كان يحب. خاصة، القدوم مساء لشرب الشاي – كاسات لا نهاية لها وتدخين تبغي المفضل «بوستانجيغلو». هو نفسه كان يدخن «جوكوف» مثله مثل أكثرية الروس. ولكن حتى هذا التبغ لم يكن في طاقة جيبه ووقتها كان يخلط تبغ الورق المفروم البسيط بحيث أنه بعد كل زيارة إليه كان رأسي يؤلمني ألماً فظيعاً...

صارت العلاقات مع دوستويفسكي، مع مرور الوقت، الأكثر بساطة وطبيعية. كانت أبوابي مفتوحة دوماً له نهاراً وليلاً. وغالباً ما أعود إلى الدار من الخدمة كي أصادف دوستويفسكي عندي قادماً قبلي من التدريب أو من ديوان الفوج الذي كان يعمل فيه. كان يخطو خطواته في الغرفة وغالباً ما كان يتكلم مع نفسه لأن في رأسه كان دوماً وأبداً يّولد ما هو جديد...

وفي حالات غير قليلة كنت أقضي الأمسيات عند دوستويفسكي إلا أننا هو وأنا كنا نفضل منزلي لقضاء الوقت والحديث لأن داره غير مريحة إلى حد الإرعاب. الابنة الكبرى لربة المنزل الأرمل ابنة العشرين ربيعاً كانت تقوم بأعمال التنظيف والغسيل والخياطة وزينة الغرفة. أختها في السادسة عشرة من العمر رائعة الحسن والجمال. الكبرى كانت تعتني بفيودور

دوستويفسكي ويبدو عن عشق إذ تحوك له وتغسل الألبسة الداخلية والبياضات وتعد له الطعام وأنا اعتدت عليها لذا لا غرابة إطلاقاً عندما كانت تجلس هنا معنا سوية مع الأخت في أيام الصيف لشرب الشاي، في القميص وحده بوشاح أحمر تحت الحزام على رجلين عاريتين. كان الفقر فاقعاً...

سيميبالاتينسك غير محتملة صيفاً وخانقة بصورة مرعبة والرمال تحترق تحت أشعة الشمس الملتهبة حتى درجة المستحيل. وأية رياح مهما كانت ضئيلة ترفع غيوماً من الغبار وأية رمال تغمر العيون وتنفذ إلى كل مكان. قررت الانتقال إلى الضواحي (لأن الحر في الظل في حزيران يصل إلى 32 درجة) عندما يميل السهب والأشجار إلى الاخضرار. ففي سيميبالاتينسك كلها يوجد عزبة واحدة فيها حديقة هائلة وراء سلوبودا القوزاقية بالقرب من المعسكر. وكان هذا في متناول دوستويفسكي أيضاً فاقترحت عليه الانتقال إلى عندي من وجار الدب الذي يعيش فيه. تعود ملكية هذه العزبة لتاجر قوزاقي ثري واسمها «حديقة القوزاق».

منذ أيام الشتاء سجلت كل بذار الزهور والخضار والبصليات من ريغا. ففي فناء المدينة بنينا بنجاح الدفيئات وحضّرنا الشتائل. فرح دوستويفسكي فرحاً شديداً بهذا العمل وانشغل فيه وصار يتذكر، فيما بعد، طفولته وعزبته.

في بداية نيسان انتقلنا سوية مع دوستويفسكي إلى باشيه الدورادو – إلى «حديقة القوزاق». بيت قروي استقررنا فيه. كان متداعياً للغاية والسقف يرشح والأرضية مشققة إلا أنه كان واسعاً للغاية والأمكنة عندنا وفيرة. بالطبع لا وجود لأية موبيليا – خاوية كما في العنبر. القاعة الكبيرة تطل على الشرفة. أمام الدار أقمنا جنينة زهور. ممشى كبير يقطع الحديقة من أولها إلى أخرها بأشجار قديمة. لا وجود لشجيرات مزهرة إطلاقاً: فالليلك والياسمين والورود لم نرها إطلاقاً في سيميپالاتينسك. كان عندنا بستان خضار يقدم لنا وفرة من الخضار غير المتوفرة، حتى الآن، في البلاد.

كانت توجد في وسط الحديقة ينابيع صغيرة تنبجس منها مياه باردة وصافية للغاية. وقد تم حفر ثلاث برك (أحواض ماء) حيث كنت أحتفظ فيها بحفش صغير وحفش كبير بغية تأمين صحن السمك على المائدة. ومن توابع الدار اسطبل للخيل وعنبر وفناء فسيح. وكل هذا محاط بسور عال من الخوازيق.

تقع مزرعتنا على الضفة اليمينية من نهر ايرتيش ويمتد نحو النهر مرج أخضر قليل الانحدار. وهنا بنينا كوخاً لأجل الاستحمام وحوله مختلف أنواع الشجيرات وأدغال الصفصاف. وقد بدأنا السباحة في شهر أيار.

اشتغلنا بحماس شديد في حديقة الزهور وسرعان ما اتخذت شكلاً أخاذاً.

انطبعت في ذاكرتي شخصية فيودور دوستويفسكي الذي كان يساعدني بهمة ونشاط في إرواء الشتلات الفتية. وكان منغمساً في العمل الذي وجد

فيه الرضا والراحة من خلال الوجه المتصبب عرقاً مما دعاه إلى خلع المعطف.

مرت أيام حارة للغاية. في بعض الأحيان كانت ابنتا ربة منزل دوستويفسكي تشاركان مشاركة حيوية في أعمالنا في جنينة الزهور. فهما كانتا تقومان بإرواء الزهور. بعد ساعة وأخرى من الشغل نذهب إلى الاستحمام بعده، نستريح في الشرفة لشرب الشاي أو تناول الغداء. كنا نقرأ الجرائد وندخن الغليون ونتذكر سوية مع دوستويفسكي مدينة بطرسبورغ والأهل والأعزاء علينا ونشتم أوربا إذ من المعروف أن الحرب كانت لاتزال مشتعلة بالقرب من سڤاستوبل ونحن كنا نكترب ونهلع ونضطرب...

بينما كنت أتنزه راكباً الحصان أقنعت دوستويفسكي، في نهاية المطاف، أن يركب أحد أحصنتي بل الأكثر سكوناً ووداعة، كان مضحكاً وثقيل الحركة في أداء دور الفارس وهو في معطفه العسكري الرمادي ولكن سرعان ما انسجم مع الحصان وصرنا نمتطي الخيول في نزهات طويلة حتى الحرش وإلى السهب الذي تكثر فيه منازل القيرغيز ومقراتهم. ما أروع السهب! كان، وقتذاك مزهراً وفيه الخضرة الساطعة والمرقشة بالورود التي تفوح بأطيب الروائح مثل السجادة العجيبة الممتدة إلى أرجاء شاسعة لا أول لها ولا آخر.

ما أروع السهب في الربيع الباكر مادامت أشعة الشمس الحارقة لا تمسه ولم تجففه!...

كان الوقت في «حديقة القوزاق» يمضي بسرعة وبحبور ومسرة. ويزورنا المعارف ويحسدوننا على كل أسباب الراحة. حلت أيام أيار الرائعة حيث أزهرت الورود مثل الأضاليا والقرنفل وزهر المنثور وغيرها. وبفضل تربتنا الغضة العذراء نلنا أكاليل المجد على جنينة الزهور.

في القاعة، في قصرنا، انهارت الأرضية ونمت أنواع من الفطور الضخمة. والحالة نفسها في الغرف الباقية. شغلت أنا واحدة منها وشغل دوستويفسكي الثانية وتفصل ما بيننا غرفتان خاويتان. لم يتوفر إلا ما هو ضروري من المفروشات التي صنعنا قسماً منها من الألواح والبراميل الصغيرة. صادفنا أعداداً كبيرة من الجرذان والفئران والحيات غير السامة عند انتقالنا، وخاصة في شرفتنا تحت الشمس المحرقة. بدأت ألاحظ أن إحداها صارت تشرب الحليب ولاحت فكرة إطعام الحيات الحليب...

قليلاً ما كنا نتحادث مع دوستويفسكي عن الدين. هو كان، على الأرجح، تقياً ورعاً إلا أنه نادراً ما كان يروح إلى الكنيسة ولم يكن يحب القساوسة والخوارنة لاسيما السيبيريون منهم. كان يتكلم عن المسيح ببهجة وحبور... عشت معه لحظات رائعة. ما أكثر ما منحني إياه التقرب من هذا العجيب الغريب الغني بخصاله اللوذعية. طوال فترة إقامتنا سوية لم تخترق حياتنا أية غمامة ولم يكن هناك أي سوء تفاهم. كان أكبر مني بعشر سنوات وأكثر مني خبرة بما لا يقاس. وقد دعمني فيودور في إبداء الطاقة ونشطني بنصائحه ومشاركته. أنا شاكر له لقاء الشئ الكثير. وقد

فتح عينيّ على الشئ الكثير لا سيما أنني أكرّم ذكراه بسبب الإحساس بالنزعة الإنسانية التي زرعها في كياني.

ي‍ه.آ. مامونتوفا (كنيتها قبل الزواج ميلتشاكوڤا):

كان عمري /12/ سنة عندما دعا العم الذي كنت أعيش عنده وقتذاك، دوستويفسكي بصفة معلم لأجلي. ساعدني دوستويفسكي لفترة تزيد عن السنة. بالنسبة للتعلم – لا أخفي – كنت غير موهوبة. ولم أستطع، على وجه الخصوص، استيعاب علم الحساب المعقد جداً. والآن أعجب من صبر معلمي وتحمله. وهذا الصبر، على الأرجح لا ينضب. كان دوستويفسكي يزورنا لأجل الدروس في أوقات مختلفة – يعني، كما هو واضح، عندما يكون لديه وقت فراغ. كان الدرس يمتد لساعة واحدة وأحياناً ساعتين ولكن ليس أكثر. كان دوستويفسكي، لسبب ما، غالباً ما يجلس في معطفه. يفك القبة لا أكثر. ارتسم هذا المعطف بدقة ووضوح في الذاكرة تماماً كما لو كان الآن أمامي... لا أعلم إذا كان التفصيل على ذوقه أو على الموضة، فهو جميل للغاية. والآن لا أرى مثل هذه المعاطف عند العسكريين. في أثناء الدروس غالباً ما كان دوستويفسكي يسعل بصورة متواصلة. كان العم يقول بأن صدره غير سليم. وفي دروسه كان رقيقاً وناعماً وعطوفاً إلا أنه كان متطلباً. ذات مرة طلب مني دوستويفسكي حل مسألة حسابية للدرس القادم. لم أحل المسألة. أجبرني

دوستويفسكي على حلها. لم أستطع حلها. دوستويفسكي انتظر مني الحل. وأخيراً أنا الفتاة الحمقاء فقدت رباطة الجأش ولم أتمالك نفسي فغضبت وقلت لمعلمي اللطيف والطيب كلاماً سليطاً: «لا أستطيع حلها، المسألة صعبة للغاية... اجلس وحلها أنت بنفسك فأنا لا أستطيع...» نقل دوستويفسكي كل هذا إلى أهلي الجالسين في غرفة أخرى ولهذا السبب وضعني في الزاوية. بقي دوستويفسكي عندنا لأجل الغداء. مضى قليل من الوقت بعد الغداء وفقط في وقت الغسق سمح لي بترك المكان البغيض. همسوا في أذني أن أطلب العفو والاعتذار إلا أنني عاندت وتشبثت برأي. غادر دوستويفسكي البيت. وفي اليوم التالي صباحاً استطعت حل هذه المسألة المشؤومة. شاهد دوستويفسكي الحل فأهداني، أنا التلميذة الحرونة، علبة سكاكر فيها قلم فاخر.

كان دوستويفسكي يزور بيوتاً عديدة في سيميپالاتينسك ومنها بيت القاضي پيشيخونوف الذي كان يعيش على المكشوف. ويتواجد عنده في الأمسيات ضيوف كثيرون والضيافة عامرة دوماً. وقد ازدهرت حفلات الرقص واللعب بالورق. وفي هذا البيت كان دوستويفسكي يرقص أيضاً وكان مزاجه جيداً خاصة قبيل مغادرة سيميپالاتينسك ويبدو لي انه كان، وقتذاك، في بدلة السهرة وليس في اللباس العسكري.

زينايبدا سيتينا:

كان لدى فيودور دوستويفسكي عدد كبير من المعارف من مختلف فئات المجتمع وكان مصغياً ولطيفاً وبشوشاً تجاه الجميع بالتساوي. أفقر شخص لا يملك أي مركز اجتماعي كان يزور دوستويفسكي كصديق ويفصح له عن حاجته وكآبته وشجنه ثم يخرج من عنده حاصلاً على المجاملة الطيبة والحسنة اللطيفة. وبالنسبة إلينا، نحن السيبيريين دوستويفسكي هو شخصية شريفة ولامعة حتى أرفع مستوى. وهو نفسه كما أفهمه وحسبما أسمع عنه من أبي وأمي وهو كذلك كما يتذكره جميع الذين كانوا يعرفونه في سيبيريا. في أوائل أيلول من عام 1872 اجتزت مدينة سيميپالاتينسك وزرت معارفي القدامى ومنهم الكابتن م.ف.ك رفيق والدي المرحوم وزميل دوستويفسكي في الخدمة. مررنا في أحد الشوارع فأوقفني ك. وقال لي «هنا في هذه الدار كان يعيش دوستويفسكي». قيل هذا الكلام بذاك الحب وذاك الإكرام بحيث كان من الصعب نقل الانطباع الذي تركته عندي هذه الكلمات البسيطة.

العودة إلى الأدب

ألكسندر ميليوكوف:

ذات مرة زارني ميخائيل دوستويفسكي صباحاً يحمل خبراً مفرحاً بأنهم سمحوا لشقيقه العيش في بطرسبورغ وهو ينبغي أن يصل في اليوم ذاته. هرعنا إلى محطة نيقولايف للخطوط الحديدية وهناك أخيراً عانقت المنفي بعد عشر سنوات تقريباً من الفراق. أمضينا المساء سوية. بدا لي فيودور أنه لم يتغير جسدياً بل حتى كما لو كنا ننظر إلى شخص أنشط من السابق ولم يفقد حيويته إطلاقاً. لا أذكر فقط واحداً من الحاضرين وهو من معارفنا المشتركين، وفي هذا اللقاء الأول فقط تبادلنا الأخبار والانطباعات وتذكرنا السنوات القديمة وأصدقاءنا المشتركين. بعد ذلك صرنا نلتقي أسبوعياً تقريباً.

بدأ دوستويفسكي تدريجياً يروي تفاصيل حياته في سيبيريا وعادات أولاء المنبوذين الذين لزم الأمر كي يعيش معهم أربع سنوات في سجون الأشغال الشاقة. وقد ولج الجزء الأكبر من هذه القصص في «ذكريات من بيت الموتى». صدر هذا العمل في ظروف مواتية للغاية ففي الرقابة فاحت في تلك الفترة رائحة التساهل وظهرت في الأدب مؤلفات لا يمكن تصورها حتى فترة قريبة في الطبع. رغم أن الخبر هو عن الكتاب المكرس حصراً لحياة المحكومين بالأشغال الشاقة فإن المسار الرئيسي المرعب لهذه

القصص عن الأنذال المرعبين، وأخيراً إن المؤلف نفسه هو المجرم السياسي العائد لتوه قد أربك الرقابة إلى حد ما. بيد أن هذا لم يجبر دوستويفسكي أن يحيد في أي شئ عن الحقيقة. وتركت «مذكرات من بيت الموتى» انطباعاً مؤثراً للغاية. لقد رأوا في مؤلفها كما لو كان دانتي جديداً هبط إلى الجحيم لاسيما أنه فظيع بحيث أنه لم يحضر في تصورات الشاعر بل في الواقع...

بعد العودة من المنفى إلى بطرسبورغ اهتم فيودور دوستويفسكي بكل الظواهر الرائعة في أدبنا. وقد توسم في الكتّاب الشباب المبتدئين كل الخير، وعلى ما يبدو كان يفرح عندما كان يلاحظ لدى أحدهم الموهبة وحب الفن. وعندما أشرفت على هيئة تحرير مجلة «سڤيتوتش» كان يلتئم عندي في الأمسيات شمل العاملين من الشبيبة في جزئهم الأكبر. وعلى فكرة كان زائري الدائم الروائي المعروف فسيڤولود ڤلاديميروڤيتش كريستوفسكي الذي كان قد ترك لتوه الجامعة وبدأ نشاطه بالأشعار الغنائية الرائعة من حيث نضارة الأفكار ورشاقة الصيغة. ذات مرة وبحضور دوستويفسكي قرأ مسرحية غير كبيرة قريبة في خطها العام من عمل سيميرادوف «الخاطئة». أصغى دوستويفسكي إلى هذه المسرحية الشعرية وتعاطف تعاطفاً مع مؤلفها وكان قد رجاه، غير مرة، أن يعيد قراءتها على مسامعه. وأحب أن يسمع، أيضاً، مسوداته الشعرية المتضمنة في قصيدة غنائية غير كبيرة بعنوان عام «ليالي الربيع»...

بإمكاني أن أروي عدة أحداث أخرى حول كيف أن أية موهبة جديدة تفرحه من جهة وأية مظاهر لفساد الخلق أو اللامبالاة تجاه الأدب تزعجه من جهة أخرى. كان على الأرجح يعذر التولع السخيف بفكرة ما واللامبالاة في الفن وعدم احترام الموهبة. ففي محاكمات دوستويفسكي عن مؤلفات الأدب الرئيسية تم التعبير عن تلك الملاحظات الدقيقة التي نجدها في النماذج المبدعة من قبله في رواياته نفسه. وهذا مرئي جزئياً في كلمته في الاحتفالات الموسكوفية عند رفع الستار عن النصب التذكاري لبوشكين. وسطعت بوضوح أكثر هذه الخصوصية عندما جرى الحديث عن الشخصيات الأجنبية الذين يؤكدون على آراء النقاد المحلفين: فهنا كان جسوراً بأصالة وإذا لم تكن صادقاً في كل شئ فهو دوماً أصيل وغريب عليه الروتين المبتذل الاعتيادي. ففي آرائه النقدية والاجتماعية ورغم مفارقاتها غالباً ما كان يعبر عن التحليل السيكولوجي كما تتبدى السمات الدقيقة التي لا يمكن التقاطها مثلما هي الحال في الشخصيات الأصيلة لخيرة مؤلفاته.

نيقولاي ستراخوف:

طوال عام **1860** لم نلتق مع فيودور دوستويفسكي إلا تقريباً عند ألكسندر ميليوكوف. كنت أصغي إلى أحاديثه باحترام وبشئ من الفضول. وأنا نفسي لم أكن أتكلم كثيراً بيد أن عدداً من مقالاتي ذات المضمون

الفلسفي الطبيعي تتالت في « سڤيتوتش» وهي استرعت اهتمام دوستويفسكي. كان الأخوان دوستويفسكي يجمعان، وقتذاك، عاملين محررين إذ قررا البدء في السنة التالية، بإصدار مجلة أسبوعية سميكة اسمها «ڤْريميا» (الوقت) وأكدا على دعوتي للعمل فيها. رغم أنني أحرزت نجاحاً صغيراً في الأدب ولفتّ إليّ بعض الانتباه من قبل م.ن.كاتكوف وآ.آ.غريغوريف إلا أنني يجب القول بأنني مدين في هذا المجال، على الأكثر لفيودور دوستويفسكي الذي منذ ذاك الوقت أبرزني وشجعني وساندني دوماً أكثر من أي شخص آخر ووقف، حتى النهاية، إلى جانب جدارات كتاباتي. يمكن للقراء، طبعاً، أن ينظروا إلى هذا كخطيئة من جانبه إلا أنه يجب التذكير بهذه الحقيقة وإن يكن من خلال نموذج صغير من محاباته الأدبية وأدرك أنه رغم وشوشات الأنفة وعزة النفس فإنني غالباً ما كنت أرى المبالغة في الأهمية التي كان دوستويفسكي يضفيها على نشاطي... بالطبع كان دوستويفسكي يرغب أن يعلن نفسه رئيس التحرير المباشر للمجلة إلا أنه كان قابعاً ، وقتذاك، تحت رقابة البوليس ولهذا السبب لم يستطع لاحقاً أن يصبح رئيساً لتحرير «ايپوخا» (العصر). وفقط في عام 1873 أزيحت هذه العقبة وصار رسمياً رئيس تحرير «المواطن». وبما أن الأخوين كانا يعيشان في وئام ووفاق فقد حدث، في البدء، تقسيم رائع للعمل إذ أخذ ميخائيل دوستويفسكي على عاتقه الأمور المادية وفيودور دوستويفسكي الأمور الذهنية...

أحرزت مجلة «ڤريميا» نجاحاً حاسماً وسريعاً. أرقام المشتركين الذين كانوا مهمين بالنسبة إلينا جميعنا ثابتة بقوة في الذاكرة – ففي عام 1861 بلغت /2300/ مشترك وقال ميخائيل إنه تيسر له في الحسابات النقدية سد حاجاته. وفي السنة الثانية بلغ /4302/ مشترك. وفي السنة الثالثة من الإصدار في نيسان وصل حتى الأربعة آلاف. وبناء عليه، سارت الأمور بمتانة وأخذت المجلة تمنح مدخولاً كبيراً منذ السنة الثانية لأن /2500/ مشترك كانوا يغطون نفقات الإصدار. كانت أتعاب المؤلف أقل من الحالية ونادراً ما انخفضت إلى الخمسين روبلاً لقاء الورقة المطبوعة ونادراً ما ارتفعت أعلى من ذلك وبشكل عام لم تتجاوز إطلاقاً المئة روبل.

تعود أسباب مثل هذا النجاح السريع والهائل لمجلة «ڤريميا» وقبل كل شئ، إلى اسم فيودور دوستويفسكي الذي كان دويّه هائلاً. فالجميع يعرف قصة منفاه والأشغال الشاقة. وهذه القصة ساندت شهرته الأدبية وعظّمتها. قال لي ذات مرة في سويسرا: «اسمي يساوي مليون!» بشئ من الافتخار.

السبب الثاني – الرواية الرائعة (بكل نواقصها) «مذلون ومهانون» التي منحت القراء المنجذبين اسم فيودور دوستويفسكي. وبشهادة دوبرولوبوف كانت هذه الرواية في عام 1861 هي الظاهرة الأضخم في الأدب. كتب الناقد: «رواية السيد دوستويفسكي أكثر من «لا بأس» بكثير وهي لا بأس بها لدرجة أنهم قرؤوها بمتعة وسرور وتكلموا عنها بمديح كامل...» ثم

يقول: «تمثل رواية السيد دوستويفسكي حتى الآن (هذا يعني حتى أيلول عام 1861) أفضل ظاهرة أدبية لهذا العام».

السبب الثالث ينبغي اعتباره ذاك المزاج العام للجمهور الذي لم يقبل على التقليعات الأدبية مثلما حدث في ذاك الوقت. بعد التولع الأول تحدث أحياناً خيبة أمل. في هذه المرة، سارت الأمور بشكل رائع. برزت المجلة بأنها ممتعة. عدا هذا ظهر اتجاه ليبرالي كلياً إلا أنه له خصوصيته ولا يشبه اتجاه «سوڤريمينيك» الذي بدأوا يضجرون منه. فضلاً عن هذا إن «ڤريميا» لا تختلف في النقاط الجوهرية عن « سوڤريمينيك». تضمن الكتيب التاسع من « سوڤريمينيك» تحليلاً لرواية دوستويفسكي بمديح كبير. وقد أوردنا بعض أسطر الثناء، وفي بداية « ڤريميا» رحبت «سوڤريمينيك» به بمودة. صدر الكتيب الأول من «سوڤريمينيك» في نهاية نيسان أي بعد ثلاثة أسابيع من صدور العدد الأول من «ڤريميا» واحتوى هذا الكتيب «نشيد ڤريميا» (الأرجح لدوبرولوبوف أو كوروتشكين) الذي حذرت فيه المجلة الجديدة من الأعداء والأخطار. في ذاك الوقت كانت كلمة « سوڤريمينيك» تعني الكثير. وقد بلغت، حينذاك قمة ازدهارها وهيمنت، بحزم، على جمهور بطرسبورغ. وكان ترحيبها أكثر واقعية من أية إعلانات. وفي كتيب تشرين الأول من « ڤريميا» لعام 1861 « ظهرت حتى قصيدة نيكراسوف « الأطفال الفلاحون» سوية مع كوميديا أستروفسكي « زواج بالزمينوف» وفي كتيب نيسان من « ڤريميا» لعام

1862 ظهرت مشاهد مسرحية لشيدرين. أعتقد أن الاحترام الذي حمله شيدرين لمجلة «ڤريميا» ظل قائماً حتى النهاية.

شمخت «ڤريميا» وحدها وبسرعة، بشكل أو بآخر، في عيون القراء في الوقت الذي هبطت فيه المجلات القديمة مثل «المذكرات الوطنية» و«مكتبة لأجل القراءة» وغيرهما. وازدهرت «ڤريميا» وصارت تقريباً تنافس «سوڤريمينيك» وعلى أقل تقدير حظيت بالحق في أن تحلم بمثل هذه المنافسة. لم يكن هذا النجاح،ولا بأي شكل من الأشكال ظاهرة خداعة أي لم يكن لحظات من الولع بقدر ما كان ظاهرة عادية في جمهورنا (سوڤريمينيك تعني المعاصر).

طوال وجود «ڤريميا» شكل المحررون فيها مجموعتين إحداهما التفت حول آب. غريغوريف الذي استطاع أن يجمع حوله الشباب بسماته الجذابة الخاصة بعقله وقلبه لاسيما مشاركته الوفية في نشاطاتهم الأدبية وكان قادراً على إيقاظ قدراتهم وإيصالها إلى حالة من التوتر الهائل. وتشكلت المجموعة الثانية حول فيودور دوستويفسكي وحولي أنا. نحن تصادقنا وكنا نرى بعضنا بعضاً كل يوم بل حتى أكثر من مرة في اليوم الواحد. في صيف عام 1861 انتقلت من جزيرة ڤاسيليف إلى بولشايا ميشانسكايا (حالياً كازانسكايا) إلى بناء مقابل لزقاق ستوليارني. تقع هيئة التحرير عند ميخائيل دوستويفسكي الذي كان يقطن في مالايايميشانسكايا في دار تطل على قناة ايكاترينا بينما استقر فيودور دوستويفسكي في

سْريدناياميشّانسكايا. وقد استقر آب. غريغوريف مع رفقته الشبابية في غرف مفروشة في شارعِ فوزنيسينسكي في بناء سوبوليفسكي. كتبت هذا كي أقول أننا كنا قريبين واحدنا من الآخر واذكر الطابع الدنئ لهذه الشوارعِ الوسخة والمكتظة بسكان بطرسبوغيين.

وفي العديد من الروايات وخاصة في « الجريمة والعقاب» التقط دوستويفسكي، بصورة عجيبة، وجه هذه الشوارعِ وقاطنيها.

أمضينا سنوات سعيدة للغاية في وسط هذه الأماكن المملوءة بالكربة والغم والقرف والتقزز. وعندما تسير الأمور على مايرام فلا شئ أكثر تشويقاً وإثارة من عمل المجلات ففيه تلتحم كل جاذبية العمل الاجتماعي الجماهيري وكل بهاء التأملات والجهود. فالصفحات المدروسة والمعدة بجهد جهيد في صمت تظهر فجأة إلى النور أمام عيون الكثيرين من القراء وتصبح مادة للمحاكمات التي تصل إليك لتوها. كانت ثمة عادة حينذاك وهي أن تتحدث كل مجلة عن جميع المجلات الأخرى بحيث انطباع كل مقالة كان ينكشف بسرعة هائلة. استطاع دوستويفسكي وغريغوريف أن يكونا واثقين من أن كتيب المجلة الجديد لا بد وأن نصادف فيه اسمهما. إن التنافس بين مختلف الإصدارات والاهتمام الشديد باتجاهاتها والجدالات، إن كل هذا قد وجه عالم المجلات إلى تلك اللعبة الممتعة بحيث ما إن تعيش معه مرة سيستحيل عندها عدم الشعور بالرغبة الكبيرة بالولوجِ فيها ثانية.

نيقولاي ستراخوف:

بدأ فيودور دوستويفسكي سفرته الأولى خارج البلاد في السابع أو الثامن من حزيران صيف عام 1862. وأذكر كيف هو نفسه وصف هذه الرحلة وانطباعاته عنها في مقالة له بعنوان « ملحوظات شتوية عن انطباعات صيفية». سافر إلى باريس ثم لندن حيث التقى بغيرتسين ويذكر كل شئ في «اليوميات». كان موقفه من غيرتسين حينذاك وديعاً ودمثاً وتشير «الملحوظات الشتوية عن انطباعات صيفية» إلى تأثير هذا الكاتب ولكن، فيما بعد، في السنوات اللاحقة غالباً ما عبر عن سخطه عليه لعجزه عن استيعاب وفهم الشعب الروسي وعدم القدرة على تقدير سمات حياته اليومية...

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى نيقولاي ستراخوف بتاريخ 26حزيران 1862، باريس:

آه! يا نيقولاي ستراخوف، باريس مدينة مملة للغاية ولولا وجود أشياء رائعة كثيرة فيها فإنه من الممكن أن يموت الإنسان من الضجر. والفرنسيون، منهم لله، هذا الشعب الذي يشعرك بالغثيان. أنت تتكلم عنا، عن الوجوه المغرورة والوقحة والعنيفة ولكن أقسم لك أن الوضع هنا أقسى.

شعبنا – ببساطة شهواني وشبق وخسيس وأكثره واع بينما هنا واثق تماماً بأنه هكذا يجب. الفرنسي هادئ وشريف ولطيف إلا أنه مزيف والنقود هي كل شئ بالنسبة إليه. لا وجود لمثل أعلى. لا تسأل فقط عن المعتقدات بل حتى ولا عن التبصر. مستوى التعليم منخفض إلى حد أقصى (لا أتحدث عن الاختصاصيين فعددهم قليل). أمضيت حتى الآن عشرة أيام وإلى الآن ثمة ما يثبت كلامي ورأيي.

هل ستسافر إلى باريس؟ ستلاحظ أن السفر إلى باريس لثلاثة أيام غير محرز وأن تكرس أسبوعين فيما إذا كنت سائحاً فهذا يدعو إلى السأم. يمكن السفر إلى هنا من أجل الشغل. ثمة الشئ الكثير مما يمكن مشاهدته ودراسته. يلزمني المكوث فترة من الوقت في باريس لأنني أريد، دون أن أضيع الوقت، أن أتفقد وأدرس دون تكاسل وبقدر ما هو ممكن لأجل سائح بسيط مثلي...

لن تصدق يا عزيزي نيقولاي كيف تطوق الوحدة روحي. إنه لإحساس قاسٍ ومضجر! في الحقيقة، حتى الآن لم تواتيني الظروف خارج البلاد. الطقس ردئ ولم أشاهد من عجائب الطبيعة في أوربا إلا الراين بشواطئه (يا نيقولاي، هذا فعلاً أعجوبة).

نيقولاي ستراخوف:

وعدت أن أكون حسب الوقت المحدد في جنيف. سافرت في أواسط تموز. توقفت يومين – ثلاثة في برلين وقضيت الفترة ذاتها في درسدن ثم قطعت المسافة مباشرة إلى جنيف. ومن أجل البحث عن فيودور دوستويفسكي استخدمت الطريقة المعروفة: ذهبت للتنزه على ضفة النهر ويممت شطر المقاهي الأكثر شهرة. يبدو أنني وجدته في أولى هذه المقاهي. فرحنا أحدنا بالآخر مثل شخصين يشتاق واحدهم للآخر وسط حشود غريبة وشرعنا بالحديث والقهقهة بصوت جهوري بحيث أزعجنا الزوار الآخرين الجالسين بصمت ووقار وراء طاولاتهم وجرائدهم. عجلنا في الذهاب إلى الشارع ولازمنا بعضنا بعضاً دون أي افتراق. لم يكن فيودور دوستويفسكي ماهراً في الترحال إذ لم تشغل باله لا الطبيعة ولا النصب التذكارية التاريخية ولا الأعمال الفنية باستثناء الأكثر عظمة وكل اهتمامه كان منصباً على البشر. وقد التقط طبيعتهم وطباعهم ناهيك عن الانطباع العام لحياة الشارع. أخذ يشرح لي بحرارة أنه يحتقر الطريقة الحكومية العادية بمشاهدة الأماكن الشهيرة بمساعدة الدليل. ونحن بالفعل لم نتمعن في مشاهدة شئ بل تنزهنا حيث يكثر البشر وتحادثنا. لم يكن عندي هدف ملموس وأنا، أيضاً، حاولت جاهداً التقاط وجه هذه الحياة والطبيعة. وجد فيودور دوستويفسكي في جنيف مدينة كئيبة ومضجرة. وباقتراح مني سافرنا إلى لوسيرن. كنت أرغب في رؤية بحيرة الكانتونات

الأربع وقمنا بسفرة مسلية وترفيهية في الباخرة في هذه البحيرة. كان الطقس رائعاً واستطعنا الاستمتاع بهذا المنظر الذي لا مثيل له. بعد ذلك أردت أن أزور فلورنسا التي كتب عنها وروى بكل ابتهاج أپولينار غريغوريف. هبطنا غلى الطريق عبر مونسينيس وتورينو إلى جنوه. وهنا جلسنا في الباخرة التي سافرنا فيها إلى ليڤورنو ومن هناك بالخط الحديدي إلى فلورنسا. كان المبيت في تورينو التي بدت لفيودور أنها تشبه بطرسبورغ من حيث شوارعها المستقيمة والمسطحة. مكثنا في فلورنسا أسبوعاً واحداً في الفندق المتواضع بنسيون سويس.

كان العيش هنا لابأس به لأن الفندق لم يكن مريحاً فحسب بل، أيضاً، كان يتميز بعادات وأخلاق تقليدية... ونحن لم نلحظ أية خطوة على طريقة السياح فيما عدا التجول في الشوارع كما انكببنا على القراءة. وقتذاك كانت رواية فيكتور هيجو (البؤساء) طازجة واشتراها دوستويفسكي مجلداً وراء مجلد. بعد قراءته كان يعطيني الكتاب وقرأنا في هذا الأسبوع ثلاثة أو أربعة مجلدات. مع ذلك لم أرغب التغاضي عن التعرف إلى مؤلفات الفن العظيمة ومحاولة مشاطرة البهجة التي تخلق هذا الجمال وزرت غير مرة غاليري **degli Uffizi**. ذات مرة ذهبنا إلى هناك سوية ولكن بما أننا لم نضع خطة ملموسة ولم نستعد كما يجب للعرض فإن فيودور دوستويفسكي أخذ يسأم بسرعة ومشينا. ويمكن القول إن تجوالنا في المدينة كان مرحاً، والأروع كانت أحاديث المساء لأجل النوم مع كأس

من النبيذ المحلي الأحمر. نستدل من «ملحوظات شتوية عن انطباعات صيفية» ما هو ملفت للانتباه أكثر من غيره خارج البلاد. لقد أثار اهتمامه البشر والبشر حصراً بتكوينهم النفسي وصورة حياتهم ومشاعرهم وآرائهم.

من يوميات أبولينار ياسلوڤا عام 1863

١٩ آب، الأربعاء، باريس.

... تلقيت الآن رسالة من فيودور دوستويفسكي. هو قادم بعد عدة أيام. أردت رؤيته كي أقول كل شئ ولكنني قررت الكتابة.

١٩ آب.

«أنت تتأخر قليلاً في السفر... منذ فترة قريبة حلمت بالسفر معك إلى إيطاليا بل حتى أنني بدأت أتعلم اللغة الإيطالية – تغير كل شئ خلال عدة أيام. كنت أنت قد ذكرت بأنني لن أهب قلبي قريباً – وهبته خلال أسبوع في أول نداء بلا صراع ولا ثقة، وتقريباً بلا أمل بأنهم يحبونني. أنا كنت على حق في زعلي منك عندما بدأت تبدي إعجابك بي. إياك أن تظن أنني ألوم نفسي إلا أنني أريد فقط القول بأنك أنت لم تعرفني ناهيك أنني أنا لم أعرف نفسي. الوداع يا عزيزي!

بودي لو أراك ولكن إلى ماذا يؤدي هذا؟ أرغب رغبة جامحة التحدث معك عن روسيا».

في هذه اللحظات أنا حزينة للغاية. يا له من سمح، نبيل! أي ذهن هذا! أي قلب هذا!...

٢٦ آب

هذا ما حدث. ما تيسر لي أن أكتب السطور السابقة حتى ظهر فيودور. رأيته عبر النافذة إلا أنني انتظرت حتى يأتوا ويعلموني عن قدومه وطال الانتظار. قلت له بصوت متهدج: «مرحباً» وسألني ماذا بي وأنا قويت اضطرابي مما زاد في قلقه.

– قلت: ظننت أنك لن تأتي لأنني كتبت لك رسالة.

– أية رسالة؟

– كي لا تسافر إلى عندي.

– لأي سبب؟

– لأن الوقت صار متأخراً.

خفض رأسه

– ينبغي أن أعرف كل شئ، هل سنذهب إلى مكان ما، قولي لي أو أموت. اقترحت عليه السفر معه إلى عنده. لذنا بالصمت طوال الطريق. نظرت إليه. صار يصرخ من وقت إلى آخر على الحوذي بصوت قانط وجزوع: «Vite vite» علماً أن الحوذي كان أحياناً يستدير وينظر بحيرة وارتباك. حاولت أن لا أنظر إلى دوستويفسكي. وهو، أيضاً، لم ينظر

إلي إلا أنه أمسك يدي طوال الطريق وصار يضغط عليها من وقت لآخر وقام بحركات تشنجية.

– قلت له: اهدأ فأنا معك.

عندما دخلنا إلى غرفته ألقى بنفسه نحو قدمي ضاغطاً معانقاً واسترسل في النحيب بصوت عال: «لقد خسرتك، عرفت ذلك». بعد أن هدأ، أخذ يسألني من هذا الشخص. «لعله جميل، فتي، محدث. بيد أنك لن تجدي قلباً آخر مثل قلبي».

لم أرغب الرد عليه بسرعة.

– هل منحتيه كل شئ؟

– قلت: لا تسأل فهذا سئ.

– پوليا، لا أعرف ما هو الجيد وما هو السئ. من هو: روسي، فرنسي، أليس طبيبي؟

– كلا، كلا.

قلت له إنني أحب هذا الإنسان حباً جماً.

– هل أنت سعيدة؟

– كلا.

– كيف ذلك؟ تحبينه ولست سعيدة، فهل هذا ممكن؟

– هو لا يحبني.

– صرخ بصوت عالٍ ماسكاً رأسه قائلاً: لا يحبك! ولكنك لا تحبينه مثل جارية، أمة. قولي لي فهذا ما أريد أن أعرفه! أليس من الحقيقة أنك مستعدة للذهاب معه إلى آخر الدنيا؟

– قالت وهي تسكب الدموع: كلا أنا... أنا سأذهب معه إلى القرية.

– اوه پوليا، لماذا أنت إذن بهذه التعاسة! هذا ينبغي أن يحدث عندما تحبين شخصاً آخر. عرفت ذلك. فأنت أحببتني بطريق الخطأ لأن قلبك واسع وانتظرت حتى الثالثة والعشرين من العمر. أنت المرأة الوحيدة التي لا تطلب أية التزامات ولكن كم يكلف هذا: الرجل والمرأة ليسا كياناً واحداً. فهو يأخذ وهي تعطي.

عندما ذكرت له من هذا الإنسان، قال إنه، في هذه اللحظة، يعاني شعوراً دنيئاً: صار أكثر راحة وأن هذا ليس إنساناً جدياً، هو ليس ليرمنتوف. تحدثنا كثيراً عن المواد الغريبة. وقد ذكر لي أنه سعيد لأنه عرف في هذا العالم كائناً مثلي. رجاني أن أبقى في حالة الصداقة معه وأن أكتب عندما أكون سعيدة أو غير سعيدة. بعد ذلك اقترح السفر إلى ايطاليا وهو بمثابة أخ لي. وعندما قلت له أنه سيكتب روايته أجاب: «من تحسبينني! هل تظنين أن كل شئ سيمضي دون أي انطباع. صار وضعي أهون وأسهل عندما تحدثت معه. فهو يفهمني...

٦ ايلول، بادن – بادن.

كانت رحلتنا مع فيودور دوستويفسكي مسلية ومضحكة للغاية. بعد أن وضع التأشيرة على بطاقتينا تشاجر في السفارة البابوية وطوال الطريق كان ينطق أشعاراً وأخيراً، هنا، حيث استطعنا بجهد جهيد ايجاد غرفتين بسريرين. وقع في كتاب «officier» مما أضحكنا كثيراً. كان، طوال الوقت، يلعب بالروليت وبإهمال واضح. في الطريق ذكر لي أنه لديه الأمل رغم أنه في السابق كان يؤكد على عدم وجوده. لم أنطق بشئ في هذا الصدد إلا أنني كنت أعرف إن هذا لن يحصل. مما أسعده أنني غادرت باريس بهذا الحزم لأنه لم يتوقع ذلك. هنا يستحيل بناء الأمل بل على العكس البارحة مساء تم الإفصاح عن هذه الآمال. في الساعة العاشرة تقريباً شربنا الشاي.

بعد أن أنهينا الشاي، وأنا كنت تعبانة تمددت في السرير ورجوت فيودور أن يجلس أقرب. كان شيئاً جميلاً. أخذت يده ومسكت بها في يدي طويلاً. قال لي إنه من السار الجلوس هكذا وقلت له إنني كنت غير عادلة وفظة معه في باريس وكأنني لم أفكر إلا في ذاتي. فكرت فيه أيضاً إلا أنني لم أرغب الإفصاح عن ذلك كي لا أضايقه. فجأة نهض عن السرير وأراد المغادرة إلا أنه تعثر بالحذاء الموضوع بجانب السرير فاستدار سريعاً وجلس.

– سألت: إلى أين أردت الذهاب؟

– أردت إغلاق النافذة.

– أغلقها إذا أردت.

– كلا، لا ضرورة لذلك. أنت تعرفين ماذا حدث معي الآن. قال ذلك بتعبير فيه غرابة.

– ماذا حدث؟ نظرت إلى وجهه. كان مضطرباً.

– كنت أريد الآن أن أقبل رجلك.

– لماذا هذا؟ قلت ذلك في حالة من الارتباك الشديد، وتقريباً الهلع بعد أن لملمت رجليّ الاثنتين.

– هذا ما أردته وأنا قررت أن أقبّلك.

ثم سألني فيما إذا كنت أريد النوم فقلت: كلا، أود الجلوس معه. ظناً مني أن أنام وأخلع ملابسي. سألته فيما إذا كانت خادمة المنزل ستأتي كي ترفع الشاي من على الطاولة. هو أكد: كلا. ثم نظر إليّ بشكل حرج وقلت له ذلك.

– وأنا محرج أيضاً – قال ذلك بابتسامة غريبة. خبأت وجهي في الوسادة. ثم سألت ثانية – الن تأتي الخادمة وهو أكد: كلا مرة ثانية.

– فقلت: اجلس مكانك، أريد أن أنام.

– فقال: الآن إلا أنه مكث في مكانه لفترة من الوقت. بعد ذلك قبلني بحرارة وأخيراً صار يشعل لنفسه شمعة. شمعتي احترقت بالكامل.

– قال: لن يكون عندك نار.

– كلا سيكون، عندي شمعة كاملة.

– إلا أنها شمعتي.

– عندي غيرها.

– دوماً نكتشف الردود – قالها مبتسماً وخرج. لم يقفل الباب وسرعان ما دخل علي بحجة إغلاق النافذة. اقترب مني ونصحني أن أخلع ملابسي.

– قالت وهي تتظاهر بأنها تنتظر خروجه: سأخلع.

خرج مرة ثانية وقدم مرة ثانية بحجة أخرى بعدها غادر وأوصد الباب. اليوم ذكرني بالأمس وقال إنه كان سكراناً بعد ذلك قال إنه من غير السار أن يعذبني. أجبت أن لا شئ من هذا القبيل فقال إنه كانت عندي ابتسامة ماكرة وأنه بدا أحمقاً وهو نفسه يدرك حماقته إلا أنها كانت غير واعية.

١٤ ايلول، تورينو، ١٨٦٣

البارحة تناولنا طعام الغداء مع فيودور دوستويفسكي في فندقنا وراء **table d'hôte**. جميع الجالسين وراء مائدة الغداء شباب فرنسيون أحدهم نظر إليّ نظرة وقحة للغاية حتى أن فيودور لاحظ كيف أنه أومأ عليّ بمواربة لرفيقه. هذا المشهد أحنق فيودور دوستويفسكي وأوصله إلى حالة حرجة لأنه يصعب عليه في حالة الحاجة لحمايتي. قررنا تناول الغداء في فندق آخر. وبعد أن أومأ الفرنسي عليّ لجاره أهداه فيودور النظرة نفسها بحيث أنه أخفض نظره وبدأ ينكت بصورة فاشلة.

١٧ أيلول، تورينو، ١٨٦٣

عاتبته، بعد ذلك شعرت أنني لست على حق. أردت التكفير عن هذا الذنب وصرت رقيقة لطيفة معه. واستجاب هو بتلك المسرة مما أثر فيّ كثيراً وصرت رقيقة بصورة مضاعفة. وعندما جلست بجانبه ونظرت إليه بحنان قال: «هذه هي النظرة الأليفة التي لم أرها منذ فترة بعيدة» انحنيت نحو صدره وأخذت أبكي.

عندما كنا نتناول الغداء قال وهو ينظر إلى الفتاة التي كانت تأخذ دروساً: «تصوري مثل هذه الفتاة مع عجوز وفجأة نابليون ما يتكلم: «دمروا المدينة كلها». دوماً كانت الأمور هكذا على وجه البسيطة.

روما، ٢٩ أيلول

تحرش بي فيودور مرة ثانية البارحة. فهو قال أنني أنظر، بجدية وصرامة، إلى الأشياء التي تستحق ذلك. وقلت له ثمة هنا سبب واحد لم يسبق أن أفصحت عنه في الماضي. بعد ذلك قال تقتلني النفعية. وقال لديه البرهان على ذلك يبدو أنه كان يود أن يعرف سبب عنادي.

حاول تخمينه

– أنت لا تعرف هذا أليس كذلك – أجابت عن مختلف افتراضاتي. كانت لديه فكرة أن هذا يدخل ضمن التقلبات والرغبة في التعذيب لفترة محدودة من الوقت.

– قلت: هل تعرفين أن الرجل لا يجوز تعذيبه لفترة طويلة. فهو، في النهاية، يتوقف عن محاولة الوصول. أنا لم أستطع إلا أن أبتسم وبالكاد سألت لأجل ماذا قال هذا الكلام.

– بدأ كلامه بصورة ايجابية: لكل هذا سبب رئيسي واحد (بعد ذلك عرفت أنه لم يكن واثقاً مما يقوله) سبب يجعلني أشعر بالتقزز – إنه شبه الجزيرة(3).

هذا التذكير الفجائي أقلقني.

– أنت تأملين.

أنا صمتّ.

– قال: أنت الآن تعترضين. لا تقولي أن الوضع ليس كذلك.

أنا صمتّ.

– لا أملك شيئاً تجاه هذا الشخص لأنه تافه للغاية.

– قالت بعد أن فكرت: أنا لا آمل شيئاً ولا شئ آمل به.

– هذا لا يعني شيئاً يمكنك أن ترفضي كل التوقعات بالبصيرة والعقل، فهذا لا يعيق شيئاً. توقع الاعتراض إلا أنه لم يظهر شئ وشعرت بعدالة هذه الكلمات. فجأة نهض من مكانه وذهب كي يستلقي في الفراش. أخذت أروح وأجئ في الغرفة. تجددت فكرتي على حين غرة. وفي واقع الأمر لمع آمل ما. صرت آمل دون أن أخجل.

بعد الاستيقاظ صرت طلقاً ومرحاً وملحاحاً. هو تماماً أراد بذلك الانتصار على الحزن الداخلي المهين وإغاظتي.

نظرت إلى نزواته الغريبة بحالة من الارتباك. فهو كما لو كان يريد توجيه كل شئ في مجرى الضحك كي يحرجني إلا أنني اكتفيت بالنظر إليه بعينين ذاهلتين.

– قلت، أخيراً، ببساطة: أنت لست حسناً ولا طيباً.

– لماذا؟ ماذا فعلت؟

– كنت أفضل في باريس وتورينو. لماذا أنت بهذا المرح؟

– هذا المرح مؤسف – قال هذا وخرج ثم سرعان ما عاد ثانية.

– حالتي سيئة – قال ذلك بجدية وكآبة – أنظر إلى كل شئ كما لو كان من خلال الالتزام، كما لو كنت أتعلم درساً. كنت أعتقد أنني، على أقل تقدير، أسلّيك وأرّفه عنك.

عانقت رقبته بحرارة بيدي الاثنتين وقلت أنه عمل الشئ الكثير لأحلي وإنني مسرورة للغاية.

– قال بحزن وشجن: كلا، أنت تسافرين إلى اسبانيا. ما أشد خوفي وألمي – حلوة هذه التلميحات عن سلفادور. يا لها من طريدة بيني وسلفادور! وأية لجة من التناقضات في موقفه مني.

توجه دوستويفسكي، مرة ثانية، إلى النكتة وعندما خرج قال إنه من المهانة أن يتم تركي بهذا الشكل (كانت الساعة الواحدة ليلاً. خلعت

ملابسي الفوقانية واضطجعت في السرير). «لأن الروس لا يتنازلون إطلاقاً»...

(3) – يلمّح دوستويفسكي إلى شغف سوسلوفا بالإسباني سلفادور.

١٦ نيسان ١٨٦٤

عند تابوت الزوجة

فيودور دوستويفسكي، من المفكرة:

تضطجع ماشا على المنضدة. هل سألتقي بماشا؟

أن تحب إنساناً كما تحب نفسك هو شئ مستحيل حسب وصايا المسيح. قانون الفرد فوق الأرض يقيد. أنا أعيق. المسيح وحده كان يستطيع، إلا أن المسيح كان مثلاً أعلى عبر القرون والذي يسعى إليه الإنسان وينبغي أن يسعى إليه حسب قانون الطبيعة. على فكرة، صار جلياً واضحاً كالنهار، بعد ظهور المسيح كمثل أعلى للإنسان في الجسد، أن أسمى وآخر تطور للفرد بالذات ينبغي أن يصل إلى مرحلة يجد فيها الإنسان ويعي بكل قوته، طبيعته ويقتنع بأن المطلب الأسمى الذي يمكن أن يحققه الإنسان إنما من فرديته ومن اكتمالات تطور الأنا لديه – هذا كما لو كان يعني تحطيم هذه السعادة العظمى. وبناء عليه ينسكب قانون الأنا مع قانون الإنسانية. وفي حالة التلاقي، الأنا والكل (على ما يبدو طرفي التناقض) الذين يتبادلان التحطيم الواحد لأجل الآخر، في الآن ذاته، يبلغان الهدف الأسمى لتطورهما الفردي.

هذه هي جنة المسيح. والتاريخ بأسره سواء تاريخ البشرية أو جزئياً كل فرد على حدة هو مجرد تطور وصراع وسعي وتحقيق لهذا الهدف.

ولكن إذا كان هذا هو هدف البشرية النهائي (بعد بلوغه لا لزوم للتطور أي أن تصل وتكافح وتبصر المثل الأعلى في ظل كل سقطاتها وتسعى إليه – هذا يعني أن لا تعيش) فإن الإنسان في بلوغه الهدف ينهي وجوده الأرضي. وهكذا إن الإنسان فوق الأرض فقط كائن متطور، وبالتالي غير مكتمل بل انتقالي.

بيد أن بلوغ مثل هذا الهدف العظيم، حسب محاكماتي، لا معنى له إطلاقاً فيما إذا كان، عند بلوغ الهدف، ينطفئ كل شئ ويختفي أي إذاً لن تكون هناك حياة عند الإنسان حتى بلوغ الهدف. وبالتالي ثمة حياة مستقبلية في الفردوس.

كيف هي، وأين هي، وفي أي كوكب، وفي أي مركز، في المركز النهائي أي في حضن التكوين الشامل أي الرب؟ فنحن لا نعرف. نحن نعرف فقط سمة واحدة للطبيعة المستقبلية للكائن المستقبلي الذي من المستبعد أن يسمى إنساناً وبالتالي ليس في حوزتنا مفهوم كيف تبدو مثل هذه الكائنات. هذه السمة قد تنبأ بها المسيح، المثل الأعلى العظيم والنهائي لتطور البشرية بأسرها وهي:

«أن لا تتزوج ولا تتطاول أو تعتدي بل أن تعيش مثل ملائكة الرب» – هي سمة خطيرة بعمق.

1– لا يتزوجون ولا يتطاولون لأنه لأجل أي شئ، لتطور وبلوغ الهدف، ولا حاجة لتبادل الأجيال.

2– الزواج والتطاول على المرأة كما لو كان نبذاً هائلاً للإنسانية وعزلاً كاملاً للزوجين عن الجميع (يبقى الشئ القليل لأجل الجميع).

العائلة أي قانون الطبيعة هي، مع ذلك، حالة غير طبيعية وأنانية للإنسان.

العائلة – هي المقدس العظيم للإنسان فوق الأرض لأن الإنسان بواسطة هذا القانون يحقق التطور (أي تبادل الأجيال) أي تطور الهدف. ولكن الإنسان، في الوقت نفسه، ينبغي عليه حسب قانون الطبيعة وباسم المثل الأعلى لغايته، أن ينفيه بلا انقطاع. (الازدواجية).

يخطئ الدجالون في دحضهم للمسيحية بالنقطة الرئيسية التالية للدحض:

1– «لماذا لا تسود المسيحية على الأرض فيما إذا كانت هي الحق، ولماذا يعاني الإنسان ويتألم حتى الآن ولا يصير أخاً لأخيه الإنسان؟»

هذا مفهوم جيداً: لأنه المثل الأعلى لحياة الإنسان المستقبلية النهائية وأما على الأرض فالإنسان في حالة انتقالية. هذا سيحصل إلا أنه سيحصل بعد بلوغ الهدف عندما يتجدد الإنسان ويتحول حسب قوانين الطبيعة نهائياً إلى طبيعة أخرى أي لا تتزوج ولا تتطاول. المسيح نفسه وعظ بتعاليمه فقط كمثل أعلى هو نفسه التكهن بحيث أنه، وحتى نهاية العالم، سيكون هناك صراع وتطور لأن هذه هي قوانين الطبيعة ولأن الحياة متطورة على الأرض وهناك الوجود المملوء تركيباً والذي «لن يكون أكثر من ذلك».

2– الملحدون الذين ينكرون الرب والحياة الآخرة يميلون إلى تصوير كل شئ في الصيغة البشرية. طبيعة الرب متناقضة مباشرة مع طبيعة الإنسان. والإنسان حسب الحصيلة العظيمة للإنسان ينتقل من التنوع إلى التركيب، ومن الحقائق إلى تعميمها وإدراكها ووعيها. بينما طبيعة الرب شئ آخر. إنها تركيب كامل للوجود بأسره، يرى نفسه في التنوع، في التحليل. ولكن إذا كان الإنسان ليس إنساناً – فما هي طبيعته؟

يستحيل فهم ذلك على الأرض بيد أنه يمكن الاحساس الداخلي بقانونها ومن قبل البشرية بأسرها في حالات الفيض المباشرة (بردون، أصل الإله) ومن قبل كل شخص.

هذا هو مزج الأنا الكاملة أي المعرفة والتركيب مع الكل. «أحبب كل شئ كما تحب نفسك». هذا مستحيل على الأرض لأنه يتعارض مع قانون تطور الفرد وبلوغ الهدف النهائي الذي يرتبط به الإنسان. وبناء عليه، هذا القانون ليس مثالياً كما يقول الدجالون.

وعليه، كل شئ يتعلق بما يلي: هل يتم القبول بالمسيح كمثل أعلى نهائي على الأرض أي بالإيمان المسيحي لأنك عندما تؤمن بالمسيح فأنت تؤمن بأنك ستحيا أبداً؟

هل ثمة حياة مستقبلية في مثل هذه الحالة لأجل أي أنا؟ يقال إن الإنسان يتحطم ويفنى بالكامل.

لهذا السبب نحن نعرف أنه ليس بالكامل وأن الإنسان الذي يولد الابن ينقل إليه جزءاً من شخصه مثلما يترك ذاكرته للبشر أخلاقياً ومعنوياً أي أن جزءه السابق العائش على الأرض يدخل ضمن تطور البشرية المستقبلي. نحن نلاحظ بجلاء أن ذاكرة مطوري الإنسان العظام تعيش بين البشر (مثلما هو تطور الأشرار) بل حتى السعادة العظيمة لأجل الإنسان تقترب منهم. هذا يعني أن جزءاً من هذه الطبائع تدخل جسدياً في كيان بشر آخرين. فالمسيح بكليته ولج البشرية والإنسان يسعى للتحول إلى مسيح كما لو كان مثله الأعلى. وهو ببلوغه هذه النقطة سيرى بوضوح أن جميع الأهداف التي تم بلوغها على الأرض قد دخلت في تركيب طبيعتها النهائية أي في المسيح. (الطبيعة التركيبية للمسيح مدهشة. وطبيعة الرب هذه تعني أن المسيح هو انعكاس للرب على الأرض). هذا ومن الصعب تصور كيف ستنبعث كل أنا في تركيب مشترك. ولكن ما هو حي لا يفنى حتى بلوغ الهدف أي يجب أن يحيا في التركيب النهائي الأبدي.

وهكذا يسعى الإنسان على الأرض نحو المثل الأعلى بما يتعارض مع طبيعته. وعندما لا ينفذ الإنسان قانون السعي إلى المثل الأعلى، فهو يحس بالألم وسمى تلك الحالة إثماً. وهكذا ينبغي على الإنسان، بصورة متواصلة، الشعور بالألم الذي يعادل المتعة الفردوسية لتنفيذ القانون أي بالتضحية. هذا هو التساوي على الأرض وإلا تكون الأرض بلا جدوى.

تعاليم الماديين هي الخمول الشامل وميكانيكية المادية تعني الموت. وتعاليم الفلسفة الحقة هي تحطيم الخمول – الجمود أي الفكر، أي مركز وتركيب الشكل المسكوني الظاهري – الجوهر أي الإله، أي الحياة اللانهائية.

صيف ١٨٦٦ في لوبلينا

ماريا ايفانوفا:

أمضى فيودور دوستويفسكي صيف عام 1866 في لوبلينا عند عائلة ايڤانوف. كانت هذه العائلة تشغل مزرعة كبيرة غير بعيدة عن الحديقة. وتزداد العائلة عددياً صيفاً إذ كان آ.ايڤانوف يستقبل طلبة يحلون ضيوفاً عليه وخاصة لا مكان لهم يذهبون إليه وكان مسموحاً للأولاد أن يدعوا الرفاق والصديقات. وبما أن دوستويفسكي كان يحتاج ليلاً إلى سكينة كاملة (هو عادة، كان يكتب ليلاً) بينما مزرعة ايڤانوف تزدحم بالناس، فهنا طفل يبكي وهناك شباب عائدون من النزهة وينهضون قبيل الفجر بغية الذهاب إلى صيد السمك – استقر دوستويفسكي (إلى جانب المزرعة) في دار صيفية حجرية فارغة من طابقين حيث شغل فيها غرفة واحدة فقط ويزوره للمبيت عنده خادم ايڤانوف لأنهم كانوا يخشون إبقاءه وحيداً بسبب إطلاعهم على نوباته. غير أنه أصيب بنوبة واحدة خلال هذا الصيف.

ذات مرة رفض الخادم الذي كان يأتي للمبيت عند دوستويفسكي، رفضاً حازماً المبيت ثانية. عندما استفسرت عائلة ايڤانوف روى لهم أن دوستويفسكي يدبر خطة لقتل شخص ما وهو طوال الليالي يمشي ذهاباً وإياباً في الغرف ويتحدث بصوت مسموع (كان دوستويفسكي يكتب، في

هذا الوقت «الجريمة والعقاب»). كان دوستويفسكي يقضي أيامه في النهار والليل مع الشبيبة. رغم أن عمره خمسة وأربعين عاماً إلا أنه حافظ على الرفقة الشبابية وكان أول مبتكر لمختلف أنواع التسليات والألاعيب. من حيث المظهر الخارجي يبدو أصغر من عمره. يلبس دوماً، بأناقة، قميصاً منشى وبنطلوناً رمادياً وجاكيت أزرق فضفاضاً. كان دوستويفسكي يعتني بمظهره الخارجي ويتكدر للغاية مثلاً عندما تكون ذقنه خفيفة. وكانت بنات الإخوة تستغل نقطة الضعف هذه وتثير الخال. ورغم قرب دوستويفسكي القريب من أولاد عائلة ايڤانوف فقد كان يخاطب الجميع بصيغة الاحترام ولم يتخل عن ذلك رغم كل المحاولات.

نيقولاي فون – فوخت:

في ذاك الزمن البعيد مثلت لوبلينا ركناً مريحاً وهادئاً للغاية. كانت البيوت الصيفية محاطة بحديقة قديمة فتانة ملاصقة بالجانب الشمالي من بحيرة جارية كبيرة، ومن الجنوب حديقة تلتقي في نهايتها مع غابة كبيرة وتمتد في الاتجاه نحو پيريرڤينسكايا سلوبودا. كانت لوبلينا، بشكل عام، محاطة بالغابات لذا شكلت نقطة صحية للإقامة الصحية. وكان المصطافون في البحيرة يستفيدون من السباحة وصيد السمك. وحول حوض السباحة تجتمع الزوارق المجانية من مختلف الأنواع. وبشكل عام يمكن قضاء الصيف في لوبلينا في جو من المسرات والشئ الإيجابي هو أن سكان

المدن لا يؤمون هذا المكان فهنا لا توجد السماورات ولا آلات الشارمانكا الموسيقية والبهلوانات وغيرها من التسليات لأجل الشعب البسيط. كان الجو في لوبلينا دوماً هادئاً وساكناً...

كان فيودور دوستويفسكي، كعادته، ينهض حوالي التاسعة صباحاً فيشرب الشاي والقهوة، وفي الآن ذاته يجلس وراء المكتب للعمل الذي كان يقطعه وقت الغداء أي في الثالثة بعد الظهر. غداؤه عند عائلة ايڤانوف بعدها يبقى هناك حتى المساء. وعليه نادراً ما كان فيودور يكتب في الأمسيات رغم أنه كان يقول إن أفضل الأماكن المعبرة من مؤلفاته كانت تنطبع في ذهنه عندما كان يكتب في وقت متأخر من الليل. بيد أن الشغل المسائي كان محظوراً عليه لأنه يثير منظومته العصبية الهائجة دون هذا.

ماريا ايفانوفا:

كان دوستويفسكي يحب ملاحظة الجوانب السلبية والمضحكة لدى أحد الحاضرين ويتسلى متتبعاً مزحات وارتجالات ضحيته. كانت الشبيبة ترد عليه بشجاعة فيحدث تبادل لملاحظات لاذعة. والأكثر مرحاً ومتعة كان يحدث أثناء العشاء...

الوقت الأكثر مرحاً هو بعد العشاء. كانوا يلعبون ويتنزهون حتى الثانية – الثالثة ليلاً ويذهبون إلى كوزمينكي وتساريتسينا.

كان ينضم إلى رفقة عائلة ايڤانوف مصطافون من المعارف يعيشون في لوبلينا كجيران. شغل فيودور المكان الأول في جميع الألعاب والنزهات. كان أحياناً يترك الحضور أثناء الألعاب ويذهب إلى المنزل كي يجلس ويكتب شيئاً ما. في مثل هذه الحالات كان يطلب منهم أن يأتوا لأجله بعد دقائق عشر. ولكن عندما كانوا يأتون إليه وهو المنغمس في الكتابة كان يطردهم. وبعد فترة من الوقت كان هو نفسه يعود إليهم فرحاً ومستعداً، ثانية لمواصلة اللعب. لم يكن يحب إطلاقاً الحديث عن عمله.

كان أفراد عائلة ايڤانوف يحبون اللعب بالأقوال المأثورة. وكالعادة كانوا يعطون فيودور دوستويفسكي الكلمة الأكثر صعوبة. كان يروي في الرد على السؤال، قصة طويلة، صفحة إلى ثلاث بحيث كان يستحيل حزر الكلمة. وغالباً ما كان يروي في الأمسيات قصصاً ملتهبة أو يقترح على الحاضرين الاختبار التالي: الجلوس في غرفة خاوية أمام المرأة خمس دقائق وانظر إلى نفسك في العينين دون انقطاع. حسب كلماته هذا شئ فظيع للغاية وتقريباً يستحيل تنفيذه.

نيقولاي فون – فوخت:

من بين بنات آ.ايڤانوف فتاة ناشئة وموسيقية ممتازة وشديدة الخوف. كان دوستويفسكي يعرف جيداً هذه النقطة ويروي لها، عن عمد، عشية الرقاد

قصصاً فظيعة خيالية لم تستطع ماريا بسببها أن تغفو وتظل مستيقظة لفترة طويلة. كان دوستويفسكي يتلهى بذلك إلى أقصى الحدود.

ماريا ايفانوفا:

غير بعيد عن عائلة ايڤانوف كانت تعيش أسرة ماشكوڤتسيڤايا. سافر الوالدان خارج البلاد وتركا في الدار عدة بنات تتراوح أعمارهن ما بين الأربعة عشر والسبعة عشر عاماً تحت إشراف مربية ألمانية. كانت هذه المربية صارمة إلى أبعد الحدود وتتعامل معهن كما لو كنّ أولاداً صغاراً. في الساعة التاسعة وقت الرقاد ومن قبيل الاحتياط كانت تجمع الأحذية ليلاً خوفاً من إمكانية النزهات السرية. لم يستطع دوستويفسكي تحمل هذه الألمانية ويسميها « رجل دجاجة في تنورة مطوقة» وبشفق على الذين تربيهم. اقترح، ذات مرة، أن يأخذ معه الأحذية اللازمة والتوجه في وقت متاخر من المساء إلى منزل ماشكوڤتسيڤايا. هنا أمام نافذة المربية غنى رومانس بوشكينياً «أنا هنا اينزيليا...» وعندما صار جلياً أن المربية نائمة بعمق ولا تستيقظ على صوت الغناء فإن الرفقة دارت حول الدار وساعدت البنات على التسلل خارجها وأعطتهن الأحذية المناسبة وأخذت معها البنات. استمرت مثل هذه الألاعيب عدة ليالٍ بالتوالي...

نيقولاي فون – فوخت:

كانت النزهات عادة ما تنتهي بألعاب مختلفة في الحديقة تمتد، أحياناً، إلى منتصف الليل وإذا هطل المطر فسوف يطاردهم إلى بيوتهم. وكان دوستويفسكي يشارك أنشط مشاركة في هذه الألعاب ويظهر أروع حذاقة في الابتكار حتى أنه ظهرت عنده، ذات مرة، فكرة إنشاء مسرح مكشوف كان ينبغي علينا أن نقدم فيه عروضاً ارتجالية. ولأجل خشبة المسرح اخترنا منصة خشبية – جذع شجرة عمرها مئة عام وشجرة زيزيفون كثيرة الأغصان. في ذاك الوقت انهمكت شبيبتنا في قراءة مؤلفات شكسبير وقرر دوستويفسكي أن يسترجع في الذاكرة مشهداً من « هاملت». حسب إرشاداته كان على المشهد أن يستعاد على الشكل التالي: أنا والابن الأكبر لألكسندر ايڤانوف نخوض حديثاً متذكرين الشبح الذي ظهر منذ فترة للملك الدانماركي السابق. في أثناء هذا الحديث يظهر فجأة شبح الملك في شخص فيودور دوستويفسكي وهو متدثر بالشرشف. يجتاز خشبة المسرح ويختفي ونحن نسقط في حالة من الفزع. بعد هذا يظهر هاملت على الخشبة ببطء (الطبيب الشاب كاريپين ابن أخت فيودور دوستويفسكي) وما إن رآنا ممدين على الأرض حتى توقف وهو يلقي بصراً رهيباً على المشاهدين ونطق، بمهابة، ما يلي: «جميع البشر خنازير!».

أثارت هذه العبارة تصفيقاً مدوياً من جانب الجمهور وبه انتهى المشهد.

تم تصوير مشاهد أخرى وكان دوستويفسكي هو نفسه يشارك فيها على

الدوام. وبكلمة، كان يتلهى معنا مثل طفل مكتشفاً في ذلك، الراحة والهدوء بعد عمل ذهني مضنٍ على روايته العظيمة.

ماريا ايفانوفا:

أضفى حضور ابن أخت دوستويفسكي الطبيب الشاب ألكسندر كارپيين الكثير من البهجة والسرور على عائلة ايڤانوف. عمره ستة وعشرون عاماً، غير متزوج ويحمل سمات من الغرابة. جميع مغامرات پيكويك (تشارلز ديكينز) حدثت معه. ورغم أنه أنهى كلية الطب وصار طبيباً في مستشفى پاڤلوڤسك كان في الحياة تقريباً أبلهاً. كان مادة للنكات والمزحات والتهكمات التي لا ينضب معينها بالنسبة إلى رفقة عائلة ايڤانوف من الفتيان. وأنشد دوستويفسكي، ذات مرة، أشعاراً مسلية على شرفه.

صحيح أنه لم يكن متأهلاً إلا أنه كان يحلم بعروس مثالية لا تكون أكبر من ستة عشر – سبعة عشر عاماً والتي كان يغار عليها من الجميع مسبقاً. وكان يكره النساء المتحررات ويقول إن زوجته ستكون بعيدة عن جميع الأفكار الحديثة حول المساواة النسائية والعمل. في ذاك الوقت أكب الجميع على قراءة رواية تشيرنيشيفسكي « ما العمل». كانوا يغيظون كارپيين منبئين إياه بزوجة مصيرها كمصير بطلة الرواية. أخبره دوستويفسكي، ذات مرة، أن الحكومة تشجع هروب الزوجات من الأزواج في بطرسبورغ لأجل تعليمهن الحياكة على آلات الخياطة وأنه تم لأجل

الزوجات الهاربات ترتيب قوافل خاصة. صدق كاريپين وحزن وخرج عن طوره وصار مستعداً حتى للمشادة من أجل عروس المستقبل. واقترح دوستويفسكي تركيب محكمة مسرحية ارتجالية لمحاكمة كاريپين وزوجة المستقبل.

مثل دوستويفسكي دور القاضي في بلوزة حمراء للأخت مع سطل على الرأس وبنظارة ورقية. إلى جانبه السكرتير جالساً وهو يكتب. صوفيا ألكسندروڤنا ايڤانوفا وكاريپين – زوج وزوجة متهمان. يلقي فيودور دوستويفسكي كلمة رائعة دفاعاً عن الزوجة التي تريد الهرب إلى بطرسبورغ وتعلم الخياطة على آلة الخياطة.

بالنتيجة يتهم الزوج ويحكم عليه بالنفي إلى القطب الشمالي. كاريپين يحزن ويلقي بنفسه على دوستويفسكي. ثانياً – في القطب الشمالي. ثلج في كل مكان من شراشف وقطن أبيض مندوف. كاريپين جالس وهو يشكي من مصيره. يقترب دوستويفسكي في هيئة دب أبيض ويلتهمه. غالباً ما كان يتم تنظيم مثل هذه التمثيليات. ذات مرة مثلوا على سبيل المزاح «الشال الأسود» لبوشكين.

وكثيراً ما كان دوستويفسكي يتجادل مع الشباب الموجودين في عائلة ايڤانوف بصدد «النهليستية» الدارجة وحول مسألة ما هو أعلى: «الجزمة أو بوشكين». دافع دوستويفسكي عن قيمة شعر بوشكين ببلاغة (الجزمة تعني الجاهل).

نيقولاي پوليانسكي (1862 – 1938)، كاتب:

ذات مرة بينما كنا نجلس في روضة صغيرة أمام الشرفة حيث كومات من الأعشاب المقطعة لتوها. كانت معي المربية العجوز پيلاجيا، وعلى الشرفة نشرب الشاي.

كان مساءً رائعاً ودافئاً. لاحت الشمس من بعيد كما اقترب سديم الليل.

أنهى دوستويفسكي فنجان الشاي ووقف ونزل عن الشرفة. نظر متأملاً في الحديقة. وفجأة لاحظني مع المربية فاقترب منا وهبط إلى الأعشاب المجففة وألح عليها في اللعب معه...

نهض فرفعني على يديه وأجلسني على الكتف وسار بسرعة في الطرقات الضيقة مصوراً حصاناً وفارساً... قطع غصناً من الشجرة وأعطاني إياه في يدي وأنا أخذت ضاحكاً ألاحقه بهذا الغصن الأملود.

من الواضح أن هذه هي تسليته الصغيرة بعد أعمال الكتابة في ذاك المزاج الكئيب الذي كان يعانيه.

وأخيراً تركني فيودور وعاد إلى الشرفة مبتسماً وهو يلهث قليلاً...

لقد تسلّى ثم جلس إلى الطاولة ودخل في الحديث راوياً كيف كان يحب مهارشة الأطفال. وقد توجه إلى أمي «كما لو كان يعتذر» وقال:

– هل تعلمين، أنا أحب الصغار حباً جماً. هذه هي نقطة ضعفي. أنقل هنا الكلمات الأصلية لأمي المرحومة.

رواية «المقامر» والتعرف إلى آنّا سنيتكينا

ألكسندر ميليوكوف:

في عيد نعش مريم العذراء أي الأول من تشرين الأول زرت دوستويفسكي القادم حديثاً من موسكو. تمشى بسرعة في أرجاء الغرفة وسيجارة اللف في يده وكان، على ما يبدو منزعجاً من شئ ما.

– فسألت: لماذا أنت كئيب هكذا؟

– أجاب: ستكون كئيباً عندما تهلك نهائياً! دون أن ينقطع عن الذهاب والإياب.

– كيف! ماذا يجري؟

– أنت تعرف العقد الذي وقعته مع ستيلوفسكي؟

– حدثتني عن العقد ولكنني لا أعرف التفاصيل.

– انظر.

اقترب من المكتب وسحب منه ورقة أعطاني إياها بينما هو نفسه عاود الخطوات في الغرفة. أنا ارتبكت. بغض النظر عن المبلغ الزهيد الذي بيع لقاءه العمل نصت مواد العقد على مادة يلتزم فيها دوستويفسكي بتقديم العمل – الرواية الجديدة وغير المطبوعة في أي مكان آخر سابقاً وبحجم

لا يقل عن عشر ورقات مطبوعة من الحجم الكبير إلا فإن ستيلوفسكي يملك الحق بإعادة طباعة جميع مؤلفاته المستقبلية دون أي تعويض.

– سألت: هل أنجزت الشئ الكثير من الرواية الجديدة؟ وقف دوستويفسكي أمامي وقال:

– ولا سطراً واحداً!

هذا الأمر أدهشني.

– قال بسخرية: هل تفهم الآن لماذا أهوي؟

– فقلت: كيف يمكن هذا؟ ينبغي تحقيق شئ ما!

– ماذا أعمل عندما يبقى شهر واحد على المهلة. كتيب لأجل «البشير الروسي» صيفاً إلا أنه ينبغي إعادة كتابته والآن تأخر الوقت ولن تنجز عشر أوراق كبيرة خلال أربعة أسابيع.

لذنا بالصمت. جلست إلى الطاولة بينما هو تابع خطواته في الغرفة.

– قلت: لا يجوز إخضاع نفسك للآخرين على الدوام ويجب إيجاد مخرج ما من هذا الوضع.

– أي مخرج! لا أرى أي مخرج.

– تابعت كلامي: هل تعلم أنك قد كتبت لي من موسكو أن مخططاً لرواية جديدة جاهز الآن؟

– نعم موجود إلا أنني أقول لك بأنه لم ينجز سطر واحد منه.

– تعال ندعو إلى لقاء يجمع عدداً من زملائنا الأحباب. وأنت تروي لنا الخط العام للرواية ونحن نسجل أقساطها ونجزئها حسب الفصول ونكتب بقوانا المشتركة. أنا واثق من أنه لن يرفض أحد الفكرة. بعد ذلك أنت تلقي نظرة شاملة على ما تم إنجازه وتستبعد كل الاعوجاجات أو التناقضات. بتعاوننا يمكن أن يتيسر لنا الإنجاز ضمن المهلة. وسوف تبعد رواية ستيلوفسكي وتفلت من الأسر. وإذا كنت آسفاً على موضوع الرواية فإننا سنبتكر شيئاً ما جديداً.

– أجاب بحزم: كلا، لن أوقع إطلاقاً اسمي تحت عمل الآخرين.

– إذن أحضر كاتب اختزال ويجب عليك أن تملي عليه الرواية بأكملها: أظن أنك خلال شهر سيتيسر لك إنجازها. تأمل دوستويفسكي في الفكرة وخطا خطواته المعتادة في الغرفة وقال:

– هذا شئ آخر... أنا لم أمْل إطلاقاً على أحد مؤلفاتي ولكن يمكن التجريب... نعم لا وسيلة أخرى. شكراً لك،من الضروري القيام بذلك رغم أنني لا أعرف فيما إذا كنت قادراًعلى مثل هذه الخطوة.. ولكن أين أجد كاتب الاختزال؟ هل عندك معارف؟

– كلا، ولكن ليس صعباً إيجاده.

– ابحث، ابحث، أسرع بقدر الإمكان.

– غداً.

كان فيودور دوستويفسكي في حالة من القلق والاضطراب ومن الواضح أنه بدأ يأمل بامكانية الخروج من هذا الوضع الصعب ولكن في الوقت نفسه لم يكن بعد واثقاً من نجاح العمل الجديد بالنسبة إليه. وفي الوقت التالي توجهت إلى أحد الموظفين لدي واسمه يه.ف.ڤرو بالسؤال التالي: هل عندك كاتب اختزال وشرحت له في سياق السؤال ما هو المطلوب. وعدني بالذهاب إلى أحد معارفي واسمه پ.م.اولخين الذي افتتح منذ عدة أشهر دورات لتعليم الاختزال ومعظم روادها من النساء. وهكذا في اليوم التالي ظهرت أمام دوستويفسكي وبتوصية من اولخين كاتبة اختزال من خيرة تلميذات هذه الدورات واسمها آنّا غريغوريڤنا سنيتكينا. بعد الشروحات بصدد تفاصيل العمل والشروط بدأ اختزال رواية «المقامر» بتاريخ الرابع من تشرين الأول.

آنّا دوستويفسكايا:

أنا كنت على استعداد وأخذ فيودور دوستويفسكي يمشي في الغرفة بخطوات سريعة مائلة إلى الموقد. في هذه اللحظات كان يدخن، وغالباً ما كان يرمي بسيجارة اللف غير المدخنة حتى النهاية، في المنفضة الموجودة في طرف المكتب.

بعد أن أملى فيودور لفترة من الوقت رجاني أن أقرأ ما كتبته، ومن الكلمات الأولى أوقفني:

– كيف «عدت من روليتينبورغ»؟ هل نطقت بشئ عن روليتينبورغ؟

– نعم يا فيودور دوستويفسكي، قد أمليت عليّ هذه الكلمة.

– مستحيل!

– اسمح لي، هل توجد في روايتك مدينة بهذه التسمية؟

– نعم تجري الأحداث في مدينة القمار التي سميتها روليتينبورغ.

– إذا كانت توجد مثل هذه المدينة فأنت، بلا شك، أمليتها وإلا من أين نبعت؟

– أدرك دوستويفسكي ذلك قائلاً: أنت على حق فأنا خلطت شيئاً ما بشئ ما.

كنت راضية جداً من أن سوء الفهم قد انكشف واتضح كلياً. أظن أن فيودور دوستويفسكي كان منغمساً للغاية في أفكاره وربما كان يومها منهمكاً لذا حدثت هذه الغلطة. هو نفسه، على فكرة، شعر، حسبما قال، أنه غير قادر على الإملاء أكثر من ذلك وطلب تحويل ما تم إملاؤه إلى الساعة الثانية عشرة في الغد. وعدته بتنفيذ رجائه...

في اليوم التالي نهضت باكراً وشرعت فوراً في العمل. ما تم إملاؤه لم يكن كثيراً نسبياً إلا أنني رغبت بإعادة الكتابة بصورة أكثر دقة وجمالاً وهذا تطلب وقتاً أكثر. وبغض النظر عن الاستعجال فقد تأخرت نصف ساعة.

وجدت فيودور دوستويفسكي في حالة من القلق والاضطراب.

– لقد قال: بدأت أفكر وأنا أصافحك أن العمل عندي بدا لك ثقيلاً وأنك لن تأتي بعد الآن. على فكرة، أنا لم أسجل عنوانك وخشيت أن أضيع ما تم إملاؤه البارحة.

– اعتذرت قائلة: أشعر بوخز الضمير أنني تأخرت إلا أنني أؤكد لك أنه إذا لزم الأمر أن أتخلى عن العمل فأنا، بالطبع سأعلمك وسأعطيك النص الأصلي الذي أمليته عليّ.

– شرح دوستويفسكي: لهذا السبب أنا مشغول البال لهذه الدرجة إذ سيلزمني كتابة هذه الرواية لغاية الأول من تشرين الثاني. وعلى فكرة لم أضع حتى أية خطة للرواية الجديدة. وأعرف أنه يجب أن لا تكون أقل من سبع أوراق طباعة ستيلوفسكي.

صرت أستوضح عن التفاصيل وشرح لي الفخ الشائن الذي اصطادوه فيه...

هكذا بدأ عملنا واستمر. كنت آتي إلى داره الساعة الثانية عشرة وأبقى عنده حتى الرابعة. وخلال هذه الفترة كان يملي عليّ بمعدل نصف ساعة ثلاث مرات في اليوم الواحد. وما بين الإملاءات كنا نحتسي الشاي ونتحدث. صرت ألاحظ بفرح وسرور أن دوستويفسكي بدأ يعتاد على طريقة العمل الجديدة بالنسبة إليه ومع كل حضور لي كان يصبح أكثر هدوء وسكينة. لوحظ هذا الأمر خاصة منذ ذاك الوقت عندما حَسَبَ الصفحة الواحدة من طباعة ستيلوفسكي وما تعادله من صفحاتي

المستهلكة وأنا استطعت بدقة تحديد الكم الذي تيسر لنا إملاؤه. وكل الكم المضاف من الصفحات ساعد في تنشيط فيودور وبث السرور في كيانه. فهو غالباً ما كان يسألني: «كم من الصفحات كتبنا البارحة؟ وما هو المنجز بشكل عام؟ ما هو رأيك هل سننهي ضمن المهلة؟»...

كلما مضى كم من الوقت كان دوستويفسكي يعتاد أكثر فأكثر على العمل. فهو لم يعد يملي عليّ شفهياً بل وعلى الفور كان يؤلف وهو يعمل ليلاً ويملي عليّ من المسودة. كان يتيسر له أحياناً أن يكتب كثيراً لدرجة أنه لزمني الأمر أن أجلس إلى ما بعد منتصف الليل وأنا أعيد كتابة ما أملاه. لهذا السبب أعلنت بشئ من المهابة والاحتفالية ليوم الغد عد الأوراق المضافة! لقد سرتني كثيراً ابتسامة دوستويفسكي البهيجة رداً على تأكيداتي لأن العمل يسير بنجاح وأنه سيتم إنجازه بالكامل ضمن المهلة المقررة...

جرى في التاسع والعشرين من تشرين الأول إملاؤنا الأخير. رواية «المقامر» أنجزت. خلال الفترة ما بين 4 و29 تشرين الأول أي خلال ستة وعشرين يوماً أنجز دوستويفسكي كتابة الرواية بحجم سبعة أوراق في عمودين وبحجم كبير أي ما يعادل عشر أوراق عادية. كان فيودور راضياً كل الرضا عن ذلك وذكر لي أنه بعد أن يسلم المخطوط إلى ستيلوفسكي يعتزم دعوة أصدقائه (مايكوف وميليوكوف وغيرهما) إلى غداء في المطعم ويدعوني مسبقاً للمشاركة في الحفل (المأدبة).

– سألني: هل كنت في حياتك في مطعم ما؟

– كلا، إطلاقاً.

– ولكن ستأتين على غدائي؟ أود أن أرفع نخب صحة مساعدتي العذبة! بدون مساعدتك ما كان بإمكاني أن أنهي الرواية في الوقت المطلوب. وهكذا هل ستأتين؟

أجبت بأنني سأسأل الإذن من والدتي وأنا بالنسبة إلي فأنا قررت بيني وبين نفسي أن لا أذهب.

في اليوم التالي الثلاثين من تشرين الأول أحضرت إلى دوستويفسكي إملاء الأمس المبيّض. استقبلني بشئ من الترحاب المميز بل حتى الحمرة انهالت على وجهه عندما دخلت. وكالعادة حسبنا الأوراق المبيضة وانتشينا من الفرح لأن العدد كان أكثر من المتوقع. وأعلمني فيودور دوستويفسكي أنه سيعيد قراءة الرواية ويعدل فيها شيئاً ما وفي صباح الغد سيسلمها إلى ستيلوفسكي. وهنا سلّمني خمسين روبلاً حسب شروط الدفع وصافحني بقوة وشكرني بحرارة على التعاون.

مكتبة telegram @t_pdf

حب جديد وزواج ثانٍ

آنّا دوستويفسكايا:

الثامن من تشرين الثاني عام **1866** هو يوم من الأيام المشهورة في حياتي. ففي هذا اليوم قال لي فيودور دوستويفسكي أنه يحبني ورجاني أن أكون زوجته. مضى نصف قرن على ذاك الوقت ولكن جميع تفاصيل ذاك اليوم جلية في ذاكرتي وكأنها حدثت في الشهر الفائت.

كان يوماً صقيعياً مضيئاً. توجهت إلى دوستويفسكي سيراً على الأقدام لأنني تأخرت نصف ساعة عن الوقت المتفق عليه. على ما يبدو كان دوستويفسكي ينتظرني منذ فترة لا بأس بها وما أن سمع صوتي حتى خرج إلى البهو على الفور.

– قال لي بفرح: وأخيراً حضرت وأخذ يساعدني في فك القلنسوة وخلع المانطو. دخلنا سوية إلى مكتبه. كان هناك، في هذه المرة، مضاء للغاية وأنا لاحظت، بشئ من التعجب، أن دوستويفسكي كان مضطرباً لسبب ما وعلى وجهه علامات التعبير القلق والبهيج بحيث أن هذا جعله أكثر فتوة وشباباً...

عندما كنت أزوره بصفتي كاتبة اختزال كان يروي لي ما قام به وأين كان في تلك الساعات التي كنا فيها بعيدين أحدها عن الآخر. أسرعت في سؤال دوستويفسكي بماذا كان مشغولاً في الأيام الأخيرة.

– أجاب: ابتدعت رواية جديدة.

– ماذا تقول؟ هل هي ممتعة؟

– بالنسبة إليّ ممتعة للغاية ولا يمكنني البدء من النهاية. فهنا سيكولوجية فتاة شابة. ولو كنت في موسكو الآن لسألت ابنة الأخت صونيا طلب العون.

بكل فخر وإباء أبديت الاستعداد «لمساعدة» الكاتب الموهوب.

– من هو بطل روايتك؟

– فنان غير فتي إلا أنه بكلمة، من عمري.

– سألت: حدثني، حدثني، من فضلك. أنا معنية جداً بالرواية الجديدة.

وهكذا ورداً على رجائي انكب ارتجال ساطع ومتألق. لم أسمع في حياتي من دوستويفسكي لا سابقاً ولا لاحقاً مثل هذا القص الملهم مثلما حدث في هذه المرة. وكلما تابع أكثر اتضح لي أكثر فأكثر بأن فيودور يروي قصة حياته الشخصية مبدلاً فقط الوجوه والظروف. فهنا كان كل ما كان ينقله لي في السابق على أجزاء ومقاطع. والآن شرحت لي هذه القصة الموضوعية المفصلة الشئ الكثير من موقعه من الزوجة المرحومة ومن الأهل.

تضمنت الرواية الجديدة أيضاً الطفولة القاسية والخسارة المبكرة للوالد المحبوب وتلك الظروف المقدرة (المرض الشديد الوطأة) التي انتزعت الفنان عن الحياة وعن الفن الجميل عشر سنوات. كانت هنا عودة إلى

الحياة (شفاء الفنان) ولقاء مع المرأة التي سيحبها: العذابات التي سببها له هذا الحب، ورحيل الزوجة والأقارب (الأخت المحبوبة) والفقر والديون...

إن حالة البطل الروحية ووحدته وعزلته وخيبة أمله في الناس المقربين له والتعطش لحياة جديدة والحاجة للحب والرغبة الجامحة بإيجاد السعادة ثانية، إن كل هذا كان مرسوماً بصورة حية وبموهبة رفيعة بحيث أنها، على ما يبدو، من معاناة المؤلف نفسه وليست مجرد ثمرة واحدة من خياله الفني.

لم يتباخل دوستويفسكي ولم يضن في تصوير بطله، بالألوان الممتعة. حسب كلماته كان البطل قد شاخ قبل الأوان وهو مريض بمرض لا علاج له (شلل في اليد)، عابس، متجهم، شكاك، ولكن بقلب رقيق إلا أنه غير قادر على الإفصاح عن مشاعره. هو فنان، ربما موهوب إلا أنه سئ الحظ ولم يتيسر له ولا مرة في الحياة أن يحقق أفكاره في تلك الأشكال التي كان يحلم بها ولهذا السبب كان يشعر بعذاب دائم.

وأنا أرى في بطل الرواية، دوستويفسكي نفسه، لم أستطع أن أضبط نفسي كي لا أقاطعه بالكلمات التالية:

– لماذا يا فيودور دوستويفسكي أزعجت بطلك وآذيته لهذه الدرجة؟

– أنا أرى أنك غير متعاطفة مع البطل.

– على العكس، متعاطفة للغاية. لديه قلب رائع. تأمل ما أكثر التعاسات التي أصابته وكيف استطاع تحملها بإذعان! فالبطل الذي يعاني هذا القدر

من الأحزان في الحياة كان بإمكانه أن يتصلب أكثر بينما بطلك لايزال يحب البشر ويرنو إلى مساعدتهم. كلا، أنت لم تنصفه إطلاقاً.

– نعم، أنا موافق، لديه بالفعل قلب طيب ومحب. ما أسعدني لأنك فهمتيه!

– واصل دوستويفسكي قصته: في هذه الفترة الحاسمة من حياته يلتقي الفنان في طريقه فتاة شابة عمرها من عمرك أو أكبر بسنتين. لنطلق عليها اسم آنيا كي لا نسميها البطلة. هذا الاسم حسن...

هذه الكلمات رسخت لدي القناعة بأنه في البطلة قصد آنّا ڤاسيليڤنا كورڤين – كروكوفسكايا خطيبته السابقة. في تلك اللحظة نسيت كلياً أن اسمي أيضاً آنّا – ولم أفكر تقريباً أن لهذه القصة صلة بي. كان يمكن لموضوع الرواية الجديدة أن يظهر (هذا ما ظننته) تحت انطباع الرسالة المستلمة منذ فترة من آنّا ڤاسيليڤنا من خارج البلاد والتي ذكرها لي فيودور منذ أيام.

كانت بورتريه البطلة مرسومة بألوان أخرى غير بورتريه البطل.

حسب كلمات المؤلف كانت آنيا وديعة وحليمة وذكية وطيبة ومحبة للحياة وتتمتع بلباقة وحصافة تجاه البشر. في تلك السنوات كانوا يضفون أهمية كبيرة على الجمال النسائي لذا لم أستطع أن أتماسك وسألت:

– هل هي حسنة المظهر بطلتك؟

– ليست فاتنة بالطبع إلا أنه لا بأس بها. أنا أحب وجهها.

بدا لي أن دوستويفسكي أفشى سراً عن غير قصد وقد ضاق صدري، وتملكني إحساس جاف وقاسٍ تجاه كورڤين – كروكوفسكايا لاحظت – بيد أنك يا فيودور أضفيت صفة الكمال على «آنيا» فهل هي كذلك؟

– واصل دوستويفسكي قصته: هي بالذات كذلك! درستها جيداً! التقى الفنان آنيا في الأوساط الفنية وكلما كنت أراها أكثر كان يزداد إعجابي بها وتترسخ القناعة بأنه يمكنه أن يجد السعادة في العيش معها. ومع ذلك بدا له هذا الحلم مستحيلاً تقريباً. في واقع الأمر، ماذا كان باستطاعة هذا الطاعن المريض والمثقل بالديون أن يقدمه إلى هذه الفتاة المعافاة والفتية والمنشرحة والمبتهجة؟ وبشكل عام هل كان باستطاعة فتاة شابة ومتباينة من حيث طبعها وعمرها أن تحب هذا الفنان. ألن يكون هذا الحب تعبيراً عن اللا مساواة السيكولوجية؟ بودي أن أعرف رأيك في هذه النقطة يا آنّا.

– لماذا هذا مستحيل؟ فإذا كانت آنيا، كما تقولون عنها، ليست فتاة لعوبة تافهة بل تمتلك قلباً طيباً وعطوفاً فلماذا إذن لا تحب فنانك؟ وماذا يمنع إذا كان مريضاً وفقيراً؟ هل من المعقول أن يكون الحب لقاء المظهر الخارجي أو الثراء فحسب؟ وأين التضحية من جانبها إذن؟ إذا كانت تحبه فهذا يعني أنها هي نفسها سعيدة ولن يلزمها الندم إطلاقاً!

تحدثت بحرارة وفيودور نظر إليّ بحالة من الاضطراب.

– وأنت هل تصدقين جدياً أنه كان بإمكانها أن تحبه بإخلاص ومدى لحياة؟

صمت كما لو كان يتردد.

– قال بصوت متهدج: ضعي نفسك لحظة واحدة مكانها. تصوري أن هذا الفنان هو – أنا وأنني أفصحت عن حبي لك ورجوت أن تكوني زوجتي. قولي ما هو ردك؟

عبّر وجه دوستويفسكي عن هذا الارتباك وهذا العذاب القلبي بحيث أنني فهمت، أخيراً، أن هذا ليس مجرد حديث أدبي وأنني أوجه ضربة مريعة إلى عزة نفسه وكبريائه فيما إذا أعطيت رداً مراوغاً. نظرت إلى وجه دوستويفسكي العزيز علي والقلق والمضطرب وقلت:

– لأجبت بأنني أحبك وسأحبك مدى الحياة!

لن أنقل تلك الكلمات الرقيقة والمفعمة بالحب التي قالها لي دوستويفسكي في تلك اللحظات الخالدة الذكر. فهي، بالنسبة إليّ، مقدسة... فأنا كنت مذهولة، وتقريباً مسحوقة بهول سعادتي ولم أستطع، لفترة طويلة، أن أصدقه. وبقدر ما أذكر أن فيودور، بعد مضي ساعة تقريباً، صار يعلمني بخطط مستقبلنا واستوضح عن رأيي فأجبته:

– وهل أستطيع الآن مناقشة شي ما! فأنا سعيدة إلى درجة الإرعاب!!...

بدأ فيودور دوستويفسكي يتذكر، ولحسرتي الشديدة أعترف بأنه في الأسبوع الأول من تعارفنا لم يلمح وجهي إطلاقاً.

– في حالة من التعجب: كيف لم تلمح؟ ماذا يعني هذا؟

– إذا عرضوا عليك تعارفاً جديداً وأنت ستتحدثين معه عدة عبارات اعتيادية فهل ستتذكرين وجهه؟ كلا أبداً؟ أنا، على أقل تقدير، أنسى دائماً. هذا ما حدث في هذه المرة أيضاً: تحدثت معك ورأيت وجهك إلا أنك غادرت وأنا نسيته على التو وما كان باستطاعتي أن أقول – شقراء أم سوداء الشعر فيما إذا أحد ما سألني هذا السؤال. وفقط في نهاية تشرين الأول انتبهت إلى عينيك الرماديتين الجميلتين وابتسامتك الطيبة الحلوة. وقتذاك صار يعجبني وجهك دون استثناء. أما الآن فليس هناك أفضل من وجهك في العالم! أنت، بالنسبة إلي، حسناء فاتنة! وأضاف دوستويفسكي بسذاجة: نعم وبالنسبة إلى الجميع!

– استمر في التذكر: أدهشني فيك أدب السلوك والحصافة التي تمسكت بها وتعاملك الجدي والقاسي تقريباً. اعتقدت: يا له من نموذج جذاب لفتاة جدية وعملية! وفرحت بأنه نشأ في وسطنا. وسقطت مني سهواً كلمة خرقاء وأنت نظرت إلي بحيث صرت أضع تعابير في الميزان خوفاً من أن أهينك. ثم صارت تثير إعجابي وتجذبني تلك المودة المخلصة التي ولجت بها اهتماماتي وذاك التعاطف الذي أظهرتيه بصدد البلية التي تجتاحني. كنت ظننت أن أهلي وأصدقائي، على ما يبدو، يحبونني وأنهم يحزنون لأنني قد أحرم من حقوقي الأدبية قائلين لماذا وقعت مثل هذا العقد (كما لو أنه كان بإمكاني أن لا أوقع)، يقدمون النصائح ويخففون عني بينما أنا أشعر أن كل هذا «كلام وكلام وكلام» ولا

أحد منهم يقترب من القلب وأنه بفقدان الحقوق أحرم آخر ثروة لي... بينما هذه الفتاة الغريبة والتي أكاد لا أعرفها قد دخلت، دفعة واحدة، في حالتي دون تأوه ولا تحسر ولا صياح ولا امتعاض وشرعت في مساعدتي لا بالأقوال بل بالأفعال. وبعد عدة أيام استقر عملنا وانبثق شعاع من الأمل: «لعلي إذا عملت لاحقاً بهذه الصورة فربما سألحق بالمهلة المقررة!»

– هذا ما فكرت به. عززت تأكيداتك بأنه سيتيسر لنا ذلك بالتأكيد (تذكرين كيف حسبنا الأوراق المبيضة) هذا العمل وأضفت علي القوة كي أستمر في العمل. غالباً ما كنت أفكر بيني وبين نفسي وأنا أتحدّث معك «يا له من قلب طيب تحمله هذه الفتاة! فهي ليس بالكلمات بل بالواقع العملي ترأف بي وتود إخراجي من هذه المصيبة». كنت وحيداً نفسياً وروحياً بحيث شكل إيجاد شخص متعاطف معي بإخلاص سعادة كبرى.

– تابع دوستويفسكي كلامه: من هذه النقطة، حسبما أعتقد، بدأ حبي لك ومن ثم أعجبني أيضاً وجهك اللطيف. أخذتني الأفكار عنك ولكن فقط عندما أنهينا «المقامر» فهمت أننا لن نلتقي يومياً وأدركت أنني لا أستطيع العيش بدونك. عند ذاك قررت التقدم إلى طلب يدك.

– شغلني الأمر: لماذا لم تطلب يدي ببساطة مثلما يفعل الآخرون بل ابتكرت روايتك الممتعة؟

– فقال دوستويفسكي بصوت متأثر في عواطفه: هل تعلمين يا عزيزتي أنه عندما شعرت بأنك تعنين شيئاً ما بالنسبة إلي وصلت إلى حالة من القنوط

وإن النية بالزواج بك بدا لي جنوناً بحتاً! فكري فقط: يا لنا من شخصين متباينين! فهنا مثلاً فارق العمر فأنا تقريباً شيخ عجوز بينما أنت تكادين تكونين طفلة. أنا مريض أعاني مرضاً لا شفاء منه، عابس ومتجهم وسريع الضجر والغضب بينما أنت سليمة الجسم والصحة، وحيوية ونشيطة ومنشرحة الصدر. أنا تقريباً عشت عمري وحياتي تخللتها الأحزان بينما أنت دوماً تعيشين حياة طيبة حسنة وكل حياتك قادمة. وأخيراً، أنا فقير ومثقل بالديون. ماذا يمكنك أن تتوقعيه من حالة عدم المساواة هذه أم سنكون تعساء ونتعذب عدة سنوات ثم نفترق أم يلتئم شملنا طوال الحياة المتبقية ونكون سعداء.

آلمني أن أسمع مثل هذا الإذلال للذات من لدن دوستويفسكي واعترضت بكل حمية:

– يا عزيزي! أنت بالغت في كل شئ! فلا وجود لعدم المساواة التي تفترضها أنت. إذا أحببنا بعضنا بعضاً حباً جماً فإننا سنصبح أصدقاء وسعداء أبد الدهر. ما يفزعني هو شئ آخر: فأنت ذاك الموهوب والذكي والمثقف تأخذ رفيقة العمر فتاة حمقاء ضحلة التعلم والثقافة بالمقارنة معك رغم أنني حصلت في الثانوية على ميدالية فضية كبيرة (تباهيت بها كثيراً وقتذاك) ولكنني لست متنورة لدرجة أن أسير على قدم المساواة معك. أخشى أن تكتشفني بسرعة وتحزن وتتكدر لأنني لست مؤهلة لفهم أفكارك. هذه اللا مساواة هي أسوأ من أية تعاسة!

أسرع دوستويفسكي في تهدئتي ناطقاً بالكثير مما هو مشجع ومطرٍ. عدنا إلى موضوع الخطبة الذي أثار اهتمامنا. قال دوستويفسكي: ترددت كثيراً حول كيفية طلب اليد. رجل كهل غير جميل يتقدم إلى خطبة فتاة شابة ولا يصادف التبادل أي يمكن لهذا الأمر أن يبدو مضحكاً وأنا لم أكن أرغب أن أكون مضحكاً في عينيك. وفجأة فيما لو أجبت على طلبي بأنك تحبين شخصاً آخر وعندها تكون جميع علاقاتنا الودية السابقة بلا معنى ولا مغزى، وعندها أكون فقدت في شخصك الصديق والشخص الوحيد الذي اتخذ مني موقف المودة والإخلاص لهذه الدرجة في السنتين الأخيرتين. أكرر، أنا وحيد من صميم القلب بحيث أنه يثقل عليّ الحرمان من صداقتك ومساعدتك. لذا ابتكرت أن أعرف مشاعرك وأنا أروي لك خطة روايتي الجديدة. ويكون من الأسهل تحمل رفضك إذ الحديث تناول أبطال الرواية ولم يخصنا نحن أنفسنا.

وأنا بدوري رويت كل ما عانيته في أثناء خطبتي الأدبية: هذا يعني انه من خلال عدم الاستيعاب والغيرة والحسد تجاه آنا ڤاسيليڤنا وغيرها– أصاب فيودور العجب – أنني هاجمتك على حين غرة وأجبرتك بالقوة على الموافقة! على فكرة أرى أن الرواية المروية من قبلي كانت أفضل من كل ما كتبته: فهي حظيت، على الفور، على النجاح وتركت الانطباع المرتجى!...

ذهبت لزيارة دوستويفسكي عشية العرس نهاراً كي أراه وأعلمه أن أختي ماريا غريغوريڤنا سڤاتكوفسكايا ستزوره في الساعة السابعة كي توضب جميع أشيائي المرسلة في صناديق وعلب وكرتونات كل في مكانه وتهئ الأشياء الضرورية لأجل استقبال الضيوف غداً وكما روت الأخت لاحقاً، فإن دوستويفسكي استقبلها بكل حفاوة وبشاشة وساعدها في فتح الصناديق وترتيب الأشياء وقدم لها الضيافة المطلوبة وخلب لبّها وهي لم تستطع إلا أن توافق على رأيي بأن زوجي المقبل إنسان لطيف وصادق وصريح بصورة عجيبة.

استيقظت في الخامس عشر من شباط مع طلوع ضوء النهار وتوجهت إلى ديرسمولني، إلى القداس المبكر. وعند انتهائه دخلت إلى حيث القمص و. فيليپ سپيرانسكي راجية منه البركة. باركني الأب فيليپ الذي كان يعرفني منذ الطفولة وتمنى لي السعادة ثم غادرت كي أصلي على ضريح والدي في مقبرة بولشوي اوختينسكي.

مضى النهار بسرعة وعند الساعة الخامسة كنت قد سرحت شعري وارتديت فستاناً من الحرير المضغوط مع ذيل طويل. تناسبت التسريحة والفستان مع وجهي وشكلي وكنت راضية عن لك. تقرر العرس في الساعة السابعة، وفي السادسة كان يجب أن يأتي بمرافقتي ابن أخ فيودور دوستويفسكي – فيودور ميخائيلوڤيتش الأصغر الذي اتخذه خطيبي اشبيناً.

التأم شمل أهلي في الساعة السادسة وكل شئ كان جاهزاً إلا أن الاشبين لم يصل بعد ولم يحضروا أيضاً ابن پ.م. اولخين - الصبي الذي كان عليه أن يتقدمني حاملاً الايقونة. شعرت بالقلق. تصورت أن دوستويفسكي أصيب بوعكة وأنا تأسفت لأنني لم أرسل أحداً نهاراً كي يعرف شيئاً عن صحته.

وأخيراً، الساعة السابعة دخل فيودور الأصغر بعجلة إلى الغرفة وقال لي بسرعة: آنّا غريغوريڤنا! هل أنت مستعدة؟ لنغادر! باسم الرب، بأقصى سرعة! العم موجود في الكنيسة وهو قلق للغاية. احتجنا إلى ساعة ركوب في المجئ وسوف نحتاج إلى مثل هذا الوقت لأجل الذهاب. فكروا بالعذاب الذي يعانيه الآن دوستويفسكي خلال ساعتين (ذهاب وإياب).

- قلت: ولكن الصبي لم يحضروه بعد.

- لنغادر دون الصبي فقط من أجل تهدئة دوستويفسكي.

باركوني وتعانقنا مع الماما ولفّوني في معطف فرو. وفي اللحظة الأخيرة ظهر الصبي الطيب كوستيا وهو يرتدي طقماً روسياً جميلاً.

خرجنا. كان جمع غفير على الدرج أي جميع سكان أبنيتنا الذين حضروا للتوديع. بعضهم كان يقبلني وآخرون يصافحون بالأيدي وجميعهم تمنوا السعادة. ألقى أحدهم من فوق حشيشة الدينار الذي كان فألاً حسناً كي «أعيش بثراء» تأثرت للغاية بهذه التوديعات القلبية. جلسنا في العربة وغادرنا بسرعة. بعد عدة دقائق لاحظنا أنا والأخت أن الولد كوستيا بلا

معطف فرو ولا طاقية شتوية. خشينا أن يصاب بالزكام فغطيته بالمانطو العريض الذي ارتديته وبعد فترة قصيرة غط في نوم عميق.

وصلنا إلى كاتدرائية اسماعيلوفسكي. أدار الاشبين وجه كوستيا النائم في معطفه الدافئ وحمله على الدرج العالي إلى الكنيسة. وأنا، بمساعدة الخادم، خرجت من العربة وغطيت الأيقونة بطرحة العروس ودخلت إلى الكاتدرائية. وما إن رآني دوستويفسكي حتى اقترب مني ومسك يدي بقوة وقال:

– وأخيراً، ما أطول الانتظار! أنت الآن لن تفلتي مني!

أردت الرد بأنني لم أعتزم المغادرة إلا أنني بعد أن نظرت إليه ارتعبت من شحوبه. لم يجب دوستويفسكي على كلامي بل قادني بسرعة نحو الأسكي. بدأ التكليل.

كانت الكنيسة مضاءة إضاءة ساطعة والكورس الرائع من المغنين ينشد أغانيه المعتادة. وقد التأم شمل عدد كبير من الضيوف المتأنقين ولكن عرفت كل هذا فيما بعد من الأحاديث. كنت في حالة من الضباب حتى منتصف الطقوس وتعمدت بصورة آلية وبالكاد كنت أسمع أسئلة القسيس. وفقط بعد التقرب صحوت وبدأت الصلاة بحرارة. وبعد التكليل وصلاة الشكر بدأت التهاني ثم أخذني زوجي كي أوقع في كتاب من الكتب.

ألبسوا «الولد مع الأيقونة» وتوجهنا إلى شقتنا الجديدة. كوستيا لم يغط في النوم في الطريق إلا أن الشرير روى لاحقاً أن العم والعمة كانا يتبادلان القبل طوال الطريق.

وصلنا والتأم شمل جميع الضيوف. وباركتنا الماما والأب الروحي مباركة مهيبة. بدأت التهاني برفع كؤوس الشمبانيا. وقد انذهل الحضور الذين لم يعرفوني في وقت التكليل إذ رأوا عوضاً عن الفتاة الشاحبة والجدية في الكنيسة فتاة شاحبة ذات حمرة متوردة وبشوشة ومتألقة بالسعادة. وعرّفني على أصدقائه وقال:

– انظروا يا لها من بديعة وفتانة! إنها عندي – إنسان رائع! قلبها ذهبي وما إلى ذلك من آيات المديح والثناء التي أربكتني بشكل مريع. ومن ثم قدمني إلى السيدات وكان راضياً جداً من أنه استطاع النطق بشئ ما طيب مما أعجبهن.

وأنا بدوري جئت بالزوج إلى أصدقائي وأهلي وكنت سعيدة وأنا ألاحظ الانطباع الساحر الذي تركه فيهن.

كان دوستويفسكي يحب الضيافة لاسيما أن الشمبانيا والسكاكر والفواكه كانت متوفرة.

لم يتفرق الضيوف إلا في الثانية عشرة ونحن جلسنا مدة طويلة سوية متذكرين تفاصيل هذا اليوم بالنسبة إلينا.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى أپوليناريا سوسلوڤا، **23** نيسان **1867**، دريسدن:

رسالتك يا عزيزتي سلموها لي عند بازونوف في وقت متأخر للغاية قبيل سفري خارج البلاد بلحظات. وبما أنني كنت على عجل فلم يتيسر لي الرد عليك. غادرت بطرسبورغ في يوم جمعة ملتهب (على ما يبدو **14** نيسان) منطلقاً حتى دريسدن في طريق طويل للغاية مع وجود استراحات ووقفات لذا فضلت الآن أن أتحدث معك.

يا عزيزتي، أنت لا تعرفين شيئاً عني، وعلى أقل تقدير لم تكوني تعرفين شيئاً وأنت تبعثين برسالتك. تزوجت في شباط من هذا العام. حسب العقد كنت ملزماً بتسليم ستيلوفسكي لغاية الأول من تشرين الثاني العام الفائت الرواية الجديدة بما لا يقل عن عشر أوراق مطبوعة من الطبع العادي وإلا أتعرض لغرامة مريعة. على فكرة كتبت الرواية في «البشير الروسي» إذ نشرت **24** ورقة وبقي لي أن أكتب /**12**/. كان الوقت الرابع من تشرين الأول وأنا لم يتيسر لي البدء بعد. نصحني ميليوكوف أن أتفق مع كاتبة اختزال كي أملي الرواية بما يعجل العمل أربعة أضعاف. أرسل اولخين بروفسور الكتابة الاختزالية أفضل تلميذة لديه كنت قد اتفقت معها على العمل. بدأنا العمل في الرابع من تشرين الأول. كانت كاتبة الاختزال آنّا غريغوريڤنا سنيتكينا فتاة يافعة ومناسبة للغاية في العشرين من العمر، من عائلة طيبة ومتفوقة في دورتها وهي ذات طبع حسن وطيب وساطع. جرى

العمل على أحسن مايرام وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني اكتملت رواية « المقامر» (هي الآن مطبوعة) أي خلال / 24/ يوماً. وفي أثناء الانتهاء من الرواية لاحظت أن كاتبة الاختزال تحبني بإخلاص رغم أنها لم تنبس ببنت شفة عن ذلك وهي صارت تعجبني أكثر فأكثر. وبما أنني منذ رحيل الأخ صار من المريع والمضجر العيش فتقدمت إليها أطلب يدها. وافقت ونحن تكللنا. فارق السن بيننا مرعب (20 و44) بيد أنني أقتنع أكثر فأكثر بأنها ستكون سعيدة. ثمة قلب يخفق لديها وهي قادرة على الحب.

مرة ثانية خارج البلاد والروليت

آنّا دوستويفسكايا:

مضت ثلاثة أسابيع على حياتنا في دريسدن عندما بدأ الزوج يتكلم عن الروليت (غالباً ما كنا نتذكر كيف كتبنا سوية رواية «المقامر») وعبر عن رأي مفاده أنه لو كان وحيداً في دريسدن لأقدم على اللعب بالروليت. وعاد الزوج إلى هذه الفكرة مرتين وعند ذاك ودون أن أرغب في أن أكون عقبة أمام الزوج سألت لماذا لا يمكنه الذهاب الآن؟ استند دوستويفسكي إلى استحالة تركي وحيدة والذهاب سوية يكلف غالياً. شرعت في إقناع الزوج كي يسافر إلى هامبورغ لعدة أيام مؤكدة له أنه لن يحدث شئ معي في غيابه. حاول دوستويفسكي التصدي لمحاولة الإقناع ولكن بما أن رغبته جامحة في الذهاب و«تجريب الحظ» فقد وافق وغادر إلى هامبورغ تاركاً إياي في كنف مدبرة المنزل. رغم أنني وحيدة لم أستطع ضبط نفسي وانفجرت في البكاء. مضى يومان – ثلاثة وبدأت أتلقى الرسائل من هامبورغ يعلمني الزوج فيها عن خساراته ورجا أن أرسل له نقوداً. لبيت طلبه ولكن تبين أن المرسل إليه خسره وطلب ثانية فأرسلت له بالطبع. وبما أنني كنت أجهل حالات القلق والاضطراب التي تصيبه أثناء القمار فإنني ضخمت تأثيرها على صحة زوجي. بدا لي، ومن خلال الحكم على رسائله، أنه ببقائه في هامبورغ يشعر بقلق مريع. تخوفت من نوبة جديدة ووصلت

إلى حالة القنوط بسبب أنني سمحت له وحده بالذهاب ولماذا لم أكن معه كي أواسيه وأهدئه. بدا لي أنني أنانية مرعبة بل أكاد أكون مجرمة بسبب أنني لا أستطيع مساعدته في شئ وهو في مثل هذه اللحظات الشديدة الوطأة بالنسبة إليه.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة له إلى آنّا دوستويفسكايا بتاريخ 6 أيار 1867، هامبورغ:

كان يوم البارحة بارداً بل حتى ماطراً. طوال النهار كنت ضعيفاً ومشوش الأعصاب لدرجة أنني تماسكت على رجلي بصعوبة هائلة. حسناً أنه تيسر لي أن أغفو لساعتين تقريباً في عربة القطار. وكانت لديّ الرغبة في النوم طوال نهار أمس. وهنا اللعب الذي لم أستطع الانقطاع عنه. يمكنك أن تتصوري حالة الانفعال الشديد الذي كنت أعانيه. تصوري: بدأت اللعب صباحاً وخسرت 16 امپريال (عملة ذهبية روسية تعادل عشرة روبلات، وبعد عام 1897 – 15 روبلاً – المترجم) لغاية وقت الغداء. وبقي في حوزتي فقط عدة تاليرات (التالير عملة ألمانية فضية تعادل ثلاثة ماركات لغاية عام 1907– المترجم). ذهبت بعد الغداء كي أكون أكثر تعقلاً وفطنة حتى درجة المستحيل، وحمداً لله، استرجعت /16/ امپريال التي خسرتها. فضلاً عن هذا ربحت /100/ غولدن (عملة نقدية هولندية تعادل 100 سنت – المترجم) وكان من الممكن أن أكسب /300/ لأنها كانت

في اليد ولكنني جازفت ولعبت بإهمال وتواكل. ملاحظتي يا آنيا نهائية: إذا كنت حصيفاً وفطناً أي أن تكون من المرمر بارداً وحذراً فأنت يمكنك أن تربح قدر ما تريد. ولكن ينبغي اللعب لفترة طويلة، لأيام عديدة وأنت تقنع بالقليل إذا لم يحالفك التوفيق ولا حاجة للرمي على غير هدى. هناك شخص واحد مضى عليه يلعب عدة أيام بدم بارد إلى حد الإرعاب وتقديرات معينة. غير بشرية (أشاروا لي عليه) وصار البنك يخشاه. فهو يكسب نقوداً كثيرة وينقل كل يوم، على أقل تقدير، /100/ غولدن.

بكلمة، سأحاول استخدام الجهد اللا بشري كي أكون أكثر حصافة وتعقلاً ولكن من جهة أخرى أنا لست قادراً إطلاقاً على أن أبقى هنا عدة أيام.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة له إلى آنّا دوستويفسكايا بتاريخ 7 أيار 1867، هامبورغ:

كان نهار البارحة بالنسبة إلي رديئاً للغاية. لقد خسرت (نسبياً) خسارة كبيرة. لعبت عشر ساعات وأنهيت اللعب بالخسارة. مرت فترات من الكسب والربح عندما تغير الحظ. سأروي لك كل شئ عندما أعود. وأريد الآن المجازفة بالمتبقي كتجربة أخيرة. هذا النهار سيقرر كل شئ أي أعود إليك غداً أم أبقى. سأعلمك غداً في كل الأحوال. ليس بودي تأجيل الساعات. فليكن ما يكون. سأبذل آخر جهدي. كما ترين تتيسر جهودي

كل مرة. الآن أمتلك رباطة الجأش ولكن ما إن يبدأ الربح حتى أبدأ المجازفة ولا أستطيع التحكم بذاتي. إن التجربة الأخيرة لهذا اليوم ستقول شيئاً. ليت كل شئ يمر بأسرع ما يمكن.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة له إلى آنّا دوستويفسكايا بتاريخ **8** أيار **1867**، هامبورغ:

كان نهار الأمس قبيحاً ورديئاً. الشئ الرئيسي هو أن كل هذا مبهم وأحمق ودنئ. مع كل ذلك لا أستطيع الانقطاع عن فكرتي أي رمي كل شئ كما هو والمجئ إليك. كل شئ الآن تقريباً على حاله ويستحيل تبديل شئ. هل تصدقين: خسرت البارحة كل شئ حتى آخر كوبيك، حتى آخر غولدن لذا قررت الكتابة إليك كي ترسلي لي نقوداً لأجل العودة بأسرع ما يمكن. تذكرت الساعة فذهبت إلى الساعاتي لبيعها أو رهنها. ثمة مخازن كاملة للأشياء الذهبية والفضية حسبما تشتهي. تصوري أولاء الألمان السفلة: اشترى مني الساعة مع السلسلة (كلفتني حينذاك **125** روبلاً) فقط لقاء **65** غولدن أي **43** تالير أي تقريباً **2/21** مرة أقل.

لقد بعتها كي يمنحني أسبوعاً بحيث أنه إذا أتيت خلال أسبوع لفك الرهن فسوف يعطيني بالطبع بالفائدة. تصوري أنني بهذه النقود استرددت الخسارة واليوم الآن سأفك الرهن. ومن ثم يبقى لدي /**16**/ فريدريخ سدور (عملة بروسية ذهبية قديمة). لقد استرددت المبلغ وحطمت كل ما من

شأنه اللهو. هذا منحني بعض الأمل. غير أنني خائف، خائف. ماذا سيقول هذا النهار.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة له إلى آنّا دوستويفسكايا بتاريخ 9 أيار 1867، هامبورغ:

إذا لم تكوني مريضة وكل شئ على ما يرام. اسمعي: اللعب انتهى. أريد العودة بأسرع ما يمكن. ابعثي لي، على الفور ما إن تستلمي رسالتي /20/ امبريال. على الفور. في اليوم ذاته، في اللحظة ذاتها إذا أمكن ذلك. لا تضيعي ولا ثانية من الوقت. هنا رجائي الأعظم. أولاً، يجب فك رهن الساعة (لن نخسرها من أجل /65/ غولدن) ثم يجب دفع أجرة الفندق بعد ذلك الطريق وما يتبقى سأجلبه معي لا تقلقي. الآن لن ألعب. الشئ الرئيسي عجّلي في الإرسال.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة له إلى آنّا دوستويفسكايا بتاريخ 10 أيار 1867، هامبورغ:

اعذريني، يا ملاكي! سألج في بعض تفصيلات هذه اللعبة كي يتوضح لك الموضوع. ها هي المرة العشرون وأنا اقترب من طاولة القمار. جمعت خبرة مفادها أنه إذا لعب المرء برباطة جأش وبرودة وهدوء مع الحساب والتقدير فإنه لا وجود لأية امكانية للخسارة! أقسم لك حتى أنه لا احتمال لذلك!

كنت أبدأ عادة من الأربعين غولدن فأسحبها من الجيبة وأجلس وأضع بمعدل غولدن، غولدنين كل مرة. بعد أربع ساعات كنت أربح الضعف. لو كنت أتوقف هنا وأغادر فهذا نعْم الموقف، وعلى أقل تقدير حتى المساء بغية تهدئة الانفعال الشديد في الأعصاب. (فضلاً عن هذا لاحظت البارحة أنني أستطيع أن أكون هادئاً ورابط الجأش لمدة نصف ساعة من اللعب بالتوالي). غير أنني كنت أغادر فقط كي أدخن سيجارة لف وسرعان ما أهرول ثانية إلى اللعب. لماذا كنت أقوم بذلك لأنني، على الأرجح كنت أعرف تقريباً أنني لن أضبط نفسي أي سأخسر؟ كل يوم عند الاستيقاظ صباحاً كنت أقرر بيني وبين نفسي أن هذا اليوم هو اليوم الأخير في هامبورغ وأنني غداً سأغادر، وبناء عليه، لا يجوز لي التربص عند الروليت. أسرعت بأقصى ما يمكن من السرعة والجهد كي أكسب أكثر ما يمكن ولمرة واحدة (لأنني سأغادر غداً) إلا أن رباطة الجأش ضاعت. ثارت الأعصاب، وجازفت وغرقت في المجازفة وغضبت وصرت أخسر (لأن من يلعب دون تقدير فهو مخبول). الخطيئة كلها تكمن في أننا افترقنا وأنني لم آخذك معي. نعم، نعم، هكذا هو الوضع. وهنا أنا أشتاق إليك وأنت تكادي تموتين بدوني. يا ملاكي، أكرر لك أنني لا ألومك وأنت أكثر غلاوة على قلبي وما أشد حنيني إليك. لدي رغبة جامحة كي أنهي كل شئ اليوم وأربح الضعف والمغادرة فوراً إلا أنني لم أمنح نفسي فرصة الاستراحة فألقيت نفسي على الروليت وبدأت أضع الذهب وكل شئ وخسرت كل

شئ حتى آخر كوبيك أي بقي معي فقط غولدن عدد /2/ لأجل التبغ. آنيا يا غاليتي، يا مسراتي! تذكري أنني مدين وينبغي سداد الديون وإلا سيسمونني سافلاً. تذكري أنه تجب الكتابة إلى كاتكوف والمكوث في دريسدن. كان ينبغي علي أن أربح. من الضروري! أنا ألعب لأجل التسلية واللهو. فهذا كان هو المخرج الوحيد. وها قد خسرت كل شئ بسبب التقدير الردئ. لا ألومك بل ألعن نفسي: لماذا لم آخذك معي؟ ولو لعبت قليلاً كل يوم لكان احتمال الربح وارداً جداً. هذا صحيح، صحيح، عشرون تجربة مررت بها وها أنا أعرف هذا، أغادر هامبورغ مع الخسارة وأعرف، أيضاً، أنني لو استطعت إعطاء نفسي مهلة وليكن أربعة أيام لكنت استرددت كل ما خسرته. ولكن كل شئ انتهى ولن ألعب!

فيودور دوستويفسكي، من رسالة له إلى آنّا دوستويفسكايا بتاريخ **12** أيار **1867**، هامبورغ:

آنيا، يا غاليتي، يا صديقتي، يا زوجتي، سامحيني ولا تسمني سافلاً! لقد ارتكبت جريمة. خسرت كل ما أرسلتيه لي، كل شئ حتى آخر كريسير (عملة تبادل صغيرة جداً في النمسا – المجر وجنوب ألمانيا وظلت في التبادل حتى نهاية القرن التاسع عشر – المترجم). البارحة استلمت والبارحة خسرت. آنيا، كيف سأنظر إليك الآن وماذا ستقولين أنت الآن عني! شئ واحد وواحد فقط يرعبني: ماذا ستقولين وماذا ستفكرين بي؟

حكمك هو وحده الذي يروعني! هل يمكنك، وهل ستحترمينني الآن! وما قيمة الحب دون احترام! ومن المعلوم أن هذا ما يؤرجح ويهز زواجنا كله. يا صديقتي، لا تستذنبينني نهائياً! أنا أكره اللعب. وليس الآن فقط بل البارحة، اليوم الثالث، لعنتها. وبعد أن تلقيت البارحة النقود خطر ببالي أن أسترد شيئاً ما كي أزيد أموالنا ولو قطرة واحدة. كنت أؤمن في الكسب المتواضع. في البداية خسرت قليلاً ولكن ما أن خسرت أكثر حتى رغبت في الاسترداد. وكلما خسرت أكثر تابعت دون إرادة مني اللعب كي أستعيد، على أقل تقدير، النقود اللازمة للمغادرة و- خسرت كل شئ. آنيا، لا أتوسل إليك أن ترأفي بي. من الأفضل أن تكوني منصفة إلا أنني أرتعب من حكمك.

بيني وبين نفسي أنا لا أخاف. بل على العكس، الآن، الآن، بعد هذا الدرس هدأت كلياً لأجل مستقبلي. والآن العمل والجهد، العمل والجهد، وسأبرهن أيضاً أنني أستطيع الإنجاز.

آنّا دوستويفسكايا:

بعد ثمانية أيام عاد دوستويفسكي إلى دريسدن وكان سعيداً للغاية ليس بسبب أنني لم أعاتبه وأتحسر على النقود الخسرانة بل لأنني أنا نفسي واسيته ورجوته أن لا يجنح إلى اليأس.

أثرت السفرة الفاشلة إلى هامبورغ على مزاج دوستويفسكي. فهو، غالباً، ما صار يعود إلى الحديث عن الروليت ويتأسف على النقود المستهلكة والمصروفة وبصدد الخسارة كان يلقي الذنب على ذاته حصراً. وكان يؤكد أن الحظوظ كانت في يديه في كثير من الأحيان إلا أنه لم يكن قادراً على الإمساك بها كان يستعجل الأمور ويبدل الرهانات ويجرب أساليب مختلفة من للعب، وبالنتيجة كان يخسر. وسبب هذا هو أنه كان يستعجل وأنه قدم إلى هامبورغ وحده وطوال الوقت كان قلقاً علي. نعم، وفي القدومات السابقة على الروليت كان يضطر أن يعرج ليومين، ثلاثة أيام ودوماً بنقود قليلة بحيث كان من الصعب الصمود أمام التحول المعاكس في اللعب. فلو تمكن من الذهاب إلى مدينة الروليت والعيش هناك أسبوعين – ثلاثة أسابيع وهو يملك مبلغاً احتياطياً لكان من المرجح أن يحظى بالتوفيق: دون الحاجة للعجلة كان يمكنه أن يستخدم الأسلوب الهادئ في اللعب الذي لا يوجد في ظله الامكانية لعدم الربح وإن يكن المبلغ غير كبير إلا أنه مع ذلك كاف لتغطية الخسارة. كان دوستويفسكي يتكلم بقناعة وأورد أمثلة للبرهنة على رأيه أنه أقنعني وعندما ظهرت مسألة السفر معه إلى سويسرا لأسبوعين، إلى بادن – بادن فإنني، وبسرور، وافقت معتمدة على أن وجودي معه في أثناء اللعب سيشكل أساساً كابحاً كاظماً نوعاً ما. بالنسبة إليّ الأمر سيان أين أعيش بل الشئ الرئيسي هو عدم الافتراق عن الزوج.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى أبولون مايكوف، **16** آب **1867**، جنيف:

سافرت غير بعيد عن بادن فخطرت ببالي فكرة العودة. فكرة إغوائية عذبتني: التضحية بعشر لويدورات (اللويدر عملة فرنسية ذهبية قديمة تساوي عشرين فرنكاً. ظهرت لأول مرة في عهد لويس الثالث عشر – المترجم) وربما أكسب وليكن **200** فرنك وهذا المبلغ كاف للعيش أربعة أشهر بكل متطلباته علماً أنه حدث أن كسبت سابقاً أحياناً. والشئ الأسوأ هو طبعي الدنئ والملتهب: ففي كل مكان وفي كل شئ أصل إلى الحد الأخير، وطوال العمر قطعت الحد.

لعب الشيطان معي لعبته. فخلال ثلاثة أيام كسبت / **4000**/ فرنك بسهولة خارقة. والآن أعرض أمامك الصورة: فمن جهة هذا كسب سهل – من مئة فرنك جمعت أربعة آلاف خلال ثلاثة أيام. ومن جهة أخرى الديون والمقاضاة والهلع الروحي واستحالة العودة إلى روسيا. وأخيراً، وثالثاً والشئ الرئيسي هو اللعبة نفسها. هل تعلم كيف تورط. كلا، أقسم لك أن هذا ليس مجرد منفعة رغم أنه تلزمني النقود، قبل كل شئ، لأجل النقود. توسلت آنا إلي أن أتسلى بمبلغ الأربعة آلاف فرنك وأغادر على الفور. يا لها من امكانية محتملة وسهلة لتصويب كل شئ. والأمثلة؟ فيما عدا الربح الخاص أنت ترى كل يوم كيف يحصل آخرون على **20** ألف، **30** ألف

فرنك (أنت لا ترى الخاسرين). ما الذي يمنحهم صفة الطهارة والقدسية؟ أنا بحاجة إلى النقود أكثر منهم. جازفت لاحقاً وخسرت. بقي في حوزتي آخر النقود كي أخسرها وخسرت منفعلاً حتى درجة الحمى. بدأت أرهن فرهنت الملابس ورهنت آنا كل ما لديها حتى آخر قطعة ضئيلة (يا لها من ملاك! كم واستني وكم ضجرت هي في بادن اللعينة في غرفتينا الواقعتين فوق محل حدادة). وأخيراً، كفى، تم خسران كل شئ. ي لهم من سفلة هؤلاء الألمان. جميعهم مرابون أنذال غشاشون نصابون! أدركت صاحبة المنزل أنه آن أوان السفر حتى استلام النقود لذا رفعت الأجرة!) وأخيراً كان يجب الخلاص ومغادرة بادن.

آنّا دوستويفسكايا:

توصلت إلى قناعة وانا أتذكر الخمسة أسابيع التي أمضيتها في بادن – بادن، أن هذه الفترة كانت مثل الكابوس المريع الذي أمسك تحت سلطته بتلاليب زوجي ولم يطلق سراحه من سلاسله الثقيلة الشاقة.

كانت جميع محاكمات دوستويفسكي بصدد امكانية الربح بالروليت بطريقته الخاصة في اللعب، سليمة كلياً وكان بإمكان التوفيق أن يصير كاملاً بشرط فيما لو طبق هذه الطريقة: انكليزي أو ألماني رابط الجأش وليس إنساناً عصبياً ومتولعاً إلى أبعد الحدود مثل زوجي. ولكن فيما عدا رباطة الجأش وضبط النفس فإن اللعبة على الروليت ينبغي أن تمتلك نقوداً

كثيرة بغية الحصول على امكانية تحمل الحظوظ غير الملائمة في اللعب. وفي هذه الناحية كان لدى دوستويفسكي خلل: كان في حوزتنا مبلغ من النقود غير كبير نسبياً مع استحالة في تحسين الوضع لا سيما في حالات الفشل. من أين نستطيع الحصول على شئ. ولم يمض أسبوع واحد إلا وخسر دوستويفسكي كل النقود المتوفرة وهنا بدأت حالات القلق حول كيف يجب أن نستحصل عليها كي نواصل اللعب. اضطررنا إلى رهن الأشياء ولكن بعد الرهن لم يستطع الزوج ضبط نفسه وكان أحياناً يخسر كل شئ مما حصل عليه من الأشياء المرهونة. وكان يحدث أحياناً أن يخسر آخر تالير تقريباً.

وفجأة كان الحظ يأخذ جانبه وأحضر إلى البيت عشرات الفريدريخسدورات. أذكر انه أحضر معه كيساً مملوءاً بالنقود وعددته وكان المبلغ مئتين واثنتي عشرة فريدريخسدور (كل فريدريخسدور يعادل عشرين تاليراً). هذا يعني قرابة أربعة آلاف وثلاثمئة تالير. ولكن لم تمكث هذه النقود طويلاً في الأيدي إذ لم يستطع دوستويفسكي الصبر: لم يتيسر له أن يخلد إلى السكينة بسبب القلق والاضطراب حتى أخذ عشرين من العملة وخسرها وعاد من أجل عشرين أخرى وخسرها وهكذا خلال ساعتين، ثلاث ساعات عائداً إلى البيت من أجل النقود، وفي نهاية المطاف خسر كل شئ. تكررت الرهونات ولكن بما أن الأشياء الثمينة في حوزتنا كانت قليلة فقد نفدت المصادر بسرعة...

رجع من الروليت (لم يأخذني ولا مرة واجداً أن المكان في صالة القمار غير لائق لامرأة شابة وشريفة مستقيمة) شاحباً نحيلاً يقف على رجليه بصعوبة طالباً مني نقوداً وغادر المكان وعاد بعد نصف ساعة أكثر تشوشاً وظل إلى هذه الحال وهو يخسر كل ما في حوزتنا.

في وجوده في صالة القمار لم يكن هناك من يحصل منه على النقود وكان دوستويفسكي خائراً مغموماً بحيث بدأ ينحب ويجلس أمامي على ركبتيه ويتوسل إليّ أن أسامحه لأنه يعذبني بأفعاله وتصرفاته ويصل إلى حالة القنوط.

الخصام مع تورغينيف

آنّا دوستويفسكايا:

كان دوستويفسكي عند القاطن في ذاك الوقت في بادن – بادن ايڤان تورغينيف. عاد زوجي من عنده متهيجاً وروى لي بالتفصيل محادثته معه.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى أبولون مايكوف، 16 آب 1867، جنيف:

كان غونتشاروف يحدثني دوماً عن تورغينيف إذ كنت أؤجل الذهاب لزيارة تورغينيف فقررت أخيراً أن أزوره. ذهبت في الساعة الثانية ظهراً فألفيته على طعام الفطور. أقول لك صراحة: إنني في السابق أيضاً لم أكن أحب هذا الشخص شخصياً. والأردأ هو أنني حتى منذ 1867 منذ Wisbaden'a مدين له بـ / 15/ تاليراً (لم أرجع هذا الدين حتى الآن!). لا أحب، أيضاً عناقه الهزلي الذي يسلحب من خلاله للتقبيل إلا أنه يسند خده. الجنرالية مرعبة والشئ الرئيسي كتابه «دخان» الذي أضجرني. فهو نفسه قال لي إن الفكرة الرئيسية والنقطة الأساسية لكتابه تكمن في العبارة التالية: «لو تتعرض روسيا للانهيار لما كان هناك أي ضرر ولا قلق ولا اضطراب في الوسط البشري». صرح لي أن هذه هي قناعته الأساسية عن روسيا. وجدته ضجراً للغاية من إخفاق «دخان». وأنا أعترف

أنني لم اعرف جميع تفاصيل الفشل. كنت قد كتبت لي عن مقالة ستراخوف في «المذكرات الوطنية» ولكن لم أكن أعرف أنهم جلدوه جلداً شديداً في كل مكان وأنهم في موسكو، على ما يبدو في النادي جمعوا تواقيع أسماء بغية الاحتجاج على روايته «دخان». هو نفسه روى لي هذه النقطة. أعترف لك أنني لم أكن أتصور أنه يمكن الإفصاح إلى هذه الدرجة من السذاجة والحرج والارتباك، عن جميع جروح أنفته وعزة نفسه مثلما فعل تورغينيف. وعلى فكرة، هؤلاء البشر يزهون بأنفسهم أنهم ملحدون! ذكر لي أنه ملحد حاسم. ولكن يا إلهي: الربوبية منحتنا المسيح أي قبل التصور الأسمى للإنسان بحيث أنه يستحيل إدراكه دون تبجيل ويستحيل عدم الإيمان بأن المثل الأعلى للبشرية هو أبدي خالد! ومن يمثل بالنسبة إلينا التورغينوڤيون والغيرتسينيون والاويتينيون والتشيرنيشيفسكيون؟ عوضاً عن الجمال الرباني السامي الذي يبصقون عليه فإنهم ذوو أنفة وعزة نفس فظيعة ناهيك أنهم سريعو الغضب والضجر بلا حياء ومزهوون بسخافة بحيث أن هذا ببساطة غير مفهوم: بأي شئ يأملون ومن سيسير وراءهم؟.

شتم روسيا والروس بوقاحة وبصورة مرعبة. ولكن ماذا لاحظت: يجد جميع هؤلاء الليبراليين والتقدميين الصغار وأغلبهم من مدرسة بيلينسكي، في شتم روسيا البهجة والرضا. البون هو أن أتباع تشيرنيشيفسكي، ببساطة، يشتمون روسيا ويتمنون لها بكل صراحة الانهيار! ويضيف أخلاف بيلينسكي أنهم يحبون روسيا. وعلى فكرة لا يكرهون كل ما في روسيا

وينكرون كل شئ ويحيلونه إلى كاريكاتير فحسب بل إذا تجلت لهم، في النهاية، الحقيقة التي يستحيل دحضها أو تفتيتها في كاريكاتير فإنه يبدو لي أنهم سيكونون تعساء حتى درجة العذاب والألم.

لاحظت أن تورغينيف مثلاً (تماماً مثله مثل جميع الذين يمكثون فترة مديدة خارج روسيا) لا يعرف الحقائق بصورة مطلقة (رغم أنهم يقرؤون الجرائد) ناهيك أنهم فقدوا أي احساس بروسيا، وهم لا يدركون تلك الحقائق العادية التي لا ينكرها هذا النهليتسي الروسي بل يهزأ بطريقته. وللعلم، قال تورغينيف أنه علينا أن نزحف أمام الألمان وأنه ثمة طريق واحد للجميع وهو حتمي.

أنه الحضارة وإن جميع محاولات الروسنة والاستقلالية ليست سوى قذارة وحماقة. وكان يقول إنه يكتب مقالة مطولة عن جميع الموالين للنزعة الروسية والنزعة السلاڤية. نصحته أن يقتني مرقباً (تلسكوباً) كي يرانا من باريس. اغتاظ بشدة. وعندما رأيته بهذا الهياج قلت له: «لم أتوقع أن يشن عليك جميع هؤلاء النقاد حملتهم. ارم وراءك كل شئ». احمر وجهه: ماذا تقول، فأنا لست غضباناً ثم تحدثنا عن شؤون منزلية وخاصة. أخذت الطاقية الشتوية ودون نية مني أفصحت عما اختزن في ثلاثة أشهر في الروح عن الألمان.

هل تعرف النصابين والمحتالين الذين يمكن لقاؤهم هنا والشعب هنا أقل شرفاً ونخوة منا وأكثر حماقة بما لا مجال للشك فيه. وأنت تتحدث عن

الحضارة فماذا فعلت الحضارة لهم وما هو الشئ الذي يمكن أن يتباهوا به أمامنا.

شحب وجهه (حرفياً دون مبالغة) وقال لي: «وأنت تقول ذلك إنما أنت آذيتني. هل تعرف أنني قررت الاستقرار النهائي هنا وأعتبر نفسي ألمانياً وليس روسياً وأفتخر بذلك! أجبت: «فليكن أنني قرأت «دخان» وتحدثت معكم ساعة كاملة ولكن لا أستطيع بأي شكل من الأشكال توقع ما تقوله لذا اعذرني أنني أهنتك». ثم ودعنا بعضنا بعضاً بلطف زائد وأقسمت بيني وبين نفسي أنني لن أزوره في حياتي. في اليوم التالي، في تمام الساعة العاشرة صباحاً عرج تورغينيف عليّ وترك عند صاحبي البيت بطاقة زيارة لتسليمها لي. ولكن بما أنني أنا نفسي قلت له في العشية أنني لا أستطيع استقبال أحد قبل الثانية عشرة وأننا ننام حتى الحادية عشر فإنني قبلت قدومه في العاشرة بصفته تلميحاً جلياً وأنه لا يريد اللقاء معي وترك البطاقة في العاشرة وبالذات كي أفهم ذلك.

وطوال السبعة أسابيع التقيت به مرة واحدة في المحطة. ألقينا نظرات متبادلة سريعة إلا أنه لا هو ولا أنا لم نكن نرغب السلام والانحناء المتبادل.

١٨٦٧ – ١٨٦٨ جنيف، «الأبله».

ميلاد ورحيل الابنة صونيا

آنّا دوستويفسكايا:

بدأنا حياتنا في جنيف بنقود زهيدة. بعد دفع أجرة البيت لشهر مقدماً ألفينا ما تبقى عندنا في اليوم الرابع من إقامتنا فقط ثمانية عشرة فرنكاً على أساس أن نستلم خمسين روبلاً. بيد أننا اعتدنا على التصرف بنقود ضئيلة وعند نفادها كنا نعيش على رهونات أشيائنا بحيث بدت لنا الحياة وخاصة بعد حالات قلقنا وتهيجنا الأخير جميلة في البداية.

وهنا، كما هي الحال في دريسدن، جرى تنظيم أوقات اليوم: كان دوستويفسكي يعمل في الليالي ولا يستيقظ قبل الحادية عشر ثم أتناول الفطور معه وأغادر البيت للتنزه حسب وصية الطبيب. بينما دوستويفسكي يعمل. في الساعة الثالثة نتوجه إلى المطعم لتناول الغداء بعدها كنت آوي في الفراش للراحة أما الزوج فكان يوصلني إلى البيت ثم يذهب إلى المقهى على **rue du Mont – Blanc** حيث كان يتم الحصول على جرائد روسية ويمضي لساعتين في قراءة « غولوس» و«موسكوفسكويا» و«الجداول البطرسبورغية». وكان يقرأ الجرائد الأجنبية. في المساء حوالي السابعة كنا نذهب في نزهة طويلة، ولكي لا نتعب كنا نتوقف أمام واجهات المخازن الباذخة والساطعة في أنوارها. ويشير دوستويفسكي بيده إلى تلك

الحلي الثمينة التي بوده أن يهديها لي فيما لو كان ثرياً. للحق والإنصاف كان زوجي يمتلك ذوقاً فنياً وكانت الحلي المشار إليها بيده بديعة وبهيجة.

نمضي المساء إما في إملاء مؤلف جديد أو في قراءة كتب فرنسية وزوجي يتابع كي أقرأ بانتظام وأدرس مؤلفات مؤلف واحد ما دون صرف الاهتمام نحو مؤلفات كتاب آخرين. كان دوستويفسكي يثمن تثميناً رفيعاً مواهب بلزاك وجورج صاند وأنا، تدريجياً، صرت أعيد قراءة رواياتها جميعها. وبصدد قراءتي كانت تجري أحاديث في أثناء النزهات وزوجي يشرح لي جدارات المؤلفات المقروءة ومحاسنها. وقد تعجبت من أن دوستويفسكي الذي كان ينسى ما حدث في الفترات القريبة فهم بسطوع موضوع وأسماء أبطال روايات هذين الكاتبين المحبوبين على قلبه. أذكر أن زوجي قدر تقديراً رفيعاً خاصة رواية «الأب غوريو» والجزء الأول من ملحمة «الأقرباء الفقراء».

مع الأسف سرعان ما اضطررنا إلى الندم على اختيار جنيف مكاناً للإقامة الدائمة. ففي الخريف بدأت الأعاصير الشديدة المسماة **bises** وكان الطقس يتغير مرتين إلى ثلاث مرات يومياً. وهذه التبدلات أثرت تأثيراً مرهقاً في أعصاب زوجي وتكررت نوبات الصرع. وقد أقلقني هذا الظرف قلقاً مريعاً حيث دوستويفسكي في حالة من الغم والخور والتهيج، والشئ الرئيسي هو أنه آن أوان الشروع في العمل الذي أعاقته نوبات المرض الشديدة.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى آ.ب. وف.م. ايڤانوف بتاريخ الأول من كانون الثاني **1868**:

سأصف لكما كيف كنا نعيش ووضعنا بشكل عام.

من هذه الناحية كل شئ رتيب وكل يوم يشبه جميع الأيام السابقة واللاحقة منذ بدأنا الإقامة في جنيف. أنا أعمل بينما آنّا تعد مستلزمات المولود الجديد أو تعمل في الاختزال عندما يجب مساعدتي. وهي تتحمل الحمل بصورة رائعة (بدأت الآن فقط في التأوه). ولا تشعر بالشوق إلا إلى والدتها.

عزلتنا، وخاصة بالنسبة إلي، ضرورية الآن وإلا يستحيل العمل. في الحقيقة، في جنيف عدا العزلة الوضع ممل للغاية رغم بانوراما مونبلان وبحيرة جنيف ورونا الجاري منه. عرفت ذلك من البداية ولكن ما حدث أنه لا وجود لأي مكان للتشتاية فيما عدا ما نصادفه في الطريق...

مدينة جنيف علمية فيها مكتبات وعدد كبير من الدكاترة وغيرهم. وجميعهم يتكلمون الفرنسية. في الحقيقة لم نكن نعلم أن هذا المكان مضجر للغاية وتكثر فيه الأعاصير الدورية وهي تقتحم سلسلة الجبال وتبرد في المرتفعات الجليدية. لقد كابدنا الشئ الكثير في شقتنا السابقة. المنازل مبنية بصورة مريعة: أحجار وأطر منفردة. يتم إشعال الموقد طوال النهار بالحطب (وهو غال هنا رغم أن سويسرا هي المكان الوحيد في أوربا الغربية الذي لا تزال فيه أخشاب). درجة الحرارة في الغرفة تصل حتى

6 درجات بل حتى 5 درجات. ويتجمد الماء في الليالي. ولكن الآن نعيش في شقة أخرى فيها غرفتان حسنتان إحداهما دافئة بحيث يمكن العيش والعمل.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى س.آ.ايڤانوڤا بتاريخ 1 كانون الأول 1868:

مصيري كله يتعلق بعملي. فضلاً عن هذا قبضت قرابة 4500 روبل من هيئة تحرير «البشير الروسي» مقدماً وأقسمت بشرفي طوال العام بأن الرواية ستكون جاهزة وذلك في كل رسالة إلى هيئة التحرير. وها أنا تقريباً قبيل إرسالها إلى التحرير اعتبرتها سقطاً ولم تعد تعجبني. (بما أنها لم تعد تعجبني فإنه يستحيل الكتابة بصورة جيدة). مزقت الكثير مما كتبته علماً أنه كان يكمن في الرواية، سداد الدين والحياة الضرورية الملحة. ووقتذاك أي قبل ثلاثة أسابيع شرعت في إبداع رواية أخرى والعمل ليل نهار.

فكرة الرواية عتيقة ومفضلة إلا أنها صعبة بحيث أنني فكرت ملياً حتى تجاسرت على الشروع بها وشروعي بها سببه أنني كدت أن أصل إلى حالة اليأس. فكرة الرواية الرئيسية هي تصوير إنسان رائع بصورة مطلقة ولا شئ أصعب من هذا على وجه البسيطة لا سيما الآن. إن جميع الكتاب وليس كتابنا فحسب بل حتى الأوربيين ممن تولى مهمة تصوير الجميل بشكل مطلق كان على الدوام يستنكف عن ذلك لأن هذه المهمة غير محدودة.

هو المثل الأعلى بينما المثل الأعلى لم تبنه بعد أوربا المتحضرة. يوجد على وجه البسيطة وجه جميل واحد – إنه المسيح وإن هذه الظاهرة لا حدود لها. ذهبت بعيداً جداً. أذكر فقط أنه من بين الوجوه الجميلة في الأدب المسيحي ينتصب فقط الوجه المكتمل دون كيشوت. هو الجميل فقط لأنه هو في الوقت نفسه هجين. بيكويك ديكينز (هي الفكرة الأضعف بصورة نهائية من دون كيشوت إلا أنها هائلة) هو أيضاً هجين ولهذا هو يأخذ. بيكويك هو الرأفة بمن يتعرض للسخرية ولا يعرف قيمة الجمال – وبهذا يبرز التعاطف داخل كيان القارئ أيضاً. وإن إثارة هذه الرأفة إن هي إلا سر الفكاهة. جان فالجان أيضاً محاولة قوية إلا أنه يهيج التعاطف بصدد تعاسته المريعة والظلم الذي يتعرض له من قبل المجتمع. لا شئ عندي من هذا القبيل ولا شئ حاسم ولهذا السبب أخاف بصورة مرعبة من أن يحدث الإخفاق المطلق. يمكن لبعض التفاصيل أن لا تكون رديئة. أخشى أنها ستكون مملة. الرواية طويلة. كتبت الجزء الأول خلال 23 يوماً وأرسلته منذ أيام. هذا بالطبع ليس سوى مدخل، ومن الجيد أنه لم يتعرض أي شئ بعد للشبهة ولا شئ من حب الفضول لدى القارئ كي يشرع في قراءة الجزء الثاني. هذا الجزء الثاني أجلس الآن لإنجازه وسأنهيه خلال شهر (هكذا أعمل طوال العمر). يبدو لي أنه سيكون أكثر متانة وأصالة. يا عزيزتي، دعواتك لي لقليل من التوفيق. اسم الرواية «الأبله» وهي مهداة إليك أي لصوفيا ألكسندروڤنا ايڤانوڤا. يا غاليتي كما كنت أود

لو صدرت الرواية بما يتناسب مع جدارة الإهداء. في جميع الأحوال أنا لست حكماً لذاتي لا سيما بهذا الانفعال كما هي الحال الآن.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى أپولون مايكوف بتاريخ 20 شباط 1968:

نعيش سوية مع آنّا في حالة من التوافق ونحن الاثنين مشغولان ومع ذلك الحياة فيها ملل، بالنسبة لي على أقل تقدير. تؤكد آنّا بإخلاص شديد (أنا اقتنعت بذلك) أنها سعيدة للغاية. تصور أنه حتى الآن لا يوجد شئ والجنتلمان المنتظر لم يرى بعد النور. أنتظر كل يوم لأن العلامات كلها موجودة. انتظرت البارحة ولكن لم يكن هناك شئ في عيد اسمي. أنتظر اليوم وفي الغد. آنّا تنتظر باحترام وتبجيل وهي تحب ضيف المستقبل بصورة مفرطة وتتحمل بحيوية ونشاط وقوة ولكن في الفترة الأخيرة أعصابها تشوشت وأحياناً تراودها أفكار كئيبة: تخشى الموت وما إلى ذلك. وهكذا الوضع كئيب وممل ومزعج. النقود عندنا ضئيلة للغاية ولكن، على أقل تقدير لا نتسول. أمامنا مصروفات بيد أن آنّا وهي في حالة الحمل تقوم بالاختزال والتبييض، عدا هذا فقد تيسر لها أن تحوك وتجهز كل ما يلزم للطفل.

آنّا دوستويفسكايا:

مضى الوقت وازدادت مشاغلنا حول ما إذا كنا نستقبل هذا الحدث الهام في حياتنا- المولود البكر. وقد تركزت أفكارنا وأحلامنا على هذا الحدث المقبل. ونحن سوية صرنا نحب، بكل رقة، صغيرنا القادم. وقررنا أن نسمي الطفل الجديد صوفيا إذا كان ابنة (كانت رغبة الزوج أن نسميه آنا إلا أنني رفضت) وذلك على شرف ابنة أخت الزوج المحبوبة صوفيا ألكسندروڤنا ايڤانوڤا وكذلك في ذكرى «صونيتشكا مارميلادوڤا» التي بكيتها بكاء مراً وإذا كان المولود صبياً فسوف نسميه ميخائيل على شرف الشقيق المحبوب للزوج ميخائيل دوستويفسكي.

تعامل دوستويفسكي مع حالتي الصحية الضعيفة بعناية فائقة وأنا أتذكر هذا الموقف بشعور من الشكر الحيوي ويهتم بي في كل خطوة محذراً إياي من الحركات السريعة الضارة بالنسبة إلي والتي لم أعرها انتباهاً بسبب قلة الخبرة. إن الأم الأكثر محبة وحناناً ما كان بمستطاعها أن تحرسني وتحميني مثلما فعل زوجي العزيز.

أصر دوستويفسكي بعد الوصول إلى جنيف وعند أول استلام للنقود على زيارة أفضل طبيب مولد ورجاه أن يقترح عليه قابلة، والتي وضعتني تحت إشرافها بحيث صرت أزورها كل أسبوع. قبل شهر من الولادة اتضحت حقيقة هزتني وأظهرت لي مدى اهتمامات زوجي القلبية بأصغر الأشياء التي تخصني. ففي إحدى الزيارات سألت مدام باراود مَنْ مِنْ معارفنا يعيش في

الشارع نفسه معها لأنها غالباً ما تلتقي بزوجي. تعجبت إلا أنني ظننت بأنها أخطأت. شرعت أستجوب الزوج. أجاب بالنفي في البداية إلا أنه بعد ذلك روى: كانت مدام باراود تعيش في واحد من الشوارع المتعددة التي تعلو نحو الجبل من **rue Basses** الشريان التجاري لجنيف. هذه الشوارع صعبة الوصول لشدة انحدارها وبالنسبة إلى المراكب فهي تشبه بعضها بعضاً.

وها هو فيودور دوستويفسكي مفترضاً أن مساعدة هذه السيدة يمكن أن نحتاجها فجأة وربما ليلاً، ودون الاعتماد على الذاكرة البصرية وضعت هدفاً لجولاتي ونزهاتي هذا الشارع، وفي كل يوم بعد قاعة القراءة كنت أمر بجانب بناء مدام باراود وأجتاز خمس – ست بنايات أعود بعدها. وظل زوجي يقوم بهذه النزهة خلال ثلاثة أشهر. وعلى فكرة، شكل الصعود على جبل شديد الانحدار في ظل بدايات الربو، تضحية غير قليلة. رجوت الزوج أن لا يشقى بهذا المشي إلا أنه واصل نزهاته وشعر، فيما بعد، بالانتصار بأنه في اللحظات الصعبة من الحدث المقبل احتاج إلى معرفة الشارع ودار مدام باراود وأنه في وقت الغسق من الصباح الباكر بحث عنها وأحضرها...

وإلى جانب الآلام العادية تعذبت بسبب أن نوع هذه الآلام قد فعل فعله في دوستويفسكي المشوش بالنوبات السابقة. وقد عبر وجهه عن هذا العذاب وهذا اليأس. وبمرور الوقت رأيت انه ينتحب وأنا نفسي صرت

أرتعب من أنني على أعتاب الموت وأقول وأنا أتذكر أفكاري ومشاعري وقتئذ أنني لا أشفق على نفسي بقدر ما أشفق على زوجي المسكين الذي بإمكان موتي أن يشكل كارثة بالنسبة إليه. وقد أدركت حينذاك تلك الآمال التي علقها زوجي عليّ وعلى طفل المستقبل. وكان بإمكان التحطيم الفجائي لهذه الآمال وفي ظل اندفاع وجموح طباع دوستويفسكي، أن يمثل حالة الهلاك بالنسبة إليه. من المحتمل أن يكون قلقي واضطرابي قد أبطأ في مسار الولادة. هذا ما اكتشفته مدام باراود وفي لحظة اقتراب النهاية منعت الزوج من الدخول غلى الغرفة مؤكدة له أن مظهره اليائس والمخيف يشوشني. أذعن دوستويفسكي للأمر وأما أنا فقد ازداد قلقي وصرت أرجو إحضار القابلة أحياناً والجليسة أحياناً أخرى كي ينظرا ما يفعله زوجي. وقد أعلماني أنه يجلس على ركبتيه ويصلي أو يجلس في حالة من التفكير العميق مغطياً وجهه بيديه. آلامي تتزايد كل ساعة. وفي بعض اللحظات كنت أفقد الوعي، وعندما أعود إلى وعيّ وأرى العينين السوداوتين المنفعتين نحوي للجليسة التي لا أعرفها شعرت بالوجل ولم أدرك أين أنا وماذا يجري معي. وأخيراً قرابة الساعة الخامسة ليلاً بتاريخ 22 شباط (حسب تقويمنا) انقطعت الآلام وولدت صونيا ثم روى لي دوستويفسكي لاحقاً كيف أنه كان يصلي لأجلي طوال الوقت وفجأة وسط أناتي سمع صراخاً غريباً نوعاً ما، طفولياً تماماً. لم يصدق سمعه ولكن عندما تكرر الصراخ الطفولي عندها أدرك أنه ولد طفل، وفي غمرة الفرح قفز من ركبتيه

وأسرع إلى الباب المقفل بالقفل ودفعه بقوة وألقى بنفسه على الركبة حول سريري وشرع يقبل يدي الاثنتين. وأنا كنت سعيدة للغاية إذ توقفت آلامي. كنا نحن الاثنين مصدومان إذ لم نعرف في الخمس – عشر دقائق الأولى مَن المولود الجديد. سمعنا من أحد الحضور، من السيدات تقول: «صبي أليس كذلك» أجابت أخرى: «فتاة، فتاة جذّابة» ولكن سعادتنا مع الزوج كانت واحدة بغض النظر عن جنس المولود ناهيك أننا كنا سعيدتين لأن حلمنا تحقق وظهر كائن جديد على الأرض، إنه البكر!

في فورة الانبساط والسرور عانق دوستويفسكي مدام باراود وصافح الجليسة بحرارة. قالت لي القابلة أنها لم يسبق طوال عملها المديد أن رأت والد المولود الجديد في مثل هذا الاضطراب والتشوش مثلما هي حالة زوجي طوال الوقت.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى أبولون مايكوف بتاريخ 21 – 22 آذار 1868:

أشعر ومع مرور شهر على رؤية صونيا للمرة الأولى ما أكثر الجديد والمجهول بالنسبة إليّ. نعم طارت إلينا روح ملائكية. لن أصف لك مشاعري. فهي تتنامى وتتطور كل يوم...

عمر الطفل شهر واحد بينما تعبير الوجه عندي وهيأتي بأكملها حتى التجاعيد على الجبين تحمل شيئاً كما لو كنت أؤلف رواية! هذا دون

الكلام عن السمات والخطوط. الجبين شبيه بجبيني إلى درجة الغرابة. ينتج عن ذلك، بالطبع، أنها ليست بهذا الحسن (لأنني جميل فقط في عيني آنّا) – أقول ذلك جدياً!. ولكن أنت نفسك فنان تعرف بدرجة ممتازة أن الشبه يمكن أن يكون كاملاً بوجه غير جميل إلا أنها تكون الأكثر حسناً ولطفاً.

آنّا دوستويفسكايا:

لسعادتي المفرطة كان دوستويفسكي الأب الأكثر رقة وحناناً. كان يحضر من كل بد عند استحمام الطفلة ويساعدني وهو نفسه يلفها في بطانية صغيرة بدبابيس انكليزية ويحملها ويهدهدها في يديه تاركاً أشغاله مسرعاً نحوها ما أن يسمع صوتها. وكان أول سؤال عند استيقاظه أو عودته إلى البيت هو التالي: «ماذا صونيا؟ في صحة جيدة؟ هل نامت جيداً؟ هل أكلت؟». كان دوستويفسكي يجلس عند سريرها ساعات كاملة وهو يغني لها أغنيات صغيرة أو يتحدث معها. وعلى فكرة، عندما صار عمرها ثلاثة أشهر كنت واثقاً من أن صونيا تعرفه وهاكم ما كتبه إلى أبولون مايكوف بتاريخ 18 أيار 1868: «هذا المخلوق الصغير ذي الثلاثة أشهر، هذا المسكين الضئيل جداً – هو بالنسبة لي صار وجهاً وطبعاً. بدأ يعرفني، يحب ويبتسم عندما كنت أقترب وعندما كنت أغني لها بصوت المضحك. كانت تحب الإصغاء إلى الأغاني. وهي لم تكن تتجمد عندما

كنت أقبلها. كانت تتوقف عن البكاء عندما كنت أقترب منها. ولكن لم نحظ بسعادتنا الصافية لفترة طويلة. كان الطقس بديعاً في الأيام الأولى من أيار ونحن، وبنصيحة الدكتور الملحة كنا نأخذ صغيرتنا إلى **Jardin des Arglais** حيث كانت ترقد في عربتها ساعتين – ثلاث ساعات. في يوم مشؤوم في أثناء مثل هذه النزهات تبدل الطقس فجأة وبدأت عاصفة شديدة، ومن الواضح أن الفتاة أصيبت بالزكام لأن حرارتها ارتفعت في تلك الليلة وبدأ السعال. توجهنا، على الفور، إلى أفضل طبيب أطفال وهو صار يزورنا يومياً مؤكداً أن فتاتنا تعافت وحتى أنه قبل ثلاث ساعات من رحيلها قال إن المريضة تحسنت كثيراً. ورغم تأكيداته فإن دوستويفسكي لم يستطيع الانشغال بأي شئ وتقريباً لم يبتعد عن أرجوحتها. نحن الاثنين كنا في حالة من الهياج الفظيع وهواجسنا المرعبة رأت تبريرها إذ رحلت صونيا العزيزة عن الدنيا نهار الثاني عشر من أيار. أنا لست قادرة على رسم ذاك القنوط الذي تملكنا عندما رأينا ابنتنا الحسناء ميتة. ورحيلها الصادم والحزين للغاية قد جعلني أخاف خوفاً مرعباً على زوجي التعيس البائس. كان قنوطه عاصفاً إذ كان ينتحب مثل المرأة واقفاً أمام جسد الطفلة الحبيبة. وقد غطيت وجهها الشاحب ولثمت يديها بقبلات حارة. وأنا لم أشاهد في حياتي مثل هذا اليأس العاصف. بدا لنا نحن الاثنين بأننا لن نتحمل حزننا. مضى يومان ونحن سوية دون أي فراق ولا لدقيقة واحدة. ذهبنا إلى عدد من المؤسسات كي نحصل على إذن بدفن صغيرتنا وأوصينا

كل ما هو ضروري لدفنها ووضعناها في تابوت صغير أبيض ملفوف بقماش أطلس وبكينا، بلا رادع بكينا. كان من المريع النظر إلى دوستويفسكي لدرجة أنه تضمّر ونحف خلال أسبوع من مرض صونيا. وفي اليوم الثالث أعددنا ذخيرتنا لأجل القداس في الكنيسة الروسية ومن هنا إلى المقبرة في Plain Palais حيث دفناها في قسم الأطفال الصغار. بعد عدة أيام تم تسوير قبرها بشجر السرو، وتمّ وضع صليب أبيض من المرمر في وسطها. وكنا يومياً نذهب مع الزوج إلى قبرها حاملين معنا الزهور وكنا نبكي.

١٨٦٩ – ١٨٧٠ ، درسدن

ميلاد الابنة لوبوف

رواية «الشياطين»

آنّا دوستويفسكايا:

جلب لنا حلول عام **1869** السعادة. سرعان ما اقتنعنا بأن الرب كرّم زواجنا ويمكننا، من جديد، الأمل بامتلاك طفل. كانت سعادتنا لا حدود لها وصار زوجي العزيز يعتني بي بتلك العناية مثلما فعل في أثناء حملي الأول. وصلت عنايته إلى درجة أنه بعد أن قرأ المجلدات المرسلة من قبل نيقولاي ستراخوف للرواية الصادرة لتوها للكونت ليون تولستوي «الحرب والسلام» أخفى عني ذاك الجزء من الرواية التي وصف فيها بصورة فنية رفيعة وفاة زوجة الأمير أندريه بولوكونسكي أثناء الولادة. وقد خشي دوستويفسكي من أن تترك لوحة الوفاة انطباعاً قوياً ومضنياً عليّ. بحثت في كل مكان عن المجلد المفقود حتى أنني وبخت الزوج لأنه أضاع كتاباً هاماً. حاول التبرير بشتى الوسائل وأكد أن الكتاب لن يضيع نهائياً إلا أنه أعطاني إياه عندما انتهى الحدث المتوقع. كتب دوستويفسكي إلى نيقولاي ستراخوف بينما يتوقع ولادة الطفل رسالة ورد فيها «أنتظر بقلق وخوف وبأمل ووجل». حلمنا سوية أن نحظى بفتاة وبما أننا أحببناها حباً ملتهباً في

أحلامنا منحناها مسبقاً اسم – لوبوف – (يعني الحب) هذا الاسم الذي لم يكن له وجود لا في عائلتي ولا في عائلة الزوج...

ومع ظهور الطفل إلى النور أشرقت السعادة، من جديد، في أسرتنا. كان دوستويفسكي رقيقاً ناعماً للغاية تجاه ابنته وتعامل معها فهو نفسه كان يحممها ويحملها على يديه ويهدهدها ويشعر أنه سعيد لدرجة أنه كتب إلى ستراخوف: «لماذا أنت غير متأهل ولماذا ليس عندك طفل يا نيقولاي ستراخوف المحترم. أقسم لك أنه تكمن هنا ثلاثة أرباع السعادة في الحياة وفي الباقي يبقى ربع واحد».

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى صونيا ايڤانوڤا بتاريخ **14** كانون الأول **1869**:

أتصور نفسي بصورة غير إرادية أنني عجوز مسن للغاية. ربما أرحل قريباً عن الدنيا.

للعلم عندي ابنة اسمها لوبوتشكا – لوبوف التي ولدت في **26** ايلول والآن عمرها ثلاثة أشهر بالتمام والكمال. لا أستطيع التعبير لك ما أعظم حبي لها... الطفلة سليمة الجسم معافاة مرحة ونامية ليس حسب السنين (أي ليس حسب الشهور) فهي تغني معي طوال الوقت عندما أغنّي لها وتضحك دوماً. هادئة للغاية وهي طفلة غير متقلبة ولا ضجوجة. تشبهني إلى حد الضحك، حتى أكثر الخطوط ضآلة.

آنّا دوستويفسكايا:

كان دوستويفسكي في شتاء عام **1869** مشغولاً في تأليف رواية جديدة أراد تسميتها «حياة آثم عظيم». هذا المؤلف حسب فكرة الزوج كان ينبغي أن تتكون من خمس قصص كبيرة (كل قصة – **15** ورقة) علماً أن كل قصة يجب أن تتكون بصفتها مؤلفاً مستقلاً بحيث يمكن طبعه في مجلة أو إصداره في كتاب منفرد. كان دوستويفسكي يفترض في جميع القصص الطويلة الخمس عرض تلك المسألة الهامة والمؤلمة والتي كان يعاني منها طوال حياته وبالذات مسألة وجود الرب... علق دوستويفسكي آمالاً كبيرة على الرواية المفترضة ونظر إليها باعتبارها إتماماً لنشاطه الأدبي. تنبؤه هذا وجد تبريره الحقيقي فيما بعد لأن الكثير من أبطال الرواية المقصودة قد دخلوا في رواية «الإخوة كارامازوف». ولكن لم يتمكن الزوج حينذاك من تنفيذ خطته لأن موضوعاً آخر جذبه كان قد كتب عنه إلى نيقولاي ستراخوف: «أملي كبير الآن في الشئ الذي أكتبه الآن في «البشير الروسي» ولكن ليس من الجانب الفني بل الجانب المتحيز. بودي الإفصاح عن عدة أفكار رغم أن نزعتي الفنية يمكنها أن تهلك إلا أن ما يجذبني هو ما اختزن في العقل وفي القلب وليتكون بصفته كراساً – كتيباً إلا أنني سوف أفصح عن ذلك».

إنها رواية «الشياطين» التي صدرت في عام **1871**. ومما أثر في ظهور الرواية مجئ شقيقي. مما يذكر أن دوستويفسكي الذي كان يقرأ جرائد

أجنبية متنوعة (كانت تنشر أشياء كثيرة لا تظهر في الجرائد الروسية) توصل إلى استنتاج مفاده أنه ستندلع اضطرابات سياسية في أوقات متواصلة في أكاديمية پتروف الزراعية. وخشية من أن يشارك أخي بسبب يفاعه وضعف إرادته، مشاركة نشيطة فيها. رجا زوجي والدتي كي تدعو الابن للضيافة عندنا في دريسدن. وقد ظن دوستويفسكي أن قدوم أخي يمكنه أن يواسيني وأنا التي بدأت أحن إلى الوطن ويواسي والدتي التي مضى على إقامتها خارج البلاد سنتين (سواء مع أولاد أختي أو السفر إلينا) واشتقت كثيراً للابن. كان أخي يحلم دوماً بالسفر خارج البلاد. وكان يستفيد من العطل ويزورنا. كان دوستويفسكي دوماً ودوداً ومتعاطفاً مع الشقيق وتثير اهتمامه كل ما ينشغل به ومعارفه وحياته اليومية ومزاج عالم الطلبة. روى شقيقي كل هذا بالتفصيل وبولع كبير. وهنا تجلت لدى دوستويفسكي فكرة، في إحدى قصصه الطويلة، تصوير الحركة السياسية وقتذاك وعرض واحد من أبطاله الرئيسيين هو الطالب ايڤانوف (الكنية شاتوف) والذي قتله نيتشايف. تحدث أخي عن الطالب ايڤانوف كطالب ذكي وبارز من حيث طبعه الثابت والذي غيّر قناعاته السابقة بصورة جذرية.

وما أعمق صدمة أخي عندما عرف لاحقاً من الجرائد عن مقتل الطالب ايڤانوف الذي كان يشعر بالتعلق المخلص به! كان وصف حديقة أكاديمية پتروف والمغارة التي قتل فيها ايڤانوف قد أخذها دوستويفسكي من كلمات شقيقي.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى أبولون مايكوف بتاريخ 12 شباط 1870:

جلست وراء فكرة ثرية وليس بصدد التنفيذ أقول بل أتحدث عن فكرة من جميع جوانبها. إنها واحدة من تلك الأفكار التي لها تأثير لا ريب فيه في الجمهور من نموذج «الجريمة والعقاب» ولكن أقرب وأكثر إلحاحاً وحيوية تجاه الواقع وتمس مباشرة المسألة العصرية الأكثر أهمية... فهنا موضوع ساخن للغاية. وأنا لم اعمل أبداً بمثل هذه المتعة ومثل هذه السهولة وهذا اليسر.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى صوفيا ايڤانوفا بتاريخ 17 آب 1870:

الرواية التي كتبتها كانت كبيرة وأصيلة للغاية إلا أن الفكرة من صنف جديد نوعاً ما بالنسبة إليّ كي أتغلب عليها. غير أنني لم أتغلب وفشلت. كان العمل واهناً وشعرت بوجود نقص رئيسي ككل ولكن أي نقص بالذات فهذا لم أستطع تخمينه. ففي شهر تموز وبعد آخر رسالة لي إليك أصبت بعدد كامل من نوبات الصرع (كل أسبوع). وقد شوشتني بحيث لم أستطع حتى التفكير بالعمل لشهر كامل ناهيك عن أخطار ذلك. وها أنا ذا قبل أسبوعين شرعت ثانية في العمل وفجأة رأيت أين الخلل والعرج وفيم تكمن الخطيئة وهنا بنوع من الإلهام تصورت خطة الرواية الجديدة في حالة من

التناسق الكامل. كان ينبغي تغيير كل شئ جذرياً. ودون أدنى تفكير شطبت كل ما هو مكتوب (قرابة 15 ورقة) وشرعت من جديد في كتابة الصفحة الأولى. لقد تمت تصفية عمل سنة كاملة. اوه يا صونيا! لو تعرفين ما أشقى أن يكون المرء كاتباً أي أن يتحمل هذا النصيب! صدقيني وأنا أعرف لو كنت ميسوراً لسنتين – ثلاث سنوات لهذه الرواية كما هي الحال عند تورغينيف وغونتشاروف أو تلستوي لكتبت شيئاً سيتكلم عنه البشر مئة سنة! أنا لا أتفاخر. اسألي وجدانك وضميرك وذكرياتك عني: هل أنا نفّاج؟ الفكرة حسنة للغاية وغنية المضمون بحيث أنني أنا نفسي أسجد أمامها. ماذا تنتج؟ أعرف مسبقاً: سأكتب رواية خلال ثمانية – تسعة أشهر، أجعد وأكرمش وأتلف. ومثل هذا الشئ لا يجوز أن يكتب بشكل آخر في سنتين – ثلاث سنوات (ناهيك أنه بحجم كبير: ثلاثين ورقة). التفاصيل ستكون لا بأس بها. سيتم تخطيط ورسم الطباع – ولكن بشكل تقريبي على المسودة. وستكون هناك إطالات زائدة. ومع ذلك أجلس للكتابة! أليس عذاباً أن ترفع اليدين على الذات!

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى ميخائيل كاتكوف بتاريخ 8 تشرين الأول 1870:

أرسلت اليوم إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» فقط النصف الأول من الجزء الأول من روايتي «الشياطين». ولكن في القريب العاجل سأبعث

بالنصف الثاني من الجزء الأول. ستكون كلها ثلاثة أجزاء كل جزء يتراوح ما بين 10 و12 ورقة. الآن لن يكون هناك تباطؤ.

إذا قررت طبع كتابي بدءاً من السنة القادمة فإنه يبدو لي من الضروري أن أعلمك مسبقاً وإن يكن مسبقاً حول ماذا يجري الحديث في روايتي.

من بين أكبر الأحداث في روايتي هو مقتل ايڤانوف في موسكو من قبل نيتشايف. ثمة تحفظ سريع هو أنني لا أعرف إطلاقاً لا نيتشايف ولا ايڤانوف ولا ظروف القتل إلا من الجرائد. ولو كنت أعرف لما نسخت ولا قلدت. أنا فقط آخذ الحقيقة الماثلة ويمكن للفانتازيا عندي أن تتباين إلى حد مع الواقع السابق. ويمكن لبيوتر ڤيرخوڤينسكي عندي أن لا يشبه نيتشايف في شئ إطلاقاً. ولكن يبدو لي أنه تشكل في عقلي المهزوم ذاك الوجه وذاك النموذج الذي يتطابق مع هذه الجريمة الفظيعة. ولا شك أنه ليس بلا جدوى تقديم هذا الشخص وإبرازه إلا أنه ما كان بإمكانه وحده أن يغويني. وبرأيي مثل هذه القبائح الحقيرة لا تستحق الأدب. ولعجبي الشديد يبرز هذا الوجه في نصفه وجهاً كوميدياً. ورغم أن هذا الحادث يشغل أحد المقامات الأولى في الرواية فهو ليس سوى اكسسوار وترتيب لفعل شخصية أخرى بإمكانها بالفعل أن تسمى شخصية الرواية الرئيسية.

هذه الشخصية الأخرى (نيقولاي ستاڤروغين) هي أيضاً شخصية عابسة ومتجهمة، هي أيضاً نذلة وشريرة. بيد أنه يبدو لي أن هذه الشخصية – تراجيدية رغم أن الكثيرين سيقولون على الأرجح عند القراءة: «ما هذا؟»

أجلس بصدد هذه الشخصية لأنني منذ فترة طويلة أريد رسمها. وبرأيي هو شخصية روسية ونموذجية في آن معاً. سيحزنني حزناً شديداً إذا لم تتيسر لي هذه الشخصية في النجاح. وسيكون الأكثر حزناً فيما إذا سمعت الحكم أن هذه الشخصية متكلفة ورسمية أكثر مما ينبغي. استقيت هذه الشخصية من القلب. وهذا الطبع نادراً ما يظهر في حالته النموذجية إلا أنه طبع روسي (لفئة معروفة من المجتمع) ولكن انتظر للحكم عليّ حتى آخر الرواية يا ميخائيل المحترم. شئ ما ينبئني أنني سوف أنجح في رسم هذا الطبع.

لن أشرح هذا الطبع الآن بالتفصيل إذ أخشى أن أفصح ما لا يجب الإفصاح عنه أسجل نقطة واحدة هي أن هذا الطبع كله مرسوم عندي من خلال عدة مشاهد وليس من خلال محاكمات وآراء. ينتج عن ذلك أن الأمل موجود في إبداع هذه الشخصية.

بقيت فترة طويلة حتى تمكنت من الإمساك ببداية الرواية. أعدت الكتابة عدة مرات. في الحقيقة ما جرى عندي مع هذه الرواية لم يحدث إطلاقاً أبداً إذ كنت أتوقف لأسابيع عن العمل في البداية وأكتب من النهاية. ولكن أخشى أن تكون البداية نفسها أكثر حيوية.

لم ترتسم بعد اشتباكات الرواية رغم إرسال حزمة من الأوراق المطبوعة. وهذه الاشتباكات ستتوسع وتتطور بصورة فجائية. أنا أكفل الاهتمام اللاحق بالرواية. بدا لي أن الوضع سيكون أفضل مما هو الآن.

لن تكون الشخصيات كلها متجهمة وكئيبة بل ستكون حاضرة أيضاً شخوص مضيئة. وما أخشاه بشكل عام هو أن لا يكون الشئ الكثير ضمن قدراتي. مثلاً في المرة الأولى أريد تناول صنف واحد من الشخوص كان الأدب نادراً ما طرحها. والمثل الأعلى على مثل هذه الشخصية آخذ: تيخون زادونسكي. هو نفسه القديس الذي عاش في جو الهدوء والسكينة في الدير. أقارن معه، لفترة من الوقت، بطل الرواية. جل ما أخشاه أنني لم أقدم إطلاقاً على التجريب ولكن أعرف شيئاً ما في هذا العالم.

آنّا دوستويفسكايا:

مر الوقت ونحن في نيسان **1871** يكون قد مضى على وجودنا خارج البلاد أربع سنوات والأمل بالعودة إلى روسيا كان يظهر أحياناً ويختفي أحياناً أخرى. وأخيراً قررنا سوية مع الزوج العودة في أقرب وقت إلى بطرسبورغ بغض النظر عما تخلفه هذه العودة من عواقب. ولكن حساباتنا كانت معلقة على شعرة: كنا نتوقع زيادة جديدة في الأسرة في تموز أو آب ولو لم يتيسر لنا الانتقال إلى روسيا خلال شهر من الحدث المتوقع لاضطررنا إلى البقاء سنة أخرى حتى الربيع لأن نقل المولود الجديد في وقت متأخر من الخريف لا يحمل أي جدوى. وعندما اعتقدنا أنه علينا أن نبقى بعيدين عن روسيا سنة أخرى أصبنا بحالة من القنوط الكامل وصار غير محتمل العيش في الغربة. ودوستويفسكي غالباً ما كان يقول: إذا بقينا

خارج البلاد فهو سوف «يهلك» وهو غير قادر بعد الآن على الكتابة لأنه لا توجد مادة لديه وأنه يشعر بالتوقف عن تذكر وفهم روسيا والروس لأن الروس في درسدن هم من معارفنا وهم، برأيه، ليسوا روس. بل مهاجرون طوعيون لا يحبون روسيا وغادروها إلى الأبد. كانت هذه هي الحقيقة. كلهم كانوا أفراداً في عائلات النبلاء والذين لم يستطيعوا التهادن مع الغاء القنانة وظروف الحياة المتبدلة فغادروا الوطن كي يتمتعوا بحضارة أوربا الغربية. إنهم الجزء الأكبر من البشر الحاقدين على النظم الجديدة وانخفاض مستوى الرفاهية لديهم والذين يعتقدون أن حياتهم ستكون أسهل في الغربة.

غالباً ما كان دوستويفسكي يتحدث عن « الهلاك» المؤكد لموهبته. تعرض للعذاب النفسي إذ كيف يطعم أسرته العزيزة والمتزايدة بحيث أنني كنت أحياناً أصاب باليأس وأنا أسمعه. ولأجل تهدئة مزاجه المضطرب وطرد الأفكار الكئيبة المعيقة عن التركيز على عمله لجأت إلى تلك الوسيلة التي كانت دوماً تبدد الكآبة وتسليه. ونظراً لوجود مبلغ قليل من النقود (ثلاثمئة تالير) فتحت باب الحديث عن الروليت ولماذا لا يجرب حظه وقلت أنه صدف أن ربح فلماذا لا يأمل بأن يكون التوفيق في هذه المرة أيضاً إلى جانبه الخ. بالطبع لم أعتمد ولا لحظة واحدة على الربح وأسفت أسفاً شديداً على المئة تالير التي ضحينا بها. غير أنني عرفت من خبرة السفرات السابقة إلى الروليت أن دوستويفسكي بعد أن كان يعاني

انطباعات عاصفة جديدة ويرضي متطلباته للمجازفة واللعب يعود هادئاً ومقتنعاً بلا جدوى آماله في الربح ويشرع بقوة جديدة في متابعة الرواية ويستعيد كل ما خسره خلال أسبوعين – ثلاثة. فكرتي عن الروليت كانت حسب مزاج الزوج ولم يعد يتخلى عنها. أخذ معه المئة والعشرين تاليراً على أساس أنه في حالة الخسارة سأرسل إليه لطريق العودة وهكذا سافر إلى ڤيسبادن التي مكثت فيها أسبوعاً واحداً. وكما كنت أعتقد فإن اللعب بالروليت كان يحمل نتيجة شجية ويرثى لها وهو سوية مع السفرة أنفق مئة وثمانين تاليراً – هذا المبلغ له قيمته وقتذاك. ولكن تلك العذابات القاسية التي عاناها دوستويفسكي خلال الأسبوع عندما أنب نفسه بأنه انتزع النقود من الأسرة، مني ومن الطفلة قد أثرت فيه لدرجة أنه قرر أن لا يلعب بالروليت طوال حياته. وهاكم ما كتبه لي زوجي بتاريخ 28 نيسان 1871: «خيمت فوقي قضية عظيمة. اختفت الفانتازيا الدميمة والتي كانت تعذبني طوال عشر سنوات تقريباً (أو من الأفضل منذ وفاة الشقيق عندما شعرت بالانقباض الشديد بسبب الديون) وصرت أحلم دوماً بالكسب، بجدية ورغبة جامحة. انتهى الآن كل شئ! كانت هي المرة الأخيرة. هل تصدقين يا آنيا أن يدي قد أطلقتا. كنت مشدوداً باللعب والآن سأفكر في الحياة العملية ولن أحلم طوال الليالي باللعب مثلما كان يحدث». طبعاً لم أستطع على الفور تصديق مثل هذه السعادة الهائلة أي فتور دوستويفسكي تجاه اللعب بالروليت. فهو كثيراً ما كان يطلق الوعود بعدم اللعب إلا أنه لم

يكن قادراً على تنفيذ الوعد. بيد أن هذه السعادة تحققت وكان الوعد هو آخر مرة لعب بها بالروليت. وفيما بعد في سفراته خارج الوطن (**1874** ، **1875** ، **1876** ، **1879**) لم يفكر دوستويفسكي إطلاقاً بالذهاب إلى مدينة القمار في الحقيقة، سرعان ما أغلقت دور الروليت في ألمانيا إلا أنها كانت موجودة في سپا والساكسون ومونت كارلو. ولا تستطيع المسافة أن تعيق الزوج عن السفر إلى هناك فيما لو تمنى ذلك. ولكن لم يعد هناك ما يجذبه إلى اللعب بل فجأة شفي منه وإلى الأبد.

رجع دوستويفسكي من ڤسبادن حيوياً ونشيطاً وهادئاً وشرع على الفور في متابعة إبداع رواية «الشياطين» لأنه تنبأ أن العودة إلى روسيا والاستقرار في المكان الجديد لن تمنحه الامكانات كي يعمل كثيراً. وكل خطط زوجي كانت موجهة نحو الطريق الجديد في الحياة الذي انفتح أمامنا وهو صار يتنبأ سلفاً باللقاء مع الأصدقاء والأهل القدامى الذين كان بإمكانهم أن يتغيروا تغيراً قوياً خلال السنوات الأربع المنصرمة وهو وعى تبدل بعض نظراته وآرائه في كيانه نفسه.

١٨٧١ - ١٨٧٣

العودة إلى روسيا،

ميلاد الابن فيديا «المواطن».

آنّا دوستويفسكايا:

رجعنا إلى بطرسبورغ في الثامن من تموز **1871** في يوم حار وصحو وذلك بعد أربع سنوات من الإقامة خارج البلاد.

انطلقنا من محطة وارصو واجتزنا شارع اسماعيلوف بجانب كاتدرائية الثالوث المقدس التي تكللنا فيها. صلينا أنا والزوج في الكنيسة. نظرت ابنتنا الصغيرة إلينا ووضعت إشارة الصليب.

قال دوستويفسكي: وماذا يا آنيا، لقد أمضينا أربع سنوات سعيدة خارج البلاد رغم بعض الصعوبات التي تخللتها. فهل ستمنحنا الحياة البطرسبورغية شيئاً ما؟ كل شئ أمامنا ضبابي... أتنبأ بصعوبات جمة وحالات من القلق قبل الوقوف على القدمين. آمل فقط بالرب فهو الوحيد الذي يساعدنا!

– حاولت أن أواسيه: لماذا الحزن مسبقاً. سنأمل بأن الرب لن يتركنا! الشئ الرئيسي أن حلمنا القديم قد تحقق ونحن الآن سوية معك في الوطن!...

بعد ثمانية أيام من وصولنا إلى بطرسبورغ، السادس عشر من تموز في الصباح الباكر ولد ابننا الأكبر فيودور. كان دوستويفسكي يصلي طوال النهار والليل لأجل الخاتمة الموفقة. وقال لي لاحقاً أنه قرر إذا كان المولود صبياً وإن يكن قبل منتصف الليل سنسميه فلاديمير الذي يحتفل بذكراه في 15 تموز إلا أن الصغير ولد في السادس عشر لذا سمي فيودور على شرف الأب حسبما قررنا ذلك منذ أمد بعيد. كان دوستويفسكي في غاية السعادة بأنه حظي بطفل وكل شئ تم بالتوفيق.

لوبوف دوستويفسكايا (1869 – 1926) ابنة الكاتب:

أمضى والدي في السنوات الأولى بعد العودة إلى روسيا نمط حياة منطوية للغاية ونادراً ما يجلس برفقة الآخرين بل كان يكتفي برؤية الأصدقاء المقربين جداً. وهو تقريباً لم يشارك في الحياة الاجتماعية. ولا يزال طلبة بطرسبورغ يكنون له النفور ونادراً ما كانوا يدعونه إلى أمسياتهم الأدبية. بالكاد أن يكونوا نسوا أن «دوستويفسكي أهان الطلبة الروس في شخص راسكولنيكوف» حتى وجه والدي الأذية لهم وبشكل أقسى. ففي روايته «الشياطين» قال بشكل لا وضوح بعده إنه يعتبر الثوريين مخبولين وحمقى. كان الشبان حائرين بصورة مريعة. كانوا يفترضون أنهم يمثلون رجال بلوتارخ العظام...

لم يضف دوستويفسكي أهمية على غضب الطلبة ولم يحن لنجاحه السابق عندهم. فهم، في عينيه، مجرد فتيان فقراء تائهين وإذ كان إنساناً جدياً فهو لم يحتج إلى مديحهم الطفولي. فالمسرات الممنوحة بسبب إبداع التحف الفنية كانت الجائزة الكافية تماماً لقاء جهده. ولم تستطع إعلانات الاستحسان السوقية أن تضيف شيئاً. يبدو لي أن والدي كان في السنين الأولى بعد العودة إلى بطرسبورغ أكثر سعادة من السنوات اللاحقة عندما أحرز نجاحاً أكبر. كانت تحبه الزوجة والأولاد وهم صغار بعد ويمرحون معه بضحكهم وأسئلتهم الساذجة. وكثيراً ما يزوره الأصدقاء القدامى وكان قادراً على التحدث معهم حول موضوعاته المفضلة. صحته تحسنت ونوبات الصرع صارت أكثر ندرة ولم تكن بعد ظاهرة للعيان علامات مرض الموت الذي كان يجب أن يضع حداً نهائياً لحياته.

آنّا دوستويفسكايا:

عانى دوستويفسكي بعد أن أنهى رواية «الشياطين» ولفترة من الوقت تردداً كبيراً بصدد ما يجب أن ينشغل به الآن. كان منهمكاً في العمل على «الشياطين» بحيث أن الشروع مباشرة في إبداع رواية جديدة بدا له مستحيلاً. وكان من الصعوبة بمكان تحقيق الفكرة التي ولدت خارج البلاد وهي إصدار «يوميات كاتب» في شكل مجلة شهرية...

تردد دوستويفسكي كثيراً وأنا لا أعرف أي قرار سيتخذ لو لم يقترح عليه الأمير فلاديمير ميشيرسكي أن يلتزم أمام رئاسة تحرير المجلة الأسبوعية «المواطن». تأسست هذه المجلة قبل سنة وصدرت تحت إشراف غريغوري غرادوفسكي. وقد التف حول هيئة تحرير المجلة الجديدة فريق من ذوي الفكر الواحد والقناعات الواحدة ومنهم قسطنطين پابدونوتسيف وأبولون مايكوف وت.ي.فيليبوف ونيقولاي ستراخوف وآ.پاريتسكي ويفغيني بيلوف – كانوا متعاطفين مع دوستويفسكي وبدا لهم العمل معه جذاباً. ولم تكن أقل جاذبية بالنسبة إلى الزوج تقاسم الآمال والشكوك التي نضجت في ذهنه مع القراء. وعلى صفحات «المواطن» أمكن تحقيق فكرة «يوميات كاتب» وإن كانت ليست بتلك الصيغة الخارجية التي اتخذتها لاحقاً. وعلى فكرة إن دوستويفسكي بموافقته على رغبة المتعاطفين معه أن يأخذ على عاتقه تحرير «المواطن» لم يخف عنهم أنه يلتزم بذلك موقتاً على شكل استراحة من العمل الفني ولأجل الامكانية للتعرف بنسبة أكبر إلى الواقع الماثل ولكن عندما تظهر الحاجة للإبداع الشعري مرة ثانية في كيانه فهو سيهمل النشاط غير المنسجم مع طبيعته...

مما أثار اهتمام دوستويفسكي في الفترات الأولى من تحرير«المواطن» جدة التزامات التحرير وتلك النماذج المختلفة التي اضطر إلى مصادفتها في التحرير.

وأنا أيضاً فرحت، في البداية بسبب تبدل مشاغل الزوج مفترضة أن تحرير مجلة شهرية لا يمكنه أن يشكل صعوبات وسيتيح المجال لدوستويفسكي كي يرتاح تقريباً بعد عمل ثلاث سنوات في إبداع «الشياطين» ولكن تدريجياً صرنا ندرك أنا والزوج أنه ارتكب خطأ بقراره الشروع في نشاط غير متلائم مع طبعه. تعامل دوستويفسكي تعاملاً وجدانياً للغاية مع متطلبات التحرير والتدقيق فهو نفسه كان يقرأ كل المقالات المرسلة إلى المجلة بل حتى بعض المقالات التي تفتقد للمهارة والحذاقة مثل مقالات الناشر نفسه وكان يصحح ويصرف وقتاً طويلاً على ذلك. احتفظت بمسودتين – ثلاث لقصائد مكتوبة بصورة خرقاء إلا أن بعضها يحمل، حسب ما هو ظاهر، بروق الموهبة، ويالها من أشعار رشيقة بدت عليها بعد تصحيحها من قبل فيودور دوستويفسكي. وفي حالات الاختصار كانوا يكتبون له رسائل حادة وسليطة في بعض الأحيان. ولم يتوان دوستويفسكي عن الرد برسائل لا تقل حدة وسلاطة إلا أنه كان يأسف لهذا في اليوم التالي. وبما أنه يكلفني بإرسال الرسائل ولمعرفتي بأن ثورته ستهدأ لم أكن أبعث بها مباشرة وعندما كان الزوج في اليوم التالي يعبر عن الأسف بسبب حدة الرسالة يتبين «بالصدفة» أن الرسالة لا تزال في مكانها ولم ترسل إلى أي مكان ويرد دوستويفسكي على الرسائل بمزاج أهدأ. وقد احتفظت في أرشيفي بأكثر من عشر رسائل من هذه الرسائل «الحامية» التي بإمكانها أن تخاصم الزوج مع البشر الذين لم يكن يرغب الخصام معهم إلا أنه تحت تأثير الحزن

والأسى أو الهيجان والغضب لم يستطع ضبط النفس وكان يعبر عن رأيه دون هوادة ولا شفقة بعزة النفس. كان دوستويفسكي شاكراً لي دوماً على عدم إرسال الرسائل «بالصدفة». وما أكثر المرات التي كان يوجد في هيئة التحرير السكرتير ڤيكتور بوتسيكوڤيتش إلا أن أكثرية المؤلفين كانوا يرغبون التكلم مع المدير وكثيراً ما كان يحدث سوء تفاهم. كان دوستويفسكي وفياً صادقاً في كلامه وتصرفاته ويعبر مباشرة وصراحة عن رأيه لذا خلق لنفسه أعداء كثيرين في الوسط الصحفي.

فيما عدا المنغصات المادية كان دوستويفسكي يتحمل خلال فترة التحرير الكثير من الآلام الأخلاقية والمعنوية لأن الأشخاص غير المتعاطفين مع توجه «المواطن» أو الذين يحبون الأمير ميتشيرسكي نفسه قد نقلوا نفورهم، بل أحياناً، كرههم إلى دوستويفسكي. ظهر عنده في الأدب جمع غفير من الأعداء وبالذات ضد محرر مثل هذه الهيئة المحافظة – « المواطن». ويالها من غرابة أنه في وقت لاحق، قبل وبعد رحيل دوستويفسكي لم يستطع الكثيرون الغفران له لرئاسته تحرير «المواطن» وإن أصداء هذه الخصومة يمكن مصادفتها الآن أيضاً في الصحافة.

telegram @t_pdf مكتبة

آنّا دوستويفسكايا:

كانت حياتنا اليومية في ستارايا روسّا موزعة حسب الساعات وتم التقييد بذلك بصرامة. ففي عمله في الليالي كان الزوج لا ينهض قبل الحادية عشرة. يحتسي القهوة ويدعو الولدين، وهما يهرعان إليه بسرور ويروون كل ما حدث في الصباح وكل ما رأوه في أثناء النزهة. ينظر دوستويفسكي إليهما، يفرح بهما ويجري معهما حديثاً حيوياً نشيطاً. وأنا لم أشاهد لا سابقاً ولا لاحقاً ذاك الإنسان القادر بهذه الدرجة، مثل زوجي، أن يدخل عالم تأملات الأطفال ويثير انتباههما بحديثه. ففي هذه الساعات يصبح دوستويفسكي نفسه طفلاً.

كان دوستويفسكي، بعد الظهر يناديني إلى مكتبه كي يملي ما تيسر له كتابته خلال الليل. وكان العمل مع دوستويفسكي، بالنسبة إلي متعة دائمة. وأنا كنت فخورة جداً بنفسي أنني أساعده وأنني أول القراء الذي يسمع مؤلفه من ثغر المؤلف...

كان دوستويفسكي بعد انهاء الإملاء وتناول الفطور معي يقرأ (في ذاك الشتاء) «رحلات اينوك پارفيني» أو يكتب رسائل وبغض النظر عن الطقس كان يخرج في الثالثة والنصف للتنزه في شوارع روسّا الصحراوية الهادئة. وتقريباً دائماً كان يذهب إلى دكان أسرة پلوتنيكوف ويشتري فقط ما هو

وارد من بطرسبورغ (مقبلات وهدايا) وكل شئ بكميات قليلة. كانوا في المخزن يعرفونه ويجلونه ولا يرتبكون من أن يشتري بأنصاف الجنيهات بل أقل وهم يسرعون في عرض أي جديد فيما إذا حصلوا عليه.

كنا نجلس في الخامسة لتناول طعام الغداء سوية مع الأولاد وهنا يكون الزوج دوماً في مزاج رائع. وأول ما يتم تقديمه هو قدح الڤودكا للعجوز بروخوروڤنا مربية ابننا. ويقدم دوستويفسكي بنفسه هذا القدح لها. كانت تشرب القدح وتتناول قطعة من الخبز مع الملح. يمر الغداء في جو من المرح والصغار يثرثرون بلا انقطاع ونحن بدورنا لم نتكلم إطلاقاً وراء المائدة عن شئ ما جدي فوق مستوى الولدين. وبعد الغداء والقهوة كان الزوج يبقى لأكثر من نصف ساعة مع الصغار وهو يروي لهم الحكايات أو يقرأ لهم من حكايات كريلوف.

في الساعة السابعة مساء كنا سوية مع دوستويفسكي نتوجه في نزهة مسائية، وفي طريق العودة كنا نعرج بالضرورة على إدارة البريد حيث كان يتيسر لنا دراسة بر يد بطرسبورغ. كانت المراسلات عند دوستويفسكي هامة لذا كنا أحياناً نستعجل الخطى إلى البيت كي نشرع في قراءة الرسائل والجرائد.

وفي التاسعة مساء كنا نرقد أطفالنا للنوم بينما يباركهم قبل الذهاب إلى النوم ويقرأ معهم «أبونا» و«أمنا العذراء»... ولغاية الساعة العاشرة يخيم الهدوء في البيت لأن الجميع، حسب العادات الريفية، يرقدون باكراً.

يذهب دوستويفسكي إلى مكتبه كي يقرأ الجرائد وأما أنا التي أصابني الإعياء بسبب جلبة النهار وضجة الأولاد فقد كنت سعيدة بالجلوس في جو الهدوء والسكينة والاستقرار في غرفتي حيث أبدأ توزيع لعبة الپاتينس (ضرب من لعب الورق يلعبه شخص واحد عادة – المترجم) التي كنت أعرفها حتى الدزينة.

أتذكر بحنان قلبي كيف كان الزوج يأتي كل مساء ولعدة مرات كي يعلمني ما قرأه من الجرائد الأخيرة أو لمجرد الهذر والثرثرة وكان دوماً يساعدني في إتمام الپاتينس مؤكداً لي لأنني لا أوفق في الپاتينس إذ أهمل الكثير من الفرص الجيدة ولاستغرابي الشديد كان يكتشف دوماً الأوراق اللازمة وغير الملحوظة من قبلي. كانت الپاتينسات ذكية وحكيمة ونادراً ما كنت أتمكن من الفوز بدون عون الزوج. وعندما تدق الساعة الحادية عشرة يظهر الزوج عند باب غرفتي وهذا كان يعني أنه آن أوان النوم وكنت أرجوه لمرة أخرى كان الزوج يوافق وكنا نوزع الپاتينس سوية. بعدها كنت آوي للفراش والجميع نائمون في الدار إلا زوجي النشيط وراء العمل حتى الساعة الثالثة – الرابعة ليلاً...

في تلك الفترات غالباً ما كانت تحدث الحرائق في ستارايا روسّا شتاءً وصيفاً وحيث تحترق بسببها شوارع بأكملها ومعظمها كان يحدث في الليالي (في مكان ما في مخبز أم حمام). ويتذكر دوستويفسكي عندما احترقت اورنبورغ برمتها حيث كان يضطرب عند بدء قرع أجراس الكنائس

الواقعة بالقرب من الحريق. لذا كنا متفقين في أثناء وجودنا في روسّا أن يوقظ أحدنا الآخر ما أن يدق جرس الإنذار. وعند ذاك يهزني دوستويفسكي من كتفي ويقول: «انهضي يا آنيا لا تخافي هناك حريق في مكان ما. لا تضطربي فأنا ذاهب لمشاهدة أين الحريق!».

نهضت على التو وألبست الصغيرين النائمين الجرابات والجزمات وأعددت لهما الألبسة الفوقية كي لا يصابا بالزكام فيما إذا لزم الأمر إخراجهما. ثم هيأت شرشفين رتبت في أحدهما ألبسة الزوج ودفاتر الجيب والمفكرات والمخطوطات، وفي الآخر كل ما كان موجود في الخزانة – ألبستي والأشياء الطفلية. بعد أن أنجزت كل هذا هدأت وأنا أعرف أنه سيتم إنقاذ الشئ الرئيسي. في البداية حملت كل الربطات والرزم إلى مدخل الدار أي أقرب نقطة من المخرج. وبعد عودة دوستويفسكي من الاستفسار تعثر، في الظلمة، بالرزم وكاد يسقط لذا نقلت كل شئ إلى الغرف.

دوستويفسكي لم يهزأ بي ولا مرة قائلاً إن «الحريق على مسافة أكثر من 3 كيلومترات وأنا أخذت أوضب الأشياء». ولكن لاحظ أنه لم يقنعني بهذا الكلام...

كان مزاج دوستويفسكي طوال فترة إقامتنا في ستارايا روسّا دوماً لطيفاً وأنيساً ومرحاً...

ونحن على أبواب الربيع خرج دوستويفسكي صباحاً من غرفة نومه وهو متجهم عابس. شعرت بالقلق وسألته عن الصحة.

– أجاب دوستويفسكي: أنا سليم معافى تماماً ولكن حدثت قصة مضجرة ومزعجة. رأيت في فراشي فأرة صغيرة. استيقظت وشعرت أن هناك شيئاً ما يهرول على الرجل. أبعدت البطانية فوجدت الفأرة. كان هذا أمراً مقززاً وأضاف: يجب البحث في السرير!

– فأجبت أنا: بالتأكيد.

ذهب دوستويفسكي إلى غرفة الطعام كي يشرب القهوة بينما أنا ناديت على مدبرة المنزل والطباخة كي تتفحصا السرير بدقة ولكن لم تجدا شيئاً وقد قامتا بتبديل البياضات ثم حركتا الطاولات ومنضدة الكتب عن الجدران كي تجدا جحر الفئران ولكن دون جدوى.

سمع دوستويفسكي جلبة أثرناها فصرخ علي في البداية إلا أنني لم أسمع شيئاً فأرسل أحد الأولاد فأجبت أنني آتية ما أن أنهي توضيب الغرفة ثم أصر دوستويفسكي على ضرورة قدومي إلى غرفة الطعام فأتيت على الفور.

– سألني دوستويفسكي بحالة التأفف السابق. هل وجدت الفأرة؟

– أين نجدها، هرب. ولكن أغرب ما في الأمر أنه، كما تبين لا وجود لأية فتحة في غرفة النوم. من الواضح أنه هرب من البهو.

– رد علي دوستويفسكي: الأول من نيسان يا آنيا، الأول من نيسان وارتسمت على محياه اللطيف ابتسامة مرحة. تبين أن الزوج تذكر بأنه في

الأول من نيسان يتم الخداع اللطيف وأراد أن يمزح معي وأنا صدقت ناسية التاريخ. وبالطبع كان هناك الكثير من الضحك حيث نضحك بعضنا مع البعض الآخر وانسحبت الحال على الأولاد.

لوبوف دوستويفسكايا:

عاش والدي في ستارايا روسّا حياة انعزالية. نادراً ما كان يزور الحديقة والكازينو حيث صارا مكاناً لتجمع المصطافين. فهو كان يفضل التنزه على طول النهر في أماكن منعزلة. كان يسير في الطريق نفسه دون تغيير مخفضاً عينيه وهو غارق في التأملات وبما أنه ينطلق من البيت في وقت محدد كان الشحاذون ينتظرونه لأنهم كانوا يعرفون أنه لن يرفض الاحسان إليهم إطلاقاً. ووالدي الغارق في أفكاره كان يوزع النقود بصورة ميكانيكية دون أن يلحظ أنه يتصدق على الناس أنفسهم. كانت والدتي تلاحظ جيداً خدعات المتسولين واحتيالاتهم وهي تتلهى بشرود الزوج وتشتته. فهي فتية وكانت تشعر بالرضا وهي تمزح معه. وفي إحدى أمسيات الخريف عندما رأت الزوج العائد من النزهة ربطت الرأس بمنديل قديم وأخذتني من يدي ووقفت في طريقه. عندما اقترب الوالد منها قالت الأم بلهجة حزينة: «أيها السيد الطيب، اشفق علينا! عندي زوج مريض وطفلان صغيران». توقف دوستويفسكي ونظر إلى والدتي وقدم لها الصدقة. وصل إلى حالة الحنق

الشديد عندما بدأت زوجته تضحك بعد أن أخذت النقود. وقال بمرارة: «كيف استطعت أن تمزحي معي هذه المزحة؟ ناهيك بحضور الطفلة».

آنّا دوستويفسكايا:

في صيف 1876 كان يعيش في ستارايا روسّا مع عائلته البرفسور في جامعة بطرسبورغ نيقولاي ڤاغنر. زارنا حاملاً معه رسالة من ياكوب بولونسكي وترك عند زوجي انطباعاً حسناً. غالباً ما صارا يلتقيان وأثار اهتمام دوستويفسكي هذا الزائر الجديد كشخص متعصب للكحوليات.

قال لي ڤاغنر الذي قابلني، ذات مرة، في الحديقة:

– رآني البارحة دوستويفسكي!

– أثار فضولي فسألت: ومن يكون؟

– في المساء بينما كنت أتنزه أردت زيارتكما، وعند التقاطع ألتقي بزوجك وأسأل: «هل أنت ذاهب إلى النزهة يا دوستويفسكي؟».

– كلا، ليس إلى النزهة بل في مهمة عمل.

– هل يمكنني المجئ معك؟

أجاب دون ترحيب:

– تعال إذا كنت تريد. بدا لي أنه في هيئة مهمومة ويبدو أنه لم يكن راغباً بفتح حديث معي. وصلت إلى التقاطع الأول. صادفنا امرأة وسألها دوستويفسكي:

– ألم تصادفي في طريقك بقرة سمراء داكنة؟

– أجابت: كلا يا أبت لم أصادف أحداً.

بدا لي السؤال عن البقرة السمراء الداكنة فيه غرابة وأنا أعزيته إلى المعتقدات الشعبية التي يمكن الحكم بواسطتها على أول بقرة عائدة من الحقل بصدد الطقس غداً واعتقدت أن دوستويفسكي يستعلم عن البقرة بهدف معرفة الطقس ليوم الغد. ولكن عندما اجتزنا شارعاً – حياً آخر صادف دوستويفسكي ولداً وكرر السؤال له وأما أنا فلم أستطع أن أتمالك نفسي وسألت:

– هل كنت يا دوستويفسكي بحاجة إلى بقرة سمراء داكنة؟ ولماذا؟

– كيف لماذا؟ أنا أبحث عنها.

– تعجبت: تبحث عنها؟

– نعم أبحث عن بقرتنا. فهي عادت من الحقل. غادر أهل الدار جميعهم للبحث عنها وأنا أيضاً أبحث. هنا فقط أدركت لماذا كان دوستويفسكي يتفحص باهتمام شديد الأقنية والسواقي على أطراف الشارع وهو في غاية الشرود والتشتت.

– أنا سالت ڤاغنر: ما الذي أثار استغرابك إلى هذا الحد؟

– أجاب: كيف لا، فنان الكلمة العظيم الذي ينشغل الذهن والفانتازيا عنده دوماً بُمثل النظام السامي وهو يجول في الشارع باحثاً عن بقرة سمراء داكنة.

– قلت أنا: من الواضح أنك لا تعرف أيها المحترم نيقولاي ڤاغنر أن دوستويفسكي ليس كاتباً موهوباً فحسب بل هو رب أسرة على غاية من الرقة واللطف والذي يحظى كل ما يجري في البيت بالنسبة إليه بأهمية كبيرة. ولو لم تعد البقرة إلى الدار في الأمس لبقي طفلانا وخاصة الأصغر بلا حليب أو لحصلا عليه من بقرة لا يعرفونها وربما هي سقيمة عليلة. وها هو دوستويفسكي انطلق باحثاً عنها.

ينبغي القول إنه لم تكن لدينا بقرة نملكها ولكن عندما كنا نسافر صيفاً إلى روسّا كان سكان الضواحي يحاولون، وهم يتنافسون فيما بينهم، إعطاءنا بقرتهم لشهر الصيف. وفي كل صيف كان يحدث مرات ثلاث – أربع أن لا تعود البقرة من الحقل مع القطيع وعند ذاك تستنفر الدار كلها في مختلف الشوارع بحثاً عنها. كانت أفراح الأسرة وأتراحها قريبة جداً من قلب فيودور دوستويفسكي وفي هذه الحالة ساعدنا مرتين – ثلاث مرات بنفسه في سوق بقرتنا إلى الدار وأدخلها عبر الخوخة.

١٨٧٥ – ١٨٧٨ ولادة ورحيل الابن ألكسي
السفر مع فلاديمير سولوفيوف
إلى صحراء اوبتينا

لوبوف دوستويفسكايا:

في العاشر من آب **1875** رأى أخي الثاني ألكسي النور. وقد اختلف الوالدان قليلاً بصدد الاسم. أرادت الأم اسم ايڤان على شرف أخيها الذي كانت تحبه بكل حنان بينما رغب دوستويفسكي اسم ستيپان في ذكرى الأسقف ستيپان الذي كان حسب كلمات الأب مؤسس أسرتنا الأرثوذكسية. أصيبت الأم بشئ من الاستغراب بعد أن سمعت هذه الكلمات من الوالد الذي نادراً ما يذكر أجداده. يبدو لي أن دوستويفسكي الذي كان يثير اهتمامه الأكبر الكنيسة الأرثوذكسية أراد التعبير عن شكره لمن كان أول من توجه في أسرتنا الليتوانية إلى الأرثوذكسية. أما الأم فلم تكن تحب اسم ستيپان واتفق الوالدان على اسم ألكسي الذي تعاطف معه الاثنان. كانت صحة والدتي في ذاك الوقت سليمة لدرجة أنها ولدت بلا الم تقريباً. بدا ألكسي الصغير طفلاً متيناً ومعافى ولكن كان لديه جبين بيضوي أخرق تقريباً. كان رأسه الصغير ذا شكل بيضوي. وهذا لم يشوه الطفل إلا أنه أضفى عليه تعبيراً مضحكاً وغريباً. وعندما نما ألكسي صار محبوب دوستويفسكي. كان محظوراً على شقيقي الأكبر وأنا الدخول إلى

مكتب الوالد بدون إذن أما الصغير ألكسي فكان محرراً من الحظر. يؤجل دوستويفسكي العمل ويجلس الطفل على ركبته ويصفق بالكف. كان ألكسي ذكياً ولطيفاً. انخرطت الأسرة كلها في البكاء الشديد عندما رحل ألكسي فجأة في عمر السنتين والنصف. حدث هذا في بطرسبورغ في أيار قبل عدة أيام من سفرنا إلى ستارايا روسّا.

آنّا دوستويفسكايا:

في السادس عشر من عام **1878** أصيبت الأسرة بتعاسة مريعة إذ رحل الابن الأصغر ألكسي عنا إلى الأبد. ولا شئ يفوق الحزن الذي أصابنا إذ كان الصغير دوماً سليم الجسم ومرحاً. وفي الصباح في يوم وفاته كان لايزال يتعلثم بلغة لا يفهمها الجميع ويضحك بصوت عالٍ مع العجوز پروخوروڤنا التي نزلت في ضيافتنا قبيل سفرنا إلى ستارايا روسّا. وفجأة صار وجه الطفل يتعرض لرجفة خفيفة تحدث أحياناً حسب رأي المربية عند أسنانه. خفت كثيراً ودعوت طبيب الأطفال الدائم. كان غريغوري تشوشين يعيش غير بعيد عنا وحضر على الفور. على ما يبدو لم يضف الطبيب أهمية خاصة على المرض. كتب شيئاً ما وأكد أن هذه الرجفة – النوبة سرعان ما تزول. ولكن بما أن الرجفة استمرت فقد أيقظت دوستويفسكي الذي اضطرب كثيراً. قررنا التوجه إلى اختصاصي في الأمراض العصبية وأنا توجهت إلى البروفسور اوسبينسكي. كان في عيادته حيث يوجد عشرون

مريضاً في الانتظار. استقبلني لدقيقة واحدة وقال لي ما ان يعالج جميع مرضاه حتى يأتي إلينا. كتب لي بعض المهدئات وطلب مني استخدام مخدة اوكسجين من وقت لآخر. عدت إلى الدار فرأيت الطفل يعاني الوضع ذاته. كان بلا وعي وجسده الصغير يهتز من الرجفات من حين لآخر. ولكن، على ما يبدو، لم يكن يتألم. لم يكن هناك أنين وصراخ. نحن لم نفارق الصغير وانتظرنا مجئ الطبيب بفارغ الصبر، وأخيراً حوالي الساعة الثانية حضر وفحص المريض وقال لي: «لا تبك ولا تجزعي، فكل شئ سيمر على ما يرام!». رافق دوستويفسكي الطبيب وعاد بوجه شاحب مريع ووقف عند الأريكة على ركبتيه حيث نقلنا الصغير إليها كي يراه الطبيب بصورة مريحة أكثر. وأنا وقفت بجانب الزوج وأردت سؤاله ماذا قال الطبيب بالذات إلا أنه بإشارة منه منعني عن الكلام (عرفت لاحقاً أنه بدأت سكرة الموت). مرت ساعة واحدة وأخذنا نلحظ أن الرجفات تناقصت، بعد أن هدأني الطبيب صرت سعيدة مفترضة أن رجفاته تنتقل إلى حلم هادئ ينبئ بالتعافي. ويا له من يأس اجتاحني عندما توقف تنفس الصغير وحل الموت.

قبّل دوستويفسكي الصغير ووضع عليه إشارة الصليب وبكى بكاء مراً. وأنا أيضاً بكيت بكاء مراً وكذلك ولدانا اللذان كانا يحبان ألكسي بكل لطف وحنان.

لوبوف دوستويفسكايا:

تمنت والدتي أن تدفن طفلها العزيز إلى جانب جدي غريغوري الذي كان ضريحه يقع في مقبرة اوختين على الضفة الأخرى من النيڤا. وبما أنه لم تكن بعد هناك جسور تربط بين الضفتين كان يجب القيام بحركة التفاف كبيرة. جلسنا، نحن الأربعة، في العربة – البابا والماما وشقيقي فيديا (تصغير لكلمة فيودور) وأنا وتابوت صغير تم وضعه بيننا.

بكينا كثيراً طوال الطريق ونحن نلمس التابوت الصغير المغطى بالورود وصرنا نتذكر تعابير الصغير. بعد الواجبات الدينية في الكنيسة نقلنا التابوت إلى المقبرة. أتذكر هذا اليوم جيداً. إنه يوم مشرق من أيام أيار. الزهر في كل مكان والطيور تغرد على أغصان الأشجار القديمة. وانسكبت الدموع على وجنتي الوالد، ولم تستطع الوالدة أن تغض الطرف عن التابوت الصغير الذي اختفى ببطء تحت التراب...

آنّا دوستويفسكايا:

كان دوستويفسكي مشدوهاً بهذا الموت بصورة مريعة. كان يحب ألكسي حباً أشبه بالحالة المرضية كما لو كان يتنبأ بدقة أنه سيحرم منه. ومما يؤلم دوستويفسكي أن الطفل مات بسبب الصرع، المرض الذي ورثه منه. من حيث المظهر الخارجي كان دوستويفسكي هادئاً وتحمل ضربة القدر برجولة إلا أنني تخوفت من أن ضبط الحزن العميق سينعكس على صحته

التي هي، في الأساس معتلة. ومن أجل تهدئة دوستويفسكي وصرف اهتمامه عن التأملات الحزينة رجوت فلاديمير سولوڤيوف الذي زارنا في أيام حزننا هذه أن يقنع دوستويفسكي بالسفر إلى صحراء اوبتينا حيث اعتزم سولوڤيوف على مساعدتي وصار يقنع دوستويفسكي بالسفر إلى اوبتينا سوية وهكذا تقرر أن دوستويفسكي سيزور موسكو في أواسط حزيران (كان يعتزم قبل هذا التاريخ القيام بالزيارة كي يقترح على كاتكوف روايته المقبلة) واستثمار الفرصة كي يسافر مع فلاديمير سولوڤيوف إلى اوبتينا. ما كنت لأسمح لدوستويفسكي أن يقوم بهذه السفرة وحده في مثل هذا الطريق النائي والشاق وقتذاك. فوجود سولوڤيوف بإمكانه أن يحمي دوستويفسكي فيما إذا انتابته نوبة الصرع.

عاد دوستويفسكي من صحراء اوبتينا هادئاً ساكناً وروى الشئ الكثير عن عادات الصحراء التي قضى فيها يومان كاملان.

التقى دوستويفسكي مع ذاك الشيخ العجوز الشهير و.آمبروسي ثلاث مرات. مرة ضمن جمع من الناس ومرتان على حدة وترك الحديث معه انطباعاً عميقاً صادراً عن القلب. وعندما روى دوستويفسكي للعجوز حول المصيبة التي حلت بهم والحزن الذي انتابهم توجه العجوز بالسؤال التالي: هل هي مؤمنة وعندما رد دوستويفسكي بالاثبات سأله العجوز أن ينقل إليه بركتها وكذلك تلك الكلمات التي قالها لاحقاً العجوز زوسيما في الرواية

للأم الحزينة... يتبين من قصص دوستويفسكي كم كان هذا الشيخ المحترم خبيراً في النفس البشرية ومتنبئاً.

١٨٧٨ – عدم اللقاء
مع ليون تولستوي

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى نيقولاي ستراخوف بتاريخ 28 أيار 1870:

منذ فترة طويلة أود أن أسألك: هل تعرف ليون تولستوي شخصياً؟ إذا كنت تعرفه اكتب لي رجاءً أي إنسان هذا؟ يهمني بصورة هائلة أن أعرف شيئاً عنه. سمعت عنه الشئ القليل جداً كإنسان له خصوصيته.

آنّا دوستويفسكايا:

في أثناء الصوم الكبير قرأ فلاديمير سولوڤيوف عدداً من المحاضرات الفلسفية بتكليف من جمعية محبي التنوير الديني في مبنى سولياني غورودوك. التأم شمل الناس الذين ملأوا القاعة ومن بينهم الكثيرون من معارفنا. بما أن كل شئ على مايرام عندنا في المنزل فقد ذهبت سوية مع دوستويفسكي.

وعند العودة من إحداها سألني الزوج:

– ألم تلاحظي كيف كان موقف نيقولاي ستراخوف منا يحمل شيئاً من الغرابة اليوم؟ فهو نفسه لم يقترب منا مثلما يتصرف دوماً وعندما التقينا في

الاستراحة كان فاتراً للغاية في المصافحة والسلام ثم بدأ الحديث على الفور مع شخص ما. هل هو زعلان منا كيف تفكرين؟

– أجبت: نعم بدا لي هذا كما لو كان يتجنبنا. وعلى فكرة عندما قلت له عند التوديع: «لا تنس يوم الأحد» أجاب: «أنا ضيفكم».

مما يقلقني فيما إذا قلت، من جراء اندفاعي، شيئاً ما مسيئاً بالنسبة إلى ضيفنا المعتاد ليوم الأحد. كانت الأحاديث مع ستراخوف عزيزة على قلب دوستويفسكي وكثيراً ما كان يذكرني قبيل الغداء القادم أن أتزود بنبيذ جديد وأعد السمك الذي يفضله الضيف. وحضر ستراخوف يوم الأحد وأنا قررت الاستيضاح فسألته مباشرة وصراحة فيما إذا كان غضباناً منا.

– فهنا سأل ستراخوف: ما الذي جال في خاطرك يا آنيا؟

– بدا لنا أنا والزوج في محاضرة سولوڤيوف الأخيرة أنك كنت تتجنبنا.

– ضحك ستراخوف قائلاً: كان حدثاً مميزاً فأنا لم أتجنبكما وحدكما بل جميع معارفي. قدم معي إلى المحاضرة الكونت ليون نيقولايڤيتش تولستوي. ورجاني أن لا يعرفني بأحد، لهذا السبب تنحيت عن الجميع.

– هتف دوستويفسكي بدهشة حزينة: كيف! كان معك تولستوي؟ كم هو مؤسف أنني لم أره! بالطبع ما كنت فرضت نفسي على التعارف إذا كان الشخص لم يكن راغباً. ولكن لماذا لم تهمس في أذني من هو معك؟ وليكن كنت نظرت إليه!

– ضحك ستراخوف: أنت تعرفه من البورتريهات.

– وهل تنقل البورتريهات: الشخصية؟ أحياناً نظرة واحدة تكفي كي ينطبع الإنسان في القلب طوال الحياة. لن أغفر لك أبداً يا ستراخوف أنك لم تشر لي عليه.

وفي أوقات لاحقة عبر دوستويفسكي غير مرة عن الأسف لأنه لا يعرف تولستوي وجهاً لوجه.

أحداث ولقاءات

في شوارع بطرسبورغ

نيقولاي ريبين:

هذه الحادثة – المشهد الذي أعتزم التحدث عنه قد حدث مع كاتبنا الشهير فيودور دوستويفسكي قبل 25 سنة بالتمام والكمال.

كلمة «بوسياك» لم تكن بعد متضمنة في المعجم اللغوي الضيق الأفق (بوسياك تعني الصعلوك). وإن أبناء الشوارع من الطالحين الذين تطلق عليهم الآن تسمية «الصعاليك» كانوا معروفين باسم «كاديت ڤيازيمسكي». ومثلما هي الآن حال «الصعاليك» و«الزعران» كان «الكاديت الڤيازيمسكيين» يتصرفون في الشارع بصلف وعجرفة. ورغم أن مكسيم غوركي قد أدخلهم في حينه في عداد الأبطال فهم صاروا وقتذاك يتفاخرون بانتمائهم إلى صنف «الناس السابقين».

صادف المرحوم دوستويفسكي، ذات مرة، واحداً من هؤلاء الصعاليك. كان اليوم يوم عيد. وكاتبنا النفساني الشهير يسير في شارع نيقولايف، وكالعادة ينظر بتركيز إلى أسفل الرجلين. وفي زاوية شارع ستريميانا حيث تقع الآن كنيسة يقترب من دوستويفسكي يقترب شخص بوجه منتفخ وصوت أبح وهو يدمدم: «اعطني شيئاً ما، لهذا الشخص الذي أمامك!».

ألم يسمعه أو لسبب آخر ما إلا أن دوستويفسكي لم يعره اهتماماً وواصل كالسابق طريقه متأملاً مفكراً. وفجأة صرخ: «الشبعان لا يصدق الجائع!». ولوِح هذا الصعلوك ووجه إلى دوستويفسكي قبضة على الرأس.

كانت الضربة قوية لدرجة أن كاتبنا الشهير سقط على الرصيف على مسافة متر ونصف المتر. قفز الشرطي الواقف في الزاوية نحو دوستويفسكي الذي وقع على الأرض وساعده في الوقوف على رجليه والتقط أحد المارة قبعة دوستويفسكي المتدحرجة على الرصيف وأعطاها له. حث الصعلوك الخطى كي يهرب في شارع ستريميانا ولكن بصفارة الشرطي قبض عليه أحد البوابين.

رتب دوستويفسكي نفسه من جراء السقطة ومن الضربة التي تلقاها على الرأس ولبس القبعة التي أعطوه إياها وأراد متابعة طريقه كما لو لم يحدث معه أي شئ إلا أن الشرطي أوقفه وطلب منه بطاقة زيارة.

– سأل دوستويفسكي الشرطي: لماذا تحتاجها؟

– أشار الشرطي إلى الصعلوك المحتجز قائلاً: لإحالته إلى القضاء.

– رد دوستويفسكي: لا أشتكي عليه.

– لا نحتاج إلا إلى عنوانك بصفتك شاهداً على اتهام هذا الشخص حسب المادة 38.

لا توجد بطاقة زيارة لدى دوستويفسكي فسحب المفكرة من جيبه ومزق ورقة وكتب عليها بقلم الرصاص: « فيودور دوستويفسكي، الإقامة: ركن

زقاق كوزنتسوف، شارع يامسكايا، بناء رقم 5. أرفض توجيه الاتهام إلى الشخص المجهول من قبلي».

في اليوم المحدد ظهر فيودور دوستويفسكي في قاعة قاضي الصلح، الفرع 13 والواقعة حينذاك في شارع ستريميانا. كان قاضي الصلح في ذاك الوقت المرحوم آ.ي.تروفيموف المعروف في جميع أرجاء بطرسبورغ بصفته مزاحاً وهزالاً ونكاتاً.

– قال قاضي الصلح بشئ من المهابة المميزة: أيها الشاهد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي! أنت ترفض اتهام ايغورروف بإهانتك؟

– أجاب دوستويفسكي بهدوء: أرفض.

– رد القاضي: شئ مؤسف للغاية. اليوم ضربك وغداً سيضرب غيرك... وإذا رفض الجميع مقاضاة هؤلاء الأبطال فلن يبقى هناك طريق للمارة.

– قال دوستويفسكي: أرفض مقاضاة هذا الشخص لسببين. أولاً، لا يمكنني القول بثقة أن هذا الشخص بالذات هو الذي ضربني وليس شخصاً آخر لأنني لم أر وجه الشخص الذي وجه لي لكمة على الرأس. ثانياً، لا يمكنني أن أجيز فكرة أن يقوم شخص بقواه العقلية السليمة ودون أي سبب بتوجيه لكمة إلى قريبه على رأسه. وإذا فعل ذلك فهذا يعني أنه مجنون، يعني أنه مريض... والمريض لا يجوز معاقبته بل علاجه...

– أدرج القاضي ملاحظته: أي مريض؟ هو كان مجرد سكير طينه. ويحتاج إلى إرساله إلى حيث العلاج والصحو.

– اعترض الصعلوك المتهم والصامت حتى هذه اللحظة قائلاً: هذا عبثاً يا سيدي. لم أكن وقتذاك سكراناً بل كنت جائعاً فعلاً. أليس من اللائق أيها السيد القاضي أن تسأل الشاهد ألم أقل له قبيل اللكمة أن الشبعان لا يصدق الجائع كما يقال؟

– أكد دوستويفسكي: أنا سمعت هذه العبارة فعلاً وقتذاك وأجيز أن الجائع يمكنه أن يكون حاقداً وخاصة عندما لا يجد استجابة لرجائه بالحصول على كسرة خبز. ووجد حقد هذا الإنسان الجائع لذاته العزاء في توجيه لكمة على رأس ذاك المار الذي لم يسمع رجاءه بطلب العون. وكان من المناسب بالنسبة إلى القاضي أن يكون المار هو أنا، وأنا لا أتذمر من هذا.

– قال القاضي بصوت جهوري: لنحبسه شهراً وعند ذاك سيعرف كيف يفض حقده على المارة.

– توجه دوستويفسكي إلى تروفيموف قائلاً: هذا الأمر منوط بوجدانكم. ولكن أرجو أن تقبل مني 3 روبلات كي تعطيها إلى هذا الشخص بعد انتهاء العقوبة والخروج من السجن.

بعد أن أعطاه الثلاث روبلات انحنى دوستويفسكي أمام تروفيموف وخرج من القاعة.

– صرخ تروفيموف في وجه الصعلوك: هل تعرف أيها التعيس على من رفعت يدك الوقحة بعد أن غادر دوستويفسكي المكان؟

أنت صفعت واحداً من أعظم الكتاب الروس ومن أطيب الناس الروس!...

ايفان پوپوف:

كان يقطن في زقاق كوزنيتسوف بجانب كنيسة فلاديمير. وفي عام 1879 انتقل شقيقي بافل من مدرسة روجديستنفيسك إلى فلاديميرسك الواقعة مقابل كنيسة فلاديمير التي كان يزورها دوستويفسكي. وكان دوستويفسكي في أيام الربيع والخريف الدافئة يحب الجلوس عند سياج الكنيسة كي يتفرج على لعب الأولاد. كنت أحياناً أعرج على السياج ودوماً أنحني (مسلماً أو مودعاً). أحدب ونحيل ووجهه بلون ترابي وبوجنتين غائرتين وعينين مندفعتين إلى الداخل ولحية روسية وشعر طويل يتخلله شيب قوي. ترك دوستويفسكي انطباع المريض مرضاً خطيراً. ويرتدي معطفاً بلون أسمر داكن والرقبة مغطاة بوشاح. جلست بجانبه على الأريكة وأمامنا يلعب الأولاد وأحد الصغار يسكب الرمل من كأس خشبية على معطف دوستويفسكي.

– توجه دوستويفسكي إلى الصغير: ما العمل الآن؟ لا أستطيع النهوض الآن.

– أجاب الصغير: اجلس سوف أجلب كمية أخرى.

وافق دوستويفسكي على الجلوس ونثر الصغير الرمل من كؤوس خشبية مختلفة على أطراف المعطف... في هذا الوقت سعل دوستويفسكي سعالاً شديداً وكان سعاله ثقيلاً ثم سحب من الجيب منديلاً ملوناً وبصق فيه وليس على الأرض. تدحرجت أطراف المعطف إلى أسفل. استمر السعال عند دوستويفسكي.

اقترب الصغير:

– أين كعكات العيد؟

– أكلتها. إنها طيبة المذاق...

ضحك الصغير وهرع ثانية من أجل التراب بينما توجه دوستويفسكي لي قائلاً:

– إنه سن الفرح والبشاشة... لا أحقاد لديه ولا يعرف الحزن... واستبدلت الدموع بالضحك.

لا أذكر ماذا كان جوابي...

بعد هذا اللقاء وفي أيام الخريف المتأخر عندما كانت بطرسبورغ مشبعة بنداوة الضباب التقيت مرة ثانية في شارع فلاديميرسك بفيودور دوستويفسكي سوية مع ديمتري غريغوروفيتش. رد دوستويفسكي على تحيتي بترحاب. كان التباين بين الكاتبين كبيراً.

– غريغوروفيتش طويل القامة، أبيض كالثلج والوجه وجه شباب نضر. يلبس بأناقة ويخطو بثبات وبرأس جميل مرفوع إلى الأعلى وعليه قبعة

ناعمة. بينما دوستويفسكي يسير محدودب الظهر وياقة المعطف عالية وطاقية جوخٍ دائرية وهو يتثاقل في المشي مستنداً على مظلة بصعوبة... لم أر دوستويفسكي بعد هذا اليوم.

الاحتفالات البوشكينية
لعام ١٨٨٠ في موسكو

ديمتري لوبيموف (1864 – 1942) ابن المحرر في مجلة «البشير الروسي» نيقولاي لوبيموف، وفي وقت لاحق – من كبار موظفي الدولة:

الثامن من حزيران عام 1880 في أثناء الاحتفالات بتدشين النصب التذكاري لبوشكين في موسكو في جلسة الجمعية الموسكوفية لمحبي آداب اللغة الروسية والتي نالت المجد بفضل خطاب دوستويفسكي. لم يسبق أي خطاب أو كلمة عامة مما سمعته أو رأيته في حياتي أن ترك مثل هذا الانطباع القوي مثلما فعل هذا الخطاب الملهم...

إنها قاعة ضخمة بصفوف لا نهاية لها من الكراسي منحت مشهداً نادراً من المتفرجين إذ كانت مزدحمة بجمهور بهي وأنيق يقف في الممرات وحول القاعة. بحر كامل من رؤوس الشبيبة المتعلمة على الأغلب والتي تشغل المسافات بين الأعمدة ناهيك عن الكورال. كان الدخول بالبطاقات الموزعة مسبقاً. ومن بين الحضور ضيوف شرف وممثلو الآداب والعلوم والفنون وكل ما هو بارز وفذ مما يسمى «موسكو كلها».

لن يستطيع تذكر أو تعداد جميع المشهورين الموسكوڤيين الموجودين في القاعة. ولم يجتمع مثل هذا الحشد من الشخصيات المعروفة بالنسبة إلى قراء روسيا.

المنصة مبنية في نهاية القاعة في ذاك المكان التي تؤدي الأبواب فيه إلى قاعة ايكاتيرينا المستديرة وحيث ينتصب تمثال الإمبراطورة ايكاتيرينا البرونزي. منصة المسرح مغطاة بجوخ أخضر وعلى امتدادها طاولة ضخمة، وإلى اليمين يوجد منبر وراءه صورة للنصب التذكاري لبوشكين والمزينة بإكليل وبالورود. وحول الطاولة عدد لا يحصى من الكراسي كان يجلس عليها أعضاء الجمعية وجميعهم في أطقم رسمية وربطات عنق بيضاء. فهنا لم أكن أعرف الكثيرين لأن الأكثرية من القادمين الدخلاء بيد أن رفيقي كان يعرف جميع الأدباء الروس من خلال الصور التي تزين غرفته المتواضعة والتي كنت أتفرج عليها دوماً في أثناء الدروس. وقد ذكر أسماءهم الواحد بعد الآخر وهو غارق في السعادة.

على يمين رئيس الجمعية – عجوز بلحية كبيرة بنظارتين يصدر مجلة «الفكر الروسي» وهو مترجم معروف لكالديرون وشكسبير س.آ.يوريف الذي كان يعرفونه في موسكو «بالموهيكان الأخير» في الأربعينات». وفي كرسي الشرف يجلس عجوز بشعر أشيب طويل يسقط، على الدوام، على جبينه ولحيته مقصوصة بأناقة وكثيفة وبدلة رسمية محاكة جيداً بتفصيل أجنبي وجزمة بلا كعب، على ما يبدو يعاني النقرس لابساً نظارة (تشبك بالأنف أو النظارة الأنفية) ذهبية. وهمس همسة بهيجة شارحاً الأمر: إنه ايفان سيرغييفيتش تورغينيف. وإلى جانبه يجلس على كرسي عجوز طويل القامة بنصف التفاتة ولحية صغيرة وجبين كبير وصلع هائل على رأس أشيب

مقصوصاً قصة قصيرة. وهو يضحك، يتحدث مع الواقف أمامه باحترام وتبجيل، شخصية بهيئة ممثل نموذجية. وهمس المرافق: إنه ألكسندر نيقولايڤيتش أستروفسكي. وإلى جانب أستروفسكي كان يجلس ديمتري غريغوروڤيتش الفتي بفودين جميلين. وكان، في كل دقيقة يهب واقفاً من مكانه ويقترب من تورغينيف تارة، ومن غيره تارة أخرى...

وعلى الجانب الآخر من الرئيس كان يقف ايڤان سيرغيڤيتش أكساكوف بنصف التفاتة إلى الجمهور وهو معروف للغاية في موسكو. كانت شهرته في موسكو هائلة لا سيما بعد خطابه الذي ألقاه منذ فترة في مؤتمر برلين، الجمعية السلافية...

يلي أكساكوف مباشرة الغارق في قراءة بعض الأوراق،بطل هذا الاجتماع الحالي – ومن لا يعرفه – إنه فيودور ميخائيلوڤيتش دوستويفسكي في هيأة كليلة ومعتلة الصحة...

انقطعت كل الأمور بجرس الرئيس: كانت الساعة الواحدة تماماً ظهراً وأعلن افتتاح الجلسة. شغل جميع الحضور على المنصة أمكنتهم وقال س.يوريف عدة كلمات عن القوام الاستثنائي الحالي لمجلس الجمعية. وقد استجاب أعضاء شرف الجمعية بلا استثناء للدعوة.

ثم خرج إلى المنبر ألكسي پليشييف...

قرأ پليشييف شعره الرائع الجميل بحماس كبير وهو يتوجه باستمرار إلى تمثال بوشكين. وعندما نزل عن المنبر صفقوا له لمدة طويلة. وواصل الانحناء حتى وهو في مكانه.

بعد ذلك كان صوت الرئيس: «الكلمة الآن لعضو الشرف في الجمعية فيودور ميخائيلوڤيتش دوستويفسكي».

نهض دوستويفسكي وأخذ يجمع أوراقه ثم خطا ببطء نحو المنبر مستمراً، بعصبية، في ترتيب الأوراق وعلى ما يبدو قائمة خطابه الذي لم يستخدمه تقريباً لاحقاً. بدا لي أنه قد تضمر منذ البارحة. البدلة الرسمية كما لو كانت معلقة على مشجب. قميصه مدعوك. ربطة العنق البيضاء معقودة بصورة سيئة فضلاً أنه كان يسحب رجله بمشقة...

دخل دوستويفسكي المنبر وقوبل بعاصفة من التصفيق. أذكر بوضوح جميع التفاصيل. مد يده إلى الأمام كما لو كان يريد ايقافهم عن التصفيق. وعندما سكنوا قليلاً بدأ مباشرة دون «سيداتي، سادتي الأكارم» المعتادة:

– بوشكين ظاهرة خارقة وربما الوحيد في النفس الروسية – هذا ما قاله غوغول. وأنا أضيف من عندي: ونبوية.

نطق دوستويفسكي بالكلمات الأولى بصوت خفيض إلا أن الكلمة الأخيرة كانت بهمس جهوري بنوع من السرية. لم أشعر أنا وحدي بل الصالة بأسرها قد ارتعدت وأدركت أنه في كلمة « نبوي» يكمن كل جوهر الخطاب وأن دوستويفسكي سيقول شيئاً ما خارقاً للعادة. فهذا لن يكون

خطاباً اعتيادياً من العبارات الجميلة مثلما حدث عند تورغينيف في العشية بل شيئاً ما مازوقياً (من اسم عائلة كارامازوف في رواية « الإخوة كارامازوف») ثقيلاً مؤلماً إلا أنه أخاذ بحيث يستحيل الانعزال عنه مثلما هي حال جميع مؤلفات دوستويفسكي.

لاحظ دوستويفسكي الانطباع الذي تركه وكرر بصوت جهوري:

– نعم في ظهور بوشكين بالنسبة إلينا جميعنا نحن الروس شئ ما نبوي بلا جدال فيه.

أناتولي كوني، (**1844 – 1927**) حقوقي بارز وأديب وكاتب ذكريات:

على المنصة نما وكبر ورفع رأسه بإباء وشموخ ولمعت عيناه على الوجه الشاحب من الاضطراب وتقوّى صوته ودوى بقوة مميزة وصارت الجيست حيوية وآمرة.

غليب اوسبينسكي، (**1843 – 1902**)، كاتب وصحفي:

لم تمض خمس دقائق حتى كانت كل القلوب وكل الأفكار وروح كل واحد دون فر ق من الموجودين تحت سلطته. كان يتكلم ببساطة تماماً كما لو كان يتكلم مع معارفه دون حركات مفاجئة في أثناء إطلاق العبارات المدوية ودون أن يرفع رأسه إلى الوراء.

ديمتري لوبيموف:

في تقسيمه لإبداع بوشكين إلى ثلاث فترات أشار دوستويفسكي إلى أن بوشكين كشف في الفترة الأولى في «الغجر» في شخص أليكو ولاحظ بصورة عبقرية ذاك الجوال التعيس في الأرض الأم و«ذاك الجوال الروسي التاريخي الذي يظهر بصورة ضرورية تاريخياً في مجتمعنا المنفصل عن الشعب». وليس ضرورياً لهذا الجوال تلك السعادة الشخصية ولا الروسية فحسب بل العالمية بغية الركون إلى السكينة. ولد هذا الإنسان في بداية القرن الثاني بعد إصلاحات بطرس في مجتمعنا الانتيليجينسي المنفصل عن شعبنا.

تابع دوستويفسكي رافعاً صوته أكثر فأكثر بحيث أنه صار يدوي الآن في كل أرجاء القاعة إلا أنه تسمع فيه أحياناً نوطات عصبية وعليلة، تابع كلامه قائلاً: بالطبع يخدم الآن عدد كبير من الانتيليجينسيا الروسية موظفين كبار أو في المصارف وهم يلعبون لعبة الكوبيكات في البريفيرانس دون أي حرص على الركض إلى مخيمات الغجر مثلما يفعل أليكو.

انتقل صوت دوستويفسكي، ثانية إلى همس سري إلا أنه ساد في القاعة ذاك الصمت بحيث أن كل كلمة كانت مسموعة جيداً. وواصل كلامه: نعم، إنه مسألة زمن فقط. وهذا ما ينتظرنا جميعنا في حينه إذا لم ننطلق إلى الطريق الحقيقي للتعامل الحليم الوديع مع الشعب...

أخذ دوستويفسكي ينقب عن شئ ما في أوراقه ولكن على ما يبدو لم يجد ما يبحث عنه فرماها وانتقل مباشرة إلى النموذج الأكثر ايجابية، كما عبر عنه، عند بوشكين – إلى تاتيانا.

هتف: نعم إنها نموذج الجمال الايجابي، إنها تبجيل للمرأة الروسية. وإن مثل هذا النموذج الايجابي للمرأة الروسية وبهذا الجمال لم يتكرر في أدبنا. وهنا نظر دوستويفسكي نظرة تأمل قائلاً وهو يقهر نفسه تماماً: فيما عدا ليزا في «عش النبلاء» لتورغينيف...

نظرت القاعة بأسرها صوب تورغينيف الذي لوح بيديه وأخذ يضطرب ومن ثم أغلق وجهه بيديه وشرع ينشج بهدوء. توقف دوستويفسكي ونظر إليه ثم شرب قليلاً من الماء من الكأس الموجودة على المنبر. عدة لحظات من الصمت. وفي وسط الصمت والهدوء سمع نشيج تورغينيف المكظوم.

ايكاتيرينا ليتكوفا – سولطانوفا، (**1856 – 1937**)، كاتبة ومترجمة ومشاركة في الحركة النسائية، من اليوميات **8** حزيران **1880**:

ما إن ذكر دوستويفسكي اسم ليزا كاليتينا من «عش النبلاء» وهي متقاربة مع تاتيانا البوشكينية « كنموذج للجمال النسائي الروسي» حتى انقطع خطابه بهتاف ضجوج لتورغينيف. لقد نهضت القاعة كلها ودوت بالتصفيق. حاول تورغينيف جاهداً أن يتجنب ذلك إلا أنهم أجبروه على المجئ إلى طرف المنصة. كان شاحباً وانحنى بارتباك.

ديميتري لوبيموف: " ثم تابع دوستويفسكي:

بيد أن أنيجين لم يفهم تاتيانا. لم يستطع فهمها. وقد اجتازت تاتيانا في الجزء الأول من الرواية وهي غير معروفة وغير مقدرة من قبله... ليته قدم إلى هناك، إلى القرية وقتذاك معها وعند أول لقاء معها، من لندن تشايلد هارولد أو اللورد بايرون نفسه وأشار له عليها... اوه! عند ذاك لكان أنيجين مدهوشاً ومتعجباً من أنه ما أكثر التذلل الروحي الموجود أحياناً في كيان هؤلاء الروس المعذبين. أدركت تاتيانا ذلك ورسم بوشكين في مقاطع الرواية الشعرية الخالدة زيارتها لدار هذا الشخص الغريب والمحير. تهمس شفتاها بهدوء: أليس هو نسخة ضعيفة؟ كلا. لم تستطع تاتيانا الذهاب وراء أنيجين وفي نهاية المطاف كما لو فعلت ذلك فرنسية أو ايطالية ما!

دوت التصفيقات المدوية.

بعد لحظة صمت غير طويلة انتقل دوستويفسكي إلى موقف بوشكين من الشعب الروسي.

– قال دوستويفسكي: لم يسبق أن التحم شخص من الناحية الروحية وناحية القرابة والنسب بشعبه مثلما فعل بوشكين. يوجد عندنا الكثير من المطلعين من كتابنا على الشعب. كتبوا عنه بموهبة ودفء وحب، وعلى فكرة إذا قارناهم مع بوشكين فهم، والحق يقال، مجرد «سادة» يكتبون عن الشعب أي كتبة، منهم استثناء واحد أو استثناءان، وليس هذا إلا في الفترة الأخيرة فحسب.

وهنا توقف دوستويفسكي ونظر إلى المنصة، تماماً، باحثاً عن أحد ما...

صمت دوستويفسكي، ومن جديد، ومرة ثانية فرز أوراقه التي قليلاً ما استخدمها ومن ثم رفع رأسه وبدأ الحديث بشكل جهوري وملهم وهو يهيمن الآن على القاعة بمجموعها. وعلى ما يبدو أفصح الآن عن فكرته الرئيسية. الجميع أدرك الآن وحدقت عيون القاعة في دوستويفسكي الذي انتقل إلى الفترة الأخيرة من نشاط بوشكين.

– وهتف بصوت عال هنا بوشكين شئ ما رائع وغير مرئي أي لا مثيل له لا قبله ولا عند أحد. كان ثمة عبقريات هائلة من أمثال شكسبير وسرفانتس وشيلر إلا أن أحداً منهم لم يمتلك تلك القدرة، القدرة الرئيسية لقوميتنا مع شعبه. وحتى عند شكسبير جميع الايطاليين عنده – هم ذاتهم الانكليز. بوشكين وحده الذي استطاع الاستحالة إلى شعب غريب. اقرأ بوشكين ولو لم يكن هناك توقيع بوشكين لما صدقت بأن الذي كتب ذلك ليس اسبانياً! تذكر أكاليل الورد التي تفوح منها رائحة الليمون! المشهد من فاوست. أليست هذه ألمانيا. وأما في «حفلة في أثناء الطاعون» فنحن نسمع عبقري انكلترا. أليس «محاكاة القرآن» هو الإسلام؟...

اقتبس دوستويفسكي وهو يورد، في الذاكرة، عدداً كاملاً من الأمثلة من أشعار بوشكين.

– هتف دوستويفسكي: نعم لا شك أن بوشكين اختلجت في صدره رسالتنا المقبلة العظيمة. فهو هنا حازرٌ، هو هنا نبي! أن تصبح روسيا ربما

هي تعني فقط أن تصبح شقيق الجميع... وإن كل هذه الموالاة للنزعة السلافية والغربنة ليستا سوى سوء تفاهم عظيم بيننا. فنحن كنا دوماً نخدم أوربا أكثر مما نخدم أنفسنا. لا أظن أن هذا الأمر قد حدث بسبب ارتباك رجال السياسة عندنا... ربما تكمن مهمتنا، بعد استقصاءات مطولة، بل هي إدخال حالة المصالحة في صلب التناقضات الأوربية والإشارة إلى نهاية الروح الأوربية والنطق برزانة بالكلمة النهائية لألمانيا العظيمة والوفاق الأخوي حسب قانون انجيل المسيح...

هنا توقف دوستويفسكي وكما لو كان يضرب كفاً بكف متنبئاً بالاعتراض إلا أن القاعة كلها جمدت وأصغت إليه كما لو كانوا يصغون، في وقت ما، إلى الأنبياء.

هتف دوستويفسكي بصوت عال: أعرف،وصوته قد حصل على قوة غامضة، وقد دوت فيه نشوة روحية ما – أعرف جيداً أن كلماتي ستبدو حماسية وفيها مغالاة وخيالات. الشئ الرئيسي ستبدو فيها عجرفة: هل المطلوب منا أن نفصح أمام البشرية بكلمة جديدة؟ وماذا؟ هل أنا أتكلم عن المجد الاقتصادي؟ عن مجد السيف أو العلم؟ أنا أتحدث عن أخوة البشر.

لو عاش بوشكين أكثر لتيسر له أن يوضح لنا كل حقيقة طموحاتنا. ولأصبح كل شئ مفهوماً للجميع ولما كان هناك سوء تفاهم ولا جدال إلا أن الرب يحاكم بشكل آخر. رحل بوشكين عنا وهو في ذروة قواه ولا شك

أنه حمل معه إلى القبر سراً عظيماً ما. ونحن الآن، بدونه علينا أن نحزر هذا السر...

نطق دوستويفسكي بالكلمات الأخيرة من كلمته بهمس ملهم وخفض رأسه وأخذ يغادر المنبر بشئ من العجلة في ظل صمت القبور. القاعة جمدت كلياً كما لو كانت تنتظر شيئاً بعد. فجأة دوى من الصفوف الخلفية صراخ هستيري: لقد حزرت والتقطت هذه العبارة بضعة أصوات نسائية في كورس. ارتعشت القاعة كلها. وتم سماع صرخات: «حزرت! حزرت!» عاصفة من التصفيق، هدير، وقع أقدام، صرخات. أظن أن جدران مجلس النبلاء الموسكوفي لم يصدح لا قبل ولا بعد بمثل هذه العاصفة من الابتهاج. شارك الجميع، بلا استثناء، في التصفيق والصراخ سواء في القاعة أو على المنصة. أكساكوف رمى بنفسه كي يعانق دوستويفسكي، وتورغينيف الذي تعثر، مثل الدب، سار مباشرة إلى دوستويفسكي فاتحاً ذراعيه. وإذا بشاب هستيري يدفع بالآخرين من حوله ويرمي بنفسه نحو المنصة بصرخات سقيمة وموجعة: «دوستويفسكي، دوستويفسكي!» وفجأة سقط مستلقياً على ظهره ومغشياً عليه. حملوه من هناك. وأخذوا دوستويفسكي نحو صف الأعمدة ماسكين بيديه كل من تورغينيف وأكساكوف. على ما يبدو شعر بالوهن وهرول نحو غريغوريفيتش ملوحاً بمنديل لسبب ما. استمرت القاعة في حالة القلق والاضطراب.

أناتولي كوني:

حدث منذ بداية خطابه تواصل روحي داخلي بينه وبين جمهور المستمعين بحيث أن الوعي بها والإحساس بها يجبر الخطيب دوماً على الشعور ومن ثم ينشر جناحيه. بدأ في الصالة اضطراب محبوس تنامى تدريجياً وعندما أنهى دوستويفسكي خطابه حلت دقيقة صمت ومن ثم انفجر الفرح والبهجة التي لم أسمع بها ولم أرها سابقاً. حالات التصفيق والصرخات والضرب بالكراسي، كل هذا امتزج في وحدة جامعة وكما يقال هز جدران القاعة. بكى الكثيرون وهم يتوجهون إلى الجيران الذين لا يعرفونهم بالصيحات والتحيات ورمى الكثيرون أنفسهم إلى المنصة وفقد أحد الشباب من الواقفين عند قاعدتها وعيه من الاضطراب الذي تملكه. كلهم كانوا تقريباً في تلك الحالة حيث بدا كما لو أنهم ساروا خلف الخطيب من أول نداء أينما أراد. وهكذا، على الأرجح استطاع ساڤونارولا (جيرولامو ساڤونارولا 1452 – 1498 راعي دير الدومنيكان في فلورنسه. ناضل ضد طغيان ميدتشي وفضح البابوية ودعا الكنيسة إلى الزهد وأدان الثقافة الإنسانية – دبر حرق مؤلفات الفن. بعد طرد ميدتشي من فلورنسه في عام 1494 ساعد على قيام نظام جمهوري. وفي عام 1497 حرم من الكنيسة وتم إعدامه بأمر من مجلس السنيورات 0المترجم) في الزمن البعيد التأثير في الجمع المحتشد.

ديمتري لوبيموف:

صدر فجأة صوت غير معروف في الصالة أن دوستويفسكي يعاني نوبات الصرع التي كان يعاني منها وأنه يموت. كتلة كاملة من الوجوه ارتمت على المنصة. تبين أن هذا مجرد هراء في هراء. أخذ غريغوروڤيتش دوستويفسكي من يده من صف الأعمدة إلى المنصة مستمراً في التلويح بالمنديل فوق الرأس.

دق الرئيس الجرس باستماتة مكرراً أن الجلسة مستمرة والكلمة الآن لايڤان سيرغييڤيتش أكساكوف. هدأت القاعة نوعاً ما إلا أن أكساكوف نفسه مضطرب بصورة مريعة. يهرول إلى المنبر ويصرخ: «أيها السادة، لا أريد بل حتى أنه لا يمكنني التحدث بعد دوستويفسكي. لا يجوز الكلام بعد دوستويفسكي! خطاب دوستويفسكي هو حدث! وقد توضح كل شئ وكل شئ واضح. لا وجود لنزعة أكثر سلافية ولا يوجد متغربنون! وافق تورغينيف معي. وتورغينيف من مكانه يصرخ على ما يبدو مؤكداً على صوابية كلامي. نزل أكساكوف عن المنبر. تم سماع صرخات: «استراحة! استراحة!...». قرع الرئيس الجرس وأعلنت استراحة لنصف ساعة. وتفرق كثيرون.

أناتولي كوني:

استؤنفت الجلسة بعد نصف ساعة. أدهش خطاب دوستويفسكي حتى الأجانب الذين لم يستطيعوا الشعور بالخيوط السرية التي تربط بين بعض مواضعه والتعبير بقلب الناس الروس في عمقه المكنون. قال بروفسور الأدب الروسي في جامعة باريس لويس ليجيه القادم خصيصاً لحضور الاحتفالات البوشكينية أنه مسحوق كلياً ببريق هذا الخطاب وقوته وخضع كلياً لفتنته وتمنى لو ينقل انطباعاته بكل حجمها «**au Maitre**» أي لڤيكتور هيجو الذي في موهبته الكثير، برأيه، مما يجمعه مع موهبة دوستويفسكي.

ألكسي سليفيتسكي، (**1850 – 1913**) كاتب أدب الأطفال:

كان من نصيبي في ذاك اليوم أن أحضر من مجمع بلاغارودنويه إلى فندق لوسكوتنا الإكليل المخصص لفيودور دوستويفسكي بعد كلمته المشهودة. وصلنا إلى بريد لوسكوتنا وأنا دخلت إلى نمرته بعده. طلب مني، بكل لطف، الجلوس. كان شاحباً للغاية، وعلى ما يبدو تعباناً بحيث قررت تقصير زيارتي بقدر الإمكان. أذكر جيداً ما سأله: «بم تفسر هذا النجاح؟ لم أتوقع ذلك إطلاقاً...».

غليب اوسبينسكي:

قال للجمهور ببساطة وجلاء وبلا أدنى استطرادات أو رتوش زائدة ماذا يفكر عن بوشكين كمعبر عن طموحات وآمال ورغبات ذاك الجمهور الذي يصغي إليه في هذه الدقيقة في هذه القاعة. وقد وجد أنه من الممكن، كما يقال، جلب بوشكين إلى هذه القاعة، ومن خلاله شرح للجمع المحتشد هنا شيئاً ما عن وضعه الراهن واهتماماته الراهنة وكآبته الراهنة. لم يقدم على هذه الخطوة أحد قبل دوستويفسكي وهنا السبب الرئيسي للنجاح الخارق لكلمته.

آنّا دوستويفسكايا:

في الثالث عشر من حزيران عاد دوستويفسكي إلى ستارايا روسّا وأنا لم أجده منذ فترة طويلة بمثل هذه الحيوية والنشاط. فهو لم يتعرض لنوبة الصرع في موسكو وكان يشعر، دوماً، بالنشاط وذلك بفضل انفعالاته العصبية. كانت قصصه واستفساراته عن أحداث موسكو لا نهاية لها. وما رواه لم أصادفه في روايات أخرى عن الاحتفالات البوشكينية. وكانت لدى دوستويفسكي القدرة كي يلمح ويتذكر. وروى لي دوستويفسكي كيف عاد من آخر الجلسة الثانية المسائية (ختام الاحتفالات) وهو تعبان بصورة مريعة ولكنه في غاية السعادة من حفل توديع جمهور موسكو له. تمدد

للراحة وهو في حالة الإنهاك الكامل ومن ثم في وقت متأخر من الليل ذهب ثانية إلى نصب بوشكين التذكاري. كان الليل دافئاً ولكن الشارع كان خالياً تقريباً من البشر. وبصعوبة صعد دوستويفسكي إلى ساحة ستراسنايا حاملاً إكليل الغار الذي أحضروه له في الجلسة الصباحية ووضعه عند قاعدة النصب التذكاري «لمعلمه العظيم» وانحنى أمامه حتى الأرض.

إن السعادة الصادقة بفكرة أن روسيا، في نهاية الأمر، أدركت وثمنت القيمة السامية لبوشكين العبقري ونبت له في « قلب روسيا»، موسكو، نصباً تذكارياً وإن الوعي المفرح بأنه منذ الصغر، العابد السعيد لشاعر الشعب العظيم بحيث امتلك الامكانية من خلال كلمته، أن يقدره حق قدره، وأخيراً الحبور الكبير بسبب هتافات الجمهور وصياحه من شدة السرور والفرح بموهبته الشخصية، إن كل هذا قد اتحد كي يبني لأجل دوستويفسكي، كما عبر عن ذلك، دقائق السعادة العظمى. وقد امتلك دوستويفسكي هيئة ملهمة وهو يروي عن انطباعاته حينذاك كما لو كان يعيش هذه اللحظات التي لا تنسى.

روى لي دوستويفسكي كيف أنه حضر إليه في الصباح التالي أفضل مصور موسكوفي في حينه هو الفنان پانوف ورجا دوستويفسكي امكانية تصوير بورتريه له. وبما أن زوجي كان مستعجلاً في السفر من موسكو ودون إضاعة الوقت توجه مع پانوف إلى الاستديو الخاص به. وكانت انطباعات أحداث الأمس المشهودة بالنسبة إلى فيودور دوستويفسكي قد

انطبعت على الصورة الفوتوغرافية التي أبدعها الفنان وهي من أنجح بورتريهاته. عرفت ذاك التعبير الذي رأيته عدة مرات على وجه دوستويفسكي وهو يجتاز لحظات من السعادة القلبية.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى س.آ.تولستايا بتاريخ 13 حزيران 1880:

... أنت تعيش هذه اللحظات. نعم ولأجلها تظهر على هذه الحياة. القلب مفعم وكيف لا أنقله إلى الأصدقاء! أنا حتى الآن مثل المهشم.

ميخائيل ألكسندروف:

في 26 كانون الثاني 1881 التقيت بمنضد الحروف المطبعية الذي كان يعيد طبع «يوميات كاتب» وعرفت منه أن دوستويفسكي مريض. وحول استفساراتي عن درجة مرضه وعن الوضع العام روى لي أنه قبل البارحة كان في زيارته واستقبله وهو ممدد في السرير... وسأل دوستويفسكي: ماذا يقول هذا السيد؟ إذ كان يطلق كلمة «السيد» على سبيل المزاح على منضد الحروف المطبعية وظلت هذه المزحة حتى على فراش المرض.

أجاب منضد الحروف المطبعية أنه قدم للاتفاق حول عقد أول إصدار «ليوميات كاتب» نظراً لاقتراب موعد الصدور.

– أنا مرضت كما ترى...

– أرى يا فيودور دوستويفسكي... ماذا حدث معك؟

– يجري الدم من الحنجرة ويقول الطبيب أن عندي انقطع أحد الأعصاب ومنه يسيل الدم... يقولون أن المسيل بلغ كأسين.

عرفت لاحقاً أن سبب مرض دوستويفسكي في 26 كانون الثاني هو تمزق الشرايين في الرئتين وانفتح بنتيجته تدفق الدم من الحنجرة. وهذا المرض ليس بهذه الخطورة بالنسبة إلى جسد أكثر متانة وأقل عصبية. وفي

اليوم التالي اعترف وقدم التقرب، وبعد أن شعر بتحسن ملموس أقدم على قراءة بروڤات الإصدار الأول من «يومياته» التي كان ينبغي أن ترى النور كالسابق في اليوم الأخير من الشهر الفائت. ولكن لم يقدر له أن يرى العمل مطبوعاً. ففي 28 كانون الثاني تردت أوضاعه وفي اليوم ذاته ونتيجة للضعف التدريجي بسبب نزيف الدم فارق دوستويفسكي الدنيا...

آنّا دوستويفسكايا:

استيقظ دوستويفسكي، كعادته صباحاً في السادس والعشرين من كانون الثاني وعندما حضرت إلى مكتبه روى لي أن حادثاً صغيراً حدث له: إذ سقط القلم مع غطائه على الأرض وتدحرج تحت منضدة الكتب (كان يعز عليه كثيراً هذا الغطاء لأنه عدا الكتابة كان يؤدي وظيفة تعبئة سيجارة اللف. أبعد دوستويفسكي منضدة الكتب كي يمسك بالغطاء. على ما يبدو كان هذا ثقيلاً جداً واضطر دوستويفسكي إلى بذل جهد كبير تمزق بسببه فجأة شريان الرئة وانسكب النزيف من الحنجرة. وبما أن الدم المسال كان بكميات قليلة فإن الزوج لم يضف أية أهمية على هذا الظرف بل حتى لم يرغب بإقلاق راحتي ليلاً. اضطربت اضطراباً مريعاً ودون أن أعلم دوستويفسكي بعثت ولدنا بيوتر إلى الدكتور يا.ب.فون بريتسيل الذي كان دوماً يعالج زوجي والطلب منه أن يحضر على الفور. لسوء الحظ كان الطبيب قد ذهب لزيارة المرضى ولم يستطع القدوم إلا بعد الخامسة.

كان دوستويفسكي هادئاً للغاية وهو يتحدث ويمزح مع الصغار وشرع في قراءة «نوڤويه ڤريميا» (العصر الحديث). في الساعة الثالثة تقريباً حضر إلينا سيد طيب للغاية وودود إلا انه يعاني علة واحدة هي أنه كان دوماً يتجادل. بدأوا الحديث عن مقالة في «يوميات» المقبلة وشرع المحدث يبرهن على شئ ما. أما دوستويفسكي الذي كان يعاني قليلاً من القلق والانزعاج بفضل نزيف الدم الليلي فقد عارضه واشتعل جدل ساخن بينهما. وكانت محاولتي بكبح جماح المتجادلين قد باءت بالفشل رغم أنني قلت للضيف مرتين أن دوستويفسكي على غير ما يرام صحياً ويضره التكلم بصوت عال. وأخيراً أي قرابة الساعة الخامسة غادر الضيف الدار ونحن قررنا تناول الغداء وفجأة جلس دوستويفسكي على أريكته وصمت لدقائق ثلاث وفجأة، ولهولي المرعب رأيت أن ذقن الزوج احمرت بالدم الذي يسير بخيط رفيع على لحيته. صرخت ورداً على صياحي وندائي هرع الولدان والخادمة. على فكرة، لم يكن دوستويفسكي مرتعباً، بل على العكس صار يداريني ويهدئ من روع الولدين. أخذ الولدين إلى المكتب وأطلعهما على العدد المرسل لتوه من «ستريكوزا» (اليعسوب) حيث توجد رسمة كاريكاتير لصيادي سمك «تلخبطت» شبكتهما وسقطا في الماء حتى أنه قرأ للولدين شعراً وساد الفرح والمرح بحيث أن الولدين ركنا إلى الهدوء والسكينة. ساد الهدوء ساعة من الزمن وحضر الطبيب الذي أرسلت في طلبه مرة ثانية. وعندما صار الطبيب يتفحص ويدق على صدر المريض

تكرر معه النزيف، وفي هذه المرة نزيف قوي لدرجة أن دوستويفسكي فقد الوعي. وعندما عاد إلى وعيه نطق بالكلمات التالية:

– آنّا، أرجوك، استدع على الفور الخوري، أريد أن أعترف وأتقرب.

نيقولاي ستراخوف:

عانى دوستويفسكي في السنوات التسع الأخيرة انتفاخاً نتيجة لالتهاب الغشاء المخاطي للمجاري التنفسية. وسبب هذه النتيجة المميتة هو تمزق الشريان الرئوي الذي، ومن قبيل المصادفة، لم يتنبأ أحد من الأطباء به.

بدأت سكرة الموت ليلاً بتاريخ 25 – 26 كانون الثاني بنزيف قليل من الدم من الأنف والذي لم يعره دوستويفسكي أي اهتمام. وفي 26 كانون الثاني كان، على ما يبدو، سليماً معافى كلياً إلا أنه أراد التشاور مع الطبيب بما يخص النزيف. في الرابعة بعد الظهر بدأ أول نزيف من الحنجرة. وقتذاك أحضروا طبيب دوستويفسكي الدائم ياكوب بوغدانوڤيتش فون بريتسيل. وبحضوره بعد ساعة ونصف الساعة حدث نزيف ثان أقوى. وللعلم، فقد المريض وعيه. وعندما عاد إلى الوعي تمنى، على الفور، الاعتراف والتقرب. وإلى حين وصول الخوري ودع الزوجة والولدين وباركهم. شعر بحالة أفضل بعد التقرب.

فيما عدا فون – بريتسيل كان مدعواً أيضاً الطبيب آ.آ.بريفير ثم حضر البروفسور كوشلاكوف ثلاث مرات بتاريخ 26 ، 27 ، 28 كانون الثاني.

لم يتكرر النزيف طوال نهار 27 كانون الثاني وشعر دوستويفسكي أن وضعه حسن نسبياً. كان معنياً للغاية بأن تصدر «يوميات كاتب» من كل بد في 31 كانون الثاني ورجا آنا كي تقرأ البروفات المستلمة وتصححها ومن ثم رجا أن تقرأ له الجرائد.

آنّا دوستويفسكايا:

سرعان ما انتشر نبأ مرض دوستويفسكي الخطير في أرجاء المدينة وما بين الساعة الثانية وحتى وقت متأخر من الليل يقرع الجرس وهم قادمون للاستفسار عن الصحة. إنهم من المعارف وغير المعارف كما وصلت رسائل مواساة وبرقيات حنونة. كان محظوراً على أحد الدخول إلى غرفته وأنا التقيت بالمعارف لدقيقتين كي أعلمهم عن الوضع الصحي. وكان دوستويفسكي راضياً للغاية عن العناية والحنان والمواساة بل حتى أنه أملى عدة كلمات رداً على إحدى الرسائل الكريمة. حضر البروفسور كوشلاكوف ووجد أن الوضع تحسن تحسناً ملحوظاً ومنح المريض الأمل بأنه بعد أسبوع واحد سيكون في وضع يسمح له بالنهوض من السرير، وبعد أسبوعين سيتعافى نهائياً. وطلب من المريض أن ينام أكثر لذا لجأت الدار كلها إلى الرقاد باكراً. وأنا تمددت إلى جانب أريكته كي أسمعه إذا كان يريد شيئاً ما. عندما صحوت رأيته نائماً بهدوء. وعندما استيقظت في السابعة صباحاً رأيت أن زوجي ينظر نحوي.

– سألته وأنا أنحني نحوه: كيف حالتك يا عزيزي؟

– قال دوستويفسكي شبه هامس: هل تعلمين يا آنيا أنه مضت ثلاث ساعات وأنا أفكر وأدركت الآن بوضوح أنني سأموت اليوم.

– قلت وأنا في حالة من القلق المريع: يا عزيزي! لماذا تفكر بهذه الطريقة. وضعك الآن أفضل. الدم لا يسيل. يبدو أنه تشكل (سد) كما قال كوشلاكوف. لأجل الرب لا تعذب نفسك بالشكوك. ستعيش أكثر. أؤكد لك!

– كلا، أعرف. ينبغي أن أموت اليوم. أشعلي شمعة يا آنّا واعطيني الانجيل!

نيقولاي ستراخوف:

سارت الأمور على أحسن ما يرام في 28 كانون الثاني حتى الساعة الثانية عشرة بعدها سال الدم ثانية وأحس دوستويفسكي بالوهن.

في هذا الوقت عرج عليه أبولون مايكوف وأمضى عنده فترة ما بعد الغداء وهو يعتني به سوية مع أهل البيت. لم تكن هناك أحاديث لأنه كان محظوراً على المريض التكلم نهائياً.

يبدو أن حالته تحسنت قرابة الساعة الثانية. وفي الخامسة ذهب مايكوف إلى داره لتناول الغداء.

ثمة عادة لدى دوستويفسكي تمسك بها طوال حياته لا سيما في اللحظات الحاسمة وهي، حسب كلمات زوجته آنا، فتح الانجيل كيفما اتفق، والذي كان معه في الأشغال الشاقة وقراءة الأسطر العلوية من الصفحة المفتوحة. وهنا أيضاً تصرف التصرف نفسه وأعطى الانجيل إلى زوجته كي تقرأ له. إنه انجيل متى، الاصحاح الثالث، الصفحة 14: «ولكن يوحنا منعه قائلاً أنا محتاج أن أعتمد وأنت تأتي إلي. فأجاب يسوع وقال له: لا تمنع لأنه هكذا علينا أن ننجز الحقيقة العظيمة» وعندما قرأت آنا هذه الجملة قال لها دوستويفسكي: «هل تسمعين – « لا تمنعي» – هذا يعني أنني سأرحل. وأغلق الكتاب. وسرعان ما وجد الهاجس تبريره. وقد سأل دوستويفسكي قبل ساعتين من الموت أن يجري تسليم الانجيل إلى ابنه فيديا – فيودور.

بعد الغداء عاد أبولون مايكوف إلى المريض ولكن ليس وحده بل مع الزوجة، وبوجودهما في الساعة السادسة والنصف مساء حدث آخر نزيف بعده كانت الغيبوبة والنزع الأخير.

نزلت آنّا ايڤانوڤنا زوجة مايكوف للبحث عن طبيب وأحضرت معها ن.پ.تشيريپنين الذي وجدته عند معارفها ولكن عندما وصلا كانت النهاية قد حلت وتمكن ن.پ.تشيريپنين فقط من سماع أول ضربات قلب فيودور دوستويفسكي...

آنّا دوستويفسكايا:

طوال اليوم لم أترك الزوج ولا دقيقة واحدة. كان يمسك يدي في يده ويقول همساً: «أيتها المسكينة... العزيزة... ماذا تركت لك... فقيرة، ما أشقى الحياة التي ستعيشينها!...».

كنت أهدئه وأواسيه بالأمل في التعافي ولكن من الواضح أنه لم يكن هناك وجود لهذا الأمل في كيانه وكانت تعذبه فكرة أنه يترك الأسرة بلا مورد تقريباً. فالأربعة آلاف – خمسة آلاف المحفوظة في هيئة تحرير «البشير الروسي» هي مصادرنا الوحيدة.

همس غير مرة: «استدع الولدين». حضرا وقبلاه ثم غادرا الغرفة على الفور بأمر من الطبيب ورافقهما دوستويفسكي بنظرة حزينة وكئيبة.

لوبوف دوستويفسكايا:

عندما غادر الخوري البيت دعانا إلى غرفته وأخذ يدينا الصغيرتين بيديه ورجا الأم أن تفتح ثانية الانجيل وتقرأ لنا أمثولة عن الابن الضال. أصغى إلى القراءة بعينين مغمضتين وهو غارق في التأملات. وقال لنا بصوت واهن: «يا ولدي لا تنسيا إطلاقاً ما سمعتموه للتو وحافظوا على الإيمان المتفاني بالرب ولا تقنطوا أبداً من رحمته وغفرانه. أحبكما إلا أن حبي لا شئ مقارنة مع الحب اللانهائي للرب تجاه جميع البشر الذين خلقهم. وإذا حدث أن قمتما، خلال حياتكما، بجريمة فلا تفقدوا الأمل في الرب. أنتما

أبناؤه. ارضخا له كما تخضعان للوالد وصليا طلباً لمغفرته أما هو فسوف يفرح بتوبتكما مثلما فرح بعودة الابن الضال».

عانقنا وباركنا. ونحن في حالة من البكاء، خرجنا من غرفة الراحل عنا. التأم شمل الأصدقاء والأقارب في غرفة الضيوف لأن الخبر عن مرض دوستويفسكي الخطير ذاع في أرجاء المدينة. رجاهم الوالد أن يدخلوا الواحد بعد الآخر وقال لكل واحد كلمة ودية. قوته كانت تنهار ساعة بعد ساعة. بدأ نزيف جديد في المساء وصار يفقد الوعي. عند ذاك فتحنا أبواب غرفته ودخل جميع أصدقائه وأهله كي يحضروا لحظات الموت الأخيرة. وقفوا جميعهم صامتين بلا دموع كي لا يعيقوا سكرة الموت. أمي وحدها التي كانت تبكي بهدوء وهي واقفة على الركبتين عند الأريكة التي كان يتمدد عليها الزوج. ضجة مريعة شبيهة بقرقرة الماء انفجرت من حنجرة المائت وصعد صدره وأخذ يتحدث بسرعة وهدوء إلا انه كان يستحيل فهم ما يقوله. صار التنفس يسمع اقل فأقل، والكلمات أكثر ندرة. وأخيراً دون انقطاع.

حضرت في وقت لاحق وفاة عدد من الأهل والأصدقاء إلا أنني لم أصادف نهاية مضيئة مثل رحيل الأب. إنها وفاة مسيحية بحق بحيث تتمناها الكنيسة لكل مؤمن – أي الموت بلا أمل ولا خجل. عانى دوستويفسكي فقط لحظات من الضعف الجسدي. وقد فقد الوعي فقط في اللحظات الأخيرة ورأى اقتراب الموت دون أن يخشاه. وكان يعرف أنه

لم يدفن موهبته وأنه خدم الرب طوال حياته. فهو كان مستعداً للوقوف، دون وجل أمام أبينا الأبدي آملاً بأن الرب سيمنحه لقاء آلامه وكل ما تحمله في هذه الحياة، إبداع مؤلف عظيم آخر وإنجاز مهمة عظيمة أخرى.

نيقولاي ستراخوف:

فارق فيودور ميخائيلوڤيتش دوستويفسكي الحياة في الساعة الثامنة و38 دقيقة مساء.

لوبوف دوستويفسكايا:

استيقظت بعد ليلة محمومة ودخلت إلى غرفة الوالد بعينين محمرتين بسبب الدموع. وجدته ممدداً على الطاولة بيدين مكتفتين ليس فيهما إلا الأيقونة. ومثل الكثيرين من الأطفال العصبيين كنت أخاف الأموات وأرفض الاقتراب منهم إلا أنني لم أشعر بالخوف أمام الوالد. بدا أنه ينام على وسادته مبتسماً بهدوء تماماً كما لو كان يرى شيئاً ما طيباً. وبجانب الفقيد كان يجلس فنان يرسم دوستويفسكي في نومه الأبدي. وفي الصباح ظهرت في الجرائد نعوة عن وفاة والدي والتأم شمل جميع الأصدقاء كي يحضروا القداس الأول وتبعتهم وفود طلبة مختلف المؤسسات التعليمية العليا في بطرسبورغ. وصلوا سوية مع الخوارنة ورافقوه بصلواتهم وسالت الدموع على الوجنات. كانوا ينشجون وهم ينظرون إلى الوجه الذي لا حياة فيه للكاتب المحبوب. كانت الأم تمشي بلا هدف بعينين مغرورقتين بالدموع. لم تع جيداً عندما أقدم رجل من البلاط وباسم ألكسندر الثاني بإعلامها تخصيص تقاعد حكومي لها واتخاذ قرار بتعليم الولدين على حساب الدولة فقفزت بسرور كي تنقل هذا الخبر السار إلى زوجها. وقد روت لي لاحقاً: «في هذه اللحظة أدركت للمرة الأولى أن زوجي توفي وأنه من خلال هذه

اللحظة ينبغي أن أعيش وحيدة وأنه لم يعد عندي بعد الآن صديق بإمكاني مشاطرته الأفراح والأتراح».

ايفان پوپوف:

في اليوم التالي مساءً ذهبت إلى القداس. شقة غير كبيرة لعلها من أربع غرف، في الطابق الثالث أو الرابع مع ممر صغير. الشقة مفروشة بتواضع. المكتب مغطى بمشمع. تغص الشقة بالبشر.

كان دوستويفسكي ممدداً في وسط المكتب ومغطى بغطاء وإلى جانبه تابوت مفتوح ومصنوع من شجر البلوط. كانت الراهبة تقرأ المزامير. وعلى الطاولة وعند الجدران والغطاء توجد الأكاليل والزهور. كان غريغوروڤيتش يشرف على كل شئ.

ايكاتيرينا لتيكوفا – سلطانوفا:

إن المرة الأخيرة التي رأيت فيها دوستويفسكي هي في التابوت. كان هذا دوستويفسكي آخر ثانية. لا شئ من الإنسان الحي: جلد أصفر بوجه عظمي. تكاد الشفاه تكون غير محددة وسكون مطبق. كانت حرارة جدله القريب بصدد الكلمة في الاحتفالات البوشكينية وحماس معتقداته – والهبة الخارقة في إشعال قلوب البشر – كانت مغلقة تماماً بقناع عظمي...

أناتولي كوني:

ذهبت للركوع أمام جثمانه. فعلى الدرج شبه المعتم وغير المريح للبناء في ركن زقاق يامسكي وكوزنيتسكي، الطابق الثالث كان يعيش الفقيد وكان هناك جمع غفير متجه نحو الباب المغطى بمشمع رث. خلفه بهو معتم وغرفة يغلب عليها ذاك الوضع الفقير المتواضع الذي رأيته ذات مرة. دوستويفسكي ممدد على منصة التابوت بحيث كان وجهه مرئياً من قبل الجميع. أي وجه! يستحيل نسيانه. لا يشي وجهه بشئ ما يدعو للعجب ولا بأي تعبير حجري هادئ يمكن مصادفته عند الموتى. وقد بدا هذا الوجه ملهماً وجميلاً رائعاً. بودي أن أقول للمحيطين:

«لاتبكوا، هو لم يمت، إنه فقط نائم»

التحلل لم يمسه بعد ولم تظهر بصمة الموت عليه بينما هناك فجر آخر لحياة أفضل كما كان قد ألقى عليه بصيصه... لم أستطع الانفلات من تأمل هذا الوجه الذي بدا أنه يقول من خلال تعبيره: «هكذا! هكذا هو الأمر – كنت أقول دوماً إنه ينبغي أن يكون كذلك، أما الآن فأنا أعرف...».

بالقرب من التابوت كانت تقف فتاة هي ابنة الفقيد وأخذت توزع الزهور وكل هذا قد ترك تأثيره في القادمين لتوديع رفات الإنسان الذي رحل بحب أخاذ ونافذ في تصوير الروح الطفلية.

آنّا دوستويفسكايا:

في اليوم التالي بعد رحيل الزوج كان في عداد الشخصيات التي زارتنا الفنان الشهير ايڤان كرامسكوي. وبرغبة خاصة منه أراد أن يرسم بورتريه للمتوفى بالحجم الطبيعي وأنجز عمله بموهبة هائلة. يبدو دوستويفسكي على هذه البورتريه غير متوفى بل هو نائم فقط بوجه مبتسم ومضئ كما لو كان هو الوحيد الذي يعرف سر الحياة الآخرة.

فيما عدا ايڤان كرومسكوي كان هناك عدد من الفنانين والمصورين والذين يرسمون ويصورون البورتريهات للميت لأجل الايضاحية المصورة. وزارنا النحات الشهير الآن ليوپارد برنشتام الذي لم يكن يعرفه أحد حينذاك ورفع عن وجه زوجي القناع الذي بفضله امتلك الامكانية لإبداع تمثاله النصفي الشبيه به بصورة تدعو إلى الإدهاش.

نيقولاي ستراخوف:

مثلت جنازة دوستويفسكي الظاهرة التي أدهشت الجميع. ويمكن القول بشجاعة إنه لم تحصل إطلاقاً مثل هذه الجنازات في أراضي روسيا حتى ذاك الوقت.

الأرقام تتحدث: سارت الجنازة عند حمل الجثمان من الشقة (زقاق كوزنيتسكي، رقم 5) إلى كنيسة الروح المقدسة في نيڤسكايا لاڤرا حاملة /67/ اكليلاً وكان يغني /15/ كورالاً من المغنين – هذا يعني /67/ وفداً

مختلفاً و/67/ جمعية ومؤسسة راغبة في تقديم التبجيل والتكريم للمتوفى وإن /15/ كورالاً من المغنين تعنى /15/ حلقة وهيئة مختلفة لها الامكانية لإعداد المغنين. إنها تظاهرة مهيبة.

يبدو أنها تشكلت فجأة دون أية دعايات تحريضية مسبقة ودون أية استعدادات أو أوامر لأنه لا أحد إطلاقاً توقع رحيل دوستويفسكي وإن الزمن بين الخبر المتوقع عن الرحيل والجنازة (ثلاثة أيام) كان قصيراً وغير كاف لأية تحضيرات. وبالتالي إن كل وفد من الوفود السبعة والستين له قصته المستقلة عن قصص الآخرين. من المعروف أن شخصيات مؤسسات رسمية أخرى لم يتيسر لها إلا بصعوبة، بسبب قصر الوقت، الحصول على الإذن اللازم للمشاركة في الموكب الجنائزي وكانت هناك حالات مضت بلا أذونات. عشية نقل الرفات كانت آنا على علم بثماني وفود ترغب بحمل الأكاليل وهي فكرت بفرح بهذا التكريم العظيم المخصص للفقيد. على فكرة عند لحظة الجنازة ظهر/72/ وفداً. وجمهور المشيعين الرئيسي كان مكوناً من مختلف طبقات الجمهور وكان ملحوظاً وجود كثرة من الشباب، رجالاً ونساءً. طبيعة الموكب كانت واضحة. فهي نوعاً ما غير منظمة بسبب العجلة التي التأم فيها الجمع ولكن دون أي ظل للاضطراب ودون علامات للإثارة والهياج. إنها جنازة حقيقية. وحظيت جميع طقوس الدفن والكلمات التي ألقيت في الكنيسة وفوق الضريح بطابع هادئ ونقي وحزين.

ميخائيل ألكسندروف:

حدثت حركة غير عادية حول رفات الكاتب إذ ظهر وزير الداخلية وقتذاك الكونت م.ت.لوريس ميليكوف الذي أسرع كي يواسي العائلة المترملة للكاتب الذي منح المجد لوطنه، وقد حرمت هذا العائلة من معيلها فجرى تأمين المورد المادي لها بتخصيص تقاعد مدى الحياة لها من أموال الدولة. حضر أمراء عظام ووزراء ولفيف كبير من الشخصيات الرفيعة المستوى للركوع أمام جثمان المفكر الذي عانى الكثير في حياته... وشارك الريف في التعبير عن التعازي بالخسارة الكبيرة وذلك بإرسال العديد من البرقيات.

لم تصادف شقة المتوفى في زقاق كوزنيتشني في حياتها مثل هذا الحشد من البشر مثلما هي الحال في يوم الرحيل. صارت الشقة في حوزة البشر من الصباح حتى وقت متأخر من الليل وهي مفتوحة للجميع... وقد شكلت نخبة غير كبيرة من خيرة كتابنا لجنة لتنظيم الجنازة برئاسة ديمتري غريغوروڤيتش الذي أخذ على عاتقه كل المسائل المتعلقة بهذا الحدث معفياً بذلك أرملة المرحوم المشوشة من كل هذه المشاغل.

في 31 كانون الثاني صدرت «يوميات كاتب» وفي اليوم نفسه نفدت جميع النسخ. وفي اليوم التالي ظهرت الطبعة الثانية بإطار حداد حول الصفحة الأولى.

حصل جميع المعجبين بدوستويفسكي الذين حضروا للركوع أمام جثمانه على أوراق من حجم الكتاب المتوسط وعليها مطبوعة ضمن إطار حداد صورة للكاتب: «فيودور دوستويفسكي».

من يوميات ايليا تيومينيف:

31 كانون الأول، السبت.

في الساعة العاشرة صباحاً تقريباً اقتربنا من كنيسة فلاديميرسك واضطررنا إلى ترك الحوذي: كان الحشد يغطي ساحة كوزنيتشني بل حتى ساحة فلاديميرسك بالحشود البشرية. وفي شارع كوزنيتشني اصطفت عشرات الأكاليل وصولاً حتى البناء الذي تقع فيه شقة دوستويفسكي.

وقف حشد من طلبة المدارس الثانوية عند أحد الأكاليل (روى د.ن.سولوڤيوف أن تلاميذ الثانوية ورغم الحظر الذي فرضه المدير جمعوا النقود لأجل الاكليل والكبار منهم ذهبوا سراً من المدرسة كي يشاركوا في مراسم التشييع. واكليل آخر أحاط به تلامذة المدرسة الفعلية. وهنا غير بعيد يوجد اكليل باسم دورات بيستوجيف وهو محاط بسيدات وفتيات. وبعد ذلك في العمق في الاتجاه نحو البيت يوجد اكليل باسم جمعية المعارض حيث كان يجول حوله الفنان ايڤان كرامسكوي وهنا يقف ليموخ وفنانون آخرون. خلفهم اكليل باسم ممثلي الاوبرا الروسية وإلى جانبهم شخصية طويلة القامة هي ڤاسيلي ڤاسيليف. يظهر خلف الاوبراليين اكليل

باسم فرقة الدراما الروسية. وهنا شاهدنا برودنيكوف وسازونوف وپيتيپا وغيرهم. كما كان يقف كارازين مع اكليل باسم نادي الفنانين.

قدم طلبة الجامعة كهدير الأمواج حاملين اكليلاً هائلاً ومزيناً بأغصان النخيل بما يشبه القيثارة وصاروا أمامنا. هم أنهوا المجموعة الرابعة من مراسم التشييع ونحن بدأنا الخامسة. والمشرف عليهم البروفسور المحبوب أريست فيودوروڤيتش ميللر. تميز من جميع الحشد الطلابي الكورال الذي شكل حلقة من الوسط الطلابي. ووقف الكورال خلف اكليله وانضم إليه عشرون شخصاً من المغنين...

استمر توافد البشر والساعة تشير إلى التاسعة عشرة إلا ربعاً. وسمعنا في العمق من الدار الغناء إذ تم نقل التابوت من الشقة. صدح صوت: «إلى الأمام» وارتفعت الأكاليل وأخذ الحشد يمور وتحرك الموكب بعد دقيقتين – ثلاث دقائق.

طن الجرس في برج أجراس كنيسة فلاديميرسك وتقريباً وراء الضربة الأولى وبجانبنا دوت العبارة المهيبة «أيها الرب المقدس» من غناء كورال الجامعة ومشاركة عشرات الأصوات من الحشد المحيط والمتحرك.

ارتفعت الرؤوس عند أولى أصوات الصلاة. وكانت أصوات «أيها الرب المقدس» الهادئة والحزينة قوية لدرجة أنها تشبثت بالروح حتى أن الكثيرين منا انسكبت دموعهم بغزارة...

رغم أن الغناء لم يخفت وصولاً حتى لاڤرا فهو لم يعد يترك ذاك الانطباع الهائل والعجيب. وسرعان ما توقف المغنون أنفسهم عن رفع القبعات أثناء الغناء وقد توقف الموكب الجنائزي عند كنيسة فلاديميرسك لفترة من الوقت.

كان الطقس رائعاً: 1 أو 2 درجة الحرارة ولا وجود للرياح إطلاقاً كما لم يكن هناك أي أثر للرطوبة وبدا النهار دافئاً تماماً حسب الطلب لتشييع فيودور دوستويفسكي. وفي اليوم التالي ساد الصقيع ثانية وهبت الرياح العاتية.

كان شارع النيڤا غاصاً بالبشر واستطاعت أطقم المراكب التحرك في مجال ضيق لأجل صفين والجزء الباقي من الشارع كان مشغولاً بالموكب الجنائزي وحشود الناس المكتظة حتى الجدران على الأطراف.

امتد الموكب الجنائزي لمسافة هائلة وسار في مسير النصر: حملوا التابوت للتو حتى شارع النيڤا بينما كانت أولى الأكاليل قد اقتربت من زنامين. كانت الأرصفة والنوافذ والشرفات مزدحمة بالمشاهدين. وفي أثناء حركة الموكب الجنائزي انضم إليه اكليلان من موسكو باسم طلبة جامعة موسكو ومدرسة كاتكوف.

حملت اكليل فرقة الدراما الروسية م.ج.ساڤينا سوية مع سازونوف. تصرفت الشبيبة بلا عيوب. وبكل هدوء وحشمة (فيما إذا لم نعتبر التدخين ولكن نصفها من الممثلين).

في ساحة لاﭬرا خرجت من السلسلة وأنزلت التابوت سوية مع الموكب.
أمام التابوت تظهر الأكاليل باسم الأدباء وهيئات تحرير مختلف المجلات ومنها اكليل باسم مجلة «روسكايا ريتش» (اللغة الروسية) كما كانت هناك أكاليل باسم « نوفويه ﭬريميا» (العصر الحديث) و«الورقة البطرسبورغية» وغيرهما.

كما قلت، التابوت نفسه سوية مع المشيعين محاطين بضفائر الزهور الخضراء الممتدة من اكليل الجمعية السلاﭬية وصولاً حتى التابوت نفسه.

ودعت الفقيد العزيز وظللت أرافقه بعينّي الاثنتين بينما ارتفع التابوت كما لو كان قد هيمن على الحشد المحيط.

عدت أدراجي إلى البيت. وفي الزاوية مقابل لاﭬرا يقف كاتب ما يبيع بطاقات الفقيد بخمس كوبيكات للقطعة الواحدة.

ميخائيل ألكسندروف:

كانت بطرسبورغ في الأول من شباط 1881 شاهداً على موكب جنائزي خارق للغاية حيث التأم للتشييع غلى مقبرة ألكسندروفسك لاﭬرا شمل عشرات الآلاف من صنف المثقفين من كافة فئات المجتمع وعشرات الوفود نيابة عن المؤسسات مع عدد هائل من الأكاليل المثبتة بالأعواد موزعة أمام مسار النعش وهي تمتد على مسافة تزيد عن الكيلومتر بعدها سار المغنون ورجال الدين تليهم العربة وفيها التابوت إلا أن الحقيقة أن

التابوت ظل مرفوعاً على أكتاف المعجبين به وهم من ممثلي سائر طبقات المجتمع. وكان لي شرف أن أشارك في حمل التابوت ومن بين الذين حملوا النعش پ.ڤ.بيكوف الشاعر المعروف وكان حينذاك رئيس التحرير المسؤول لمجلة «ديلو»، وكذلك الأمير ڤ.پ.ميشيرسكي. سار خلف العربة حشد كبير من الأفراد وطلبة المعاهد والمدارس المتوسطة. وقد انغلق الموكب برتل من عربات الخيل الفاخرة بحيث أنها امتدت لأكثر من كيلو متر بكثير. فالإنسان البسيط الذي توقف بنوعٍ من الفضول كي يشاهد هذه اللوحة العجيبة بالطبع قد تم، قبل كل شئ إعلامه اسم الذي يوارونه التراب وهو عرف بشئ من التعجب أن الراحل ليس جنرالاً أو أي رئيس آخر من الكبار وليس وجيهاً من كبار القوم بل هو مجرد كاتب أي مؤلف عدة كتب. وختم هذا الإنسان البسيط استفساراته قائلاً بما يعني أنه ألف الكتب بصورة جيدة؟ أي إن الكاتب المذكور مؤلف.

– المجيب على أسئلة البسيط: إذن هكذا الأمر.

مع كل خطوة للموكب الجنائزي في الاتجاه نحو لاڤرا صار الحشد أكبر فأكبر. لقد توقفت الدروس في جميع المعاهد العليا والجامعات وفي معظم المعاهد المتوسطة وتوجه جميع الطلبة إلى شارع النيڤا كي يقتربوا من الموكب الجنائزي.

على فكرة، تحرك الموكب ببطء شديد وفقط قرابة الساعة الثانية بلغ الموكب المكان المخصص.

لوبوف دوستويفسكايا:

حسب العادة تسير الأرملة واليتامى خلف التابوت سيراً على الأقدام. وبما أن الطريق (شارع ألكسنروف – نيڤسكي) طويل وكانت قوة الولدين بسيطتين كان أصدقاء الأسرة يضعوننا أحياناً في المركبة. قال بعضهم لنا: «لا تنسيا إطلاقاً الجنازة الرائعة التي رتبتها روسيا لوالدكما». وعندما اقترب الجثمان أخيراً من الدير خرج من البوابات الكبيرة الرهبان وساروا لملاقاة والدي الذي كان عليه الآن أن يستند إليهم. وهذا الشرف كانوا يمنحونه فقط للقياصرة ومنحوه للكاتب الروسي الشهير والابن الوفي للكنيسة الأرثوذكسية.

كان الوقت متأخراً جداً لبدء القداس واضطروا إلى تأجيله إلى اليوم التالي. تم وضع التابوت في وسط كنيسة « سڤيتوي دوخ» (الروح المقدسة). بعد أداء الخدمات الدينية عدنا إلى البيت منهكين من التعب والقلق والاضطراب. ظل أصدقاء الوالد واقفين لفترة من الوقت يراقبون الجمهور المحتشد والساعي إلى الركوع عند التابوت والصلاة. حل المساء وأظلمت الدنيا وأخذت حشود المعجبين وأصدقاء الوالد تتفرق استعداداً للظهور ثانية في اليوم التالي لأجل القداس. غير أن دوستويفسكي لم يبق وحده إذ لم يتركه طلبة بطرسبورغ وقرروا البقاء يقظين إلى جانب الكاتب المحبوب في آخر ليلة له فوق الأرض.

بعد عدة أيام من الدفن زارته والدتي كي تشكر القائمين على الجنازة العظيمة التي نظمها الرهبان للوالد. باركنا المتروبوليت وروى لوالدتي عن انطباعاته حول مناوبة الطلاب الليلية: «في مساء السبت توجهت إلى كنيسة الروح المقدسة كي أركع أمام جثمان دوستويفسكي. أوقفني الرهبان عند الأبواب وقالوا إن الكنيسة التي ظننت أنها خاوية، هي تغص بالبشر. عند ذاك توجهت إلى فوق، إلى الكنيسة الصغيرة الواقعة في الطابق الثاني من الكنيسة المجاورة والتي تطل نوافذها على كنيسة الروح المقدسة. أمضيت هناك جزءاً من الليل وأنا أراقب الطلبة وهم لا يرونني. كانوا صامتين وهم واقفون على ركبهم بالبكاء والنحيب والنشيج. أراد الرهبان قراءة المزامير عند التابوت إلا أن الطلبة أخذوا منهم المزامير وصاروا يقرؤونها بالدور! صاروا يقرؤون المزامير بصوت مرتج من القلق مع انصباب الروح في كل كلمة. ولا يزال من يقول لي أن هؤلاء الشبان ملحدون ويحتقرون كنيستنا. ما هي القوة السحرية التي كان يمتلكها دوستويفسكي كي يحولهم، من جديد، إلى الرب؟»...

في يوم الدفن، الأحد، الأول من شباط استغل جميع المعجبين بدوستويفسكي يوم العيد كي يذهبوا إلى الكنيسة ويصلوا من أجل أن ترقد روحه. ومن الصباح الباكر غصت ساحة ألكسندرو – نيفسكايا لاقرا الواقعة على ضفة النيڤا بالناس وهي عبارة عن مدينة صغيرة تضم عدة كنائس وثلاث مقابر وحدائق وثانوية شرعية وأكاديمية. والرهبان المساكين الذين

رأوا كيف يتزايد الحشد وتغص به الحدائق والمقابر ويتسلق النصب التذكارية والأسوار قد ارتعبوا واستدعوا البوليس للمساعدة. أغلق البوليس، على الفور، البوابات. وإن القادمين الذين وصلوا متأخرين توقفوا في الساحة الكبيرة الواقعة أمام الدير وظلوا هناك حتى ختام القداس على أمل الوصول عبر السياج أو على أقل تقدير سماع الغناء الكنسي عندما يحملون التابوت إلى المقبرة. وفي التاسعة صباحاً اقتربنا في العربة من البوابات الرئيسية وأثار استغرابنا عندما وجدناها مغلقة. خرجت أمي، وهي في لباس الحداد، من المركبة وأمسكتنا من أيدينا. قطع ضابط البوليس الطريق أمامنا.

– أعلن بصرامة: لن أسمح!

– سألت أمي بحالة من التعجب: كيف لا تسمح؟ أنا أرملة دوستويفسكي وينتظرونني في الكنيسة كي يبدؤوا القداس.

– أجاب رجل البوليس بحنق وغيظ: أنت أرملة دوستويفسكي السادسة التي تطلب الإذن بالعبور. كفى كذباً! لن أسمح لأحد إطلاقاً!

ونحن في حالة من الذهول والارتباك نظرنا حولها ولم نعرف ما العمل ولسعادتنا كان بانتظارنا الأصدقاء. ارتموا نحونا وأخذونا. وبمشقة هائلة تمكنا من النفاذ عبر الحشود التي يغص بها الدير وكان الأصعب هو الوصول إلى الكنيسة المحتشدة بالبشر. وعندما تلمسنا، أخيراً، المكان المتبقي لنا بدأ القداس الذي كان رائعاً. غنى كورال المتروبوليت وأدى كبار الأساقفة الطقوس الدينية اللازمة.

لوبوف دوستويفسكايا:

تم إهمال جزء هام من القداس الأرثوذكسي. ففي روسيا يظل التابوت مفتوحاً طوال فترة الطقس وفي نهايته يقترب الأهل والأصدقاء ويودعون الفقيد مقبلين إياه. أما تابوت دوستويفسكي فقد ظل مغلقاً. وفي يوم الجنازة توجه الخال ايفان في الصباح الباكر إلى الدير بمرافقة پوبيدونوستسيف الذي تم تعيينه للتو وصياً علينا. فتحوا التابوت ووجدوا دوستويفسكي الذي تغير تغيراً شديداً. كان اليوم الرابع بعد الرحيل. عجل أصدقاء الوالد الذين حملوا الجثمان بسبب الاهتزاز وعملية التحلل التي بدأت قبل وقتها بسبب الحر الشديد في اليومين الأوليين في غرفة المتوفى. وخوفاً من أن الوجه المتغير للفقيد سيترك انطباعاً قاسياً على أرملة دوستويفسكي وولديه منع پوبيدونوستسيف الرهبان من فتح التابوت. ولم تستطع والدتي إطلاقاً أن تغفر له هذا المنع وقالت بمرارة: «وماذا لو رأيته متبدلاً. فهو دوماً كان زوجي العزيز، العزيز! وغادرنا إلى القبر بدون قبلتي، قبلة الوداع، بدون بركتي».

آنّا دوستويفسكايا:

بعد القداس تم رفع تابوت فيودور دوستويفسكي ونقله المعجبون بموهبته من الكنيسة والذين برز من بينهم على وجه الخصوص البروفسور فلاديمير سولوڤيف الشاب بهيئته القلقة والمضطربة.

أغرق الجمهور مقبرة تيخڤينسكي وصعد البشر على النصب التذكارية وجلسوا على الشجر وتمسكوا بالسياج وتحرك الموكب ببطء بين أكاليل مختلف الوفود. وبعد الدفن بدأت الخطابات فوق الضريح المفتوح. أول المتكلمين- البتراشيڤي آ.ي. پاليم بعده ألقى كل من اور.ف.ميللر والبروفسور ك.ن.بيستوجيف – رومين وفلاديمير سولوڤيف وپ.آ. غايديبوروف وغيرهم كثير كلمات المناسبة. وألقيت كذلك قصائد كثيرة مكرسة لذكرى المتوفى. غطى الجمهور التابوت بالأكاليل حتى الجزء الأعلى من الضريح وتفتتت بقية الأكاليل إلى أجزاء. وقد حمل الحاضرون الوريقات والزهور للذكرى. وفقط في الساعة الرابعة تمت تغطية الضريح وأنا سوية مع الولدين، ونحن منهكون، من الدموع والجوع، غادرنا إلى الدار وظل الحشد البشري طويلاً حتى تفرق أخيراً.

أيفان پوپوف:

تفرقنا بعد الضريح حيث تم إشعال المصابيح. صادفنا مجموعات من البشر تريد أن تؤدي واجبها تجاه الكاتب. وقد استمرت التأبينات الأدبية المكرسة لدوستويفسكي حتى الأول من آذار حيث انقطعت هذه الذكريات عنه.

مكتبة telegram @t_pdf

من يوميات ايلينا شتاكينشنايدر لعام 1880:

لم يجلب المجد لدوستويفسكي لا الأشغال الشاقة ولا «مذكرات من بيت الموتى» ولا حتى رواياته وعلى أقل تقدير لا بصورة رئيسية بل «يوميات كاتب».

جعل «يوميات كاتب» اسمه معروفاً في أرجاء روسيا وجعله معلماً ومعشوقاً ليس للشبيبة وحدها بل للمعذبين بالمسائل التي سماها هاينه ملعونة.

نيقولاي ستراخوف:

في السنوات الأخيرة لا سيما منذ بداية «يوميات كاتب» كان غارقاً في المراسلات ومنهمكاً بسبب الزوار. كانوا يكتبون له أو يذهب إليه بشر لا يعرفهم من شتى أرجاء بطرسبورغ وأقاليم روسيا. كانوا يزورونه طلباً للعون لأنه كان يساعد الفقراء بكل دأب وغيرة ويشارك في مصاعب الآخرين وتعاستهم. وشهرته أسعدته إذ استقبل الكثير من طلبات التي كانت تظهر أن كلماته لم تذهب هدراً. تعرف إلى كثير من البشر الذين منحوه النعمة والسلوى بسماتهم النفسية والقلبية. وكان يعتبر هذه العلاقات واجباً صريحاً

للدعم والتوجيه في الاتجاه السليم. وكان يهمه، على وجه الخصوص الفتيان والطلبة وطلبة الدورات.

بعد ذلك انهالت الدعوات إلى جلسات لمختلف الجمعيات وجلسات الغداء بمناسبات مختلفة والقراءات الأدبية لأجل الأهداف الخيرية.

ميخائيل ألكسندروف:

في ذاك الوقت كثيراً ما كانت تعقد الأمسيات الأدبية لغايات خيرية ومعظمها في صالح الطلبة الذين يعانون عدم الكفاية وكان فيودور دوستويفسكي يشارك فيها أنشط مشاركة حيوية وهي بالذات التي كانت تجذب بصورة رئيسية، الجمهور إليها. وحضرت إحداها في نيسان **1880** في فومينو ڤوسكريسينيه...

عندما أتى الدور، للخروج إلى المنصة، إلى فيودور دوستويفسكي ساد القاعة هدوء غير عادي دل على الاهتمام المتوتر. وقد جحظ الحضور بعيونهم نحو المنصة التي سيظهر فيها مؤلف « الإخوة كارامازوف»، الكاتب الشهير منذ فترة بعيدة إلا أنه لم يعترف به إلا منذ فترة... وعندما حلت هذه اللحظة وفي وسط الهدوء المتوتر دوى انفجار من التصفيق الذي لم يكد يخفت حتى عاد إلى الصعود لخمس دقائق. خرج دوستويفسكي من وراء الكواليس بوجه مهموم وتوجه إلى الطاولة الموضوعة في وسط خشبة المسرح. توقف في منتصف الطريق وانحنى عدة مرات

وهو يحيي الصالة وتابع طريقه بالهيئة ذاتها ووصل إلى الطاولة. ولكن ما كاد يقوم بخطوتين حتى هدر انفجار جديد من التصفيق أوقفه في مكانه ثانية. انحنى، مرة ثانية يميناً ويساراً ثم أسرع دوستويفسكي إلى الطاولة إلا أن التصفيق المدوي استمر ولم يمنحه فرصة الجلوس وراء الطاولة فظل واقفاً دقيقة أخرى وهو ينحني في جميع الاتجاهات. وأخيراً بعد أن انتظر عندما يهدأ التصفيق جلس وفتح المسودة ولكن في هذه اللحظة ونتيجة للانفجار الجديد في التصفيق كان عليه مرة ثانية أن ينهض وينحني. وأخيراً عندما سكن التصفيق شرع دوستويفسكي يقرأ. لم يقرأ في تلك الأمسية تلك الفصول المطبوعة من «الإخوة كارامازوف» في «البشير الروسي».

صفق الجمهور بحرارة لقراءة دوستويفسكي عندما أنهى ما هو مخصص حسب البرنامج ورجاه أن يقرأ شيئاً ما آخر. كان دوستويفسكي نشيطاً لدرجة انه لبى رجاءهم بكل سرور ورغبة. وقد شعر أمام الجمهور المحتشد بأنه على خير ما يرام ويتصرف بحرية، والجمهور بدوره ميز بكل رهافة الوفاء في صوته واتخذ منه موقف الوفاء مثلما هو محبوب عريق. كانت صيحات الهتاف والتصفيق لدوستويفسكي تتميز جوهرياً عن هتافات عابر سبيل من العالم الارستقراطي بشكل عام.

فيودور دوستويفسكي، من رسالة إلى آنا دوستويفسكايا بتاريخ 8 حزيران 1880:

اليوم صباحاً كانت قراءة كلمتي في « الهواة». كانت القاعة تغص بالجمهور. كلا يا آنا، كلا، لا يمكنك إطلاقاً تصور ذاك التأثير الذي تركته القاعة! إنها النجاحات البطرسبورغية! أية مقارنة به هي صفر! عندما ظهرت، دوت القاعة بالتصفيق وظل الجمهور فترة طويلة يعيقني عن البدء بالقراءة. انحنيت وقمت بحركات – جيستات راجياً أن يعطوني المجال كي أقرأ ولكن عبثاً: البهجة والحماس (كله بسبب « الإخوة كارامازوف»!). وأخيراً بدأت القراءة. قاطعوني في كل صفحة. بل أحياناً كل عبارة بهدير من الهتافات والتصفيق. قرأت بصوت عالٍ وبكل حمية. وكل ما كتبته عن تاتيانا قوبل بحماس (إنه انتصار عظيم لأفكارنا على 25 سنة من الضلال!). وعندما أعلنت في النهاية الوحدة العالمية للبشر صارت القاعة في حالة من الهستيريا وعندما أكملت – حدث هدير وزئير وعويل البهجة: الناس الذين لا يعرفون بعضهم بعضاً صاروا يبكون وينحبون وينشجون ويعانقون بعضهم بعضاً ويحلفون اليمين أن يكونوا أفضل وأن لا يكرهوا بعضهم بعضاً بل أن يحب أحدهم الآخر. تم خرق نظام الجلسة. اندفعت الحشود نحوي على المنصة: صارت السيدات والطالبات وسكرتاريو الدولة والطلاب يعانقونني ويقبلونني. وجميع أعضاء جمعيتنا الموجودين على المنصة صاروا يعانقونني ويقبلونني. والجميع، دون استثناء،

صار يبكي من الفرح. ظلت الحالة كذلك نصف ساعة. والجالسون يلوحون بالمناديل.

وفجأة أوقفني شيخان عجوزان من غير معارفي: «كنا عدوين فيما بيننا لمدة عشرين سنة وتصالحنا. أنت الذي صالحتنا. أنت قديسنا، أنت نبينا!» وصرخوا في الحشد: «نبي، نبي!». وتورغينيف الذي دسست كلمة طيبة عنه في كلمتي ارتمى عليّ يعانقني والدموع في عينيه. وأسرع أنينكوف يصافح يدي ويقبلني في كتفي. وقال لي الاثنان: «أنت عبقري، أنت أكثر من عبقري!». وهرول ايفان أكساكوف نحو المنصة وأعلن للجمهور أن كلمتي – ليست مجرد كلمة بل هي حدث تاريخي! التصقت سحابة بالأفق وها هي كلمة دوستويفسكي مثل الشمس المشرقة التي أخذت تبدد كل شئ وتضئ كل شئ. ومنذ هذا الوقت تحل الأخوة ولن يكون هناك ذهول ولا حيرة. وبدأ الصراخ من جديد: نعم، نعم!». وتعانقوا ثانية والدموع من جديد. اختتمت الجلسة. رميت بنفسي كي أنقذ ذاتي وراء الكواليس إلا أن الجميع اندفعوا من القاعة لا سيما النساء نحوي. قبلوا يديّ الاثنتين وأهلكوني. وهرع الطلبة. وواحد منهم والدموع تترقرق في عينيه سقط أمامي على الأرض في حالة من الهستيريا وفقد الشعور وأغمي عليه. إنه انتصار كامل بالتمام والكمال! قرع يوريف (الرئيس) الجرس وأعلن أن جمعية محبي اللغة الروسية تختارني بالإجماع عضواً فخرياً. ومن جديد صرخات وزعيق. بعد ساعة تقريباً تابعوا الجلسة... لم يرغب أحد

القراءة دخل أكساكوف وأعلن أنه لن يقبل أن يلقي كلمته لأنه قيل كل شئ وحلت كل شئ الكلمة العظيمة لعبقرينا – دوستويفسكي. بيد أننا جميعنا أجبرناه على القراءة. واستمرت القراءات. وقد تأمروا عليّ. شعرت بالضعف وأردت المغادرة إلا أنهم منعوني بالقوة. في هذه الساعة تيسر لهم شراء أغلى اكليل – متر ونصف المتر. وفي نهاية الجلسة اندفعت أكثر من مئة سيدة إلى المنصة وتوجوني أمام القاعة كلها: «من أجل المرأة الروسية التي ما أطيب ما تحدثت عنها!». بكى الجميع ومن جديد الحماس. وشكرني محافظ المدينة تريتيكوف باسم مدينة موسكو. اسمحي لي يا آنا، ما كان يمكن، لأجل كل هذا، البقاء. إنها ضمانات المستقبل، ضمانات كل شئ فيما لو حتى أنني سأموت.

ألكسندر كروغلوف (1853 – 1915) كاتب:

مشيت في شارعِ نيڤسكي مع طالب كلية الطب. ألفينا بالصدفة دوستويفسكي. رفع الطالب بسرعة السدارة.

– سألت: وهل تعرف فيودور دوستويفسكي؟

– أجاب الطالب: شخصياً لا أعرفه. أنا لم أنحنِ أمامه بل خلعت السدارة عن رأسي مثلما أفعل دوماً عندما أمرّ بجانب نصب بوشكين التذكاري.

30 تشرين الأول 1821 ولد فيودور ميخائيلوڤيتش دوستويفسكي في موسكو، شارع نوڤايا بوجيدومكا (الآن شارع دوستويفسكي، بناء رقم2) في شقة حكومية للطبيب في مستشفى مارينسكي لأجل الفقراء دار الرعاية الموسكوڤية. الأب ميخائيل (1789–1839) طبيب، الأم ماريا فيودروڤنا (كنيتها قبل الزوج نيتشايڤ1800 – 1837). فيما عدا فيودور والشقيق الأكبر ميخائيل أنجبت الأسرة خمسة أطفال.

4 تشرين الثاني 1821 تعميد دوستويفسكي.

عام 1834 يدخل فيودور وميخائيل إلى مدرسة داخلية لمؤولها ل.ي.تشيرماك في شارع نوڤايا باسمانايا.

27 شباط 1837 تفارق والدة دوستويفسكي الحياة.

12 آب 1841 ينتقل إلى فئة الضباط – ملازم ثان في الهندسة. يحصل على امكانية العيش خارج جدران مدرسة الهندسة. يستأجر شقة في شارع القوافل بالقرب من ساحة مانيج.

كانون الثاني 1844 دوستويفسكي يترجم «يفغيني غرانديه» لبلزاك. وفي الشتاء يعتزم كتابة رواية «المساكين».

18 تشرين الأول 1844 دوستويفسكي يستقيل «لظروف عائلية».

نهاية أيار 1845 يقرأ دوستويفسكي رواية « المساكين» أمام د.ف.ريغوروڤيتش. وهذا ينصح بأن يعرض الرواية على نيكراسوف.

كانون الثاني 1846 تصدر « المجموعة البطرسبورغية» من قبل نيكراسوف وهي متضمنة رواية دوستويفسكي «المساكين».

شباط 1846 تم نشر القصة الطويلة «القرين» في «المذكرات الوطنية».

تشرين الأول 1846 تم نشر قصة دوستويفسكي «السيد بروخارتشين» في العدد العاشر من «المذكرات الوطنية».

كانون الأول 1846 يعمل دوستويفسكي على «نيوتوشكا المتطفلة».

كانون الثاني **1847** صدرت «رواية في تسع رسائل» في العدد الأول من « سافريمينيك». يحضر دوستويفسكي لقاء الجمعة عند ميخائيل پتراشيفسكي ويستفيد من مكتبته.

تشرين الأول **1847** بدء طباعة قصة دوستويفسكي الطويلة «السيدة». تصدر «المساكين» في طبعة منفصلة.

كانون الثاني **1848** صدرت قصة دوستويفسكي « امرأة غريبة» في العدد الأول من «المذكرات الوطنية».

شباط **1848** صدرت القصة الطويلة « قلب ضعيف» في العدد الثاني من «المذكرات الوطنية».

كانون الأول **1848** صدرت قصة « الليالي البيضاء» الطويلة وقصة «الزوج الغيور» في العدد الثاني عشر من «المذكرات الوطنية».

يتقرب دوستويفسكي من الثوري الروسي نيقولاي سبيشنيف. تحت قيادة سبيشنيف تنتظم جمعية سرية انضم إليها البتراشيڤيون الأكثر حزماً: دوستويفسكي، ن.آ. موردڤينوف، ن.آ. مومبيلي، پ.ن. فيليبوف، ن.پ. غريغوريڤ، ڤ.آ. ميليوتين.

كانون الثاني **1849** بدأ دوستويفسكي نشر روايته «نيوتوشكا المتطفلة» في العدد الاول من «المذكرات الوطنية».

23 نيسان **1849** يعتقلون دوستويفسكي في الصباح الباكر.

نيسان – تشرين الثاني **1849** التحقيق في قضية بتراشيفسكي. قبع دوستويفسكي في زنزانة إفرادية في قلعة بتروباڤلوڤسك.

22 كانون الأول **1849** حكم لجنة القضاء العسكري: «بسبب عدم الإبلاغ عن نشر وتوزيع رسالة الأديب بيلينسكي الإجرامية حول الدين والحكومة والتأليف الإجرامي للملازم غريغوريف حرمان... من الرتب وجميع الحقوق وتقديمه إلى منصة الإعدام رمياً بالرصاص». الإعدام في بلاتس سيميونوفسكي. وقف الإعدام وقراءة المرسوم الملكي عن العفو.

كانون الثاني **1850** دوستويفسكي في الطريق من بطرسبورغ إلى توبولسك. في توبولسك هو ودوروڤا يزوران زوجات الديسمبريين: ن.د.فونڤيزين، پ.يه.آنينكوڤا مع الابنة. فانڤيرينا تهدي الانجيل مع عشرة روبلات مخبأة في التجليد إلى دوستويفسكي.

23 كانون الثاني 1850 يصل دوستويفسكي ودوروف إلى قلعة اومسك.

1850 – 1854 دوستويفسكي محكوم بالأشغال الشاقة في قلعة اومسك.

23 كانون الثاني 1854 يخرج دوستويفسكي من السجن. يبدأ الخدمة في قوات الفيلق السيبيري بصفة عسكري عادي.

شباط 1850 يتوجه دوستويفسكي إلى سيميبالاتينسك، الكتيبة السيبيرية السابعة.

ربيع 1854 يتعرف دوستويفسكي إلى أسرة ايسايف: آ.ايسايف وزوجته ماريا ديميتريڤنا.

آذار 1855 نظراً للبلاغ السامي حول اعتلاء ألكسندر الثاني العرش تم نشر أمر حول «الامتيازات والمكرمات» تجاه الأشخاص الذين «وقعوا تحت جدول الجرائم العسكرية».

آب 1855 وفاة آ.ي.ايسايف. دوستويفسكي يبذل جهده كي يساعد الأرملة.

عام 1855 التعرف والصداقة مع تشوكان ڤاليخانوف.

18 تشرين الثاني 1855 ترفع العسكري دوستويفسكي إلى رتبة ضابط صف.

26 – 30 تشرين الثاني 1856 يعرض دوستويفسكي طلب يد م.د.ايسايڤا وهي توافق على الزواج.

6 شباط 1857 يتكلل دوستويفسكي مع ايسايڤا.

عام 1858 يحصل دوستويفسكي على سلفة من «الكلمة الروسية» ويجري مباحثات مع «البشير الروسي». دوستويفسكي يحصل على إذن بالاستقالة.

31 تشرين الأول 1858 ميخائيل دوستويفسكي يحصل على إذن بإصدار مجلة «ڤريميا» (الوقت).

آذار 1859 تم نشر قصة «حلم العم» الطويلة في العدد الثالث من «الكلمة الروسية». قبلت الاستقالة. سمحوا له بالسفر إلى محافظتي بطرسبورغ وموسكو. مراقبة سرية لتحركاته. دوستويفسكي يختار تڤير مكاناً للإقامة.

19 آب 1859 يسافر دوستويفسكي سوية مع الأسرة إلى تڤير.

تشرين الثاني 1859 سمحوا لدوستويفسكي بالحصول على إقامة في بطرسبورغ.

16 كانون الأول 1859 يسافر دوستويفسكي مع الأسرة إلى بطرسبورغ.

ايلول 1860 صدور مؤلفات دوستويفسكي في مجلدين. نشرت جريدة «روسكي مير» «المقدمة» والفصل الأول من «مذكرات من بيت الموتى».

كانون الثاني 1861 صدور العدد الأول من مجلة «ڤريميا» حيث تضمن الجزء الأول من رواية «مذلون ومهانون». يستمر نشر «مذكرات من بيت الموتى» في «روسكي مير».

1862 صدور طبعة خاصة «بمذكرات من بيت الموتى».

7 حزيران 1862 دوستويفسكي يغادر البلاد للمرة الأولى. وفي ڤيسبادن يلعب بالروليت.

شباط 1863 تم انتخاب دوستويفسكي إلى عضوية لجنة الصندوق الأدبي ويصبح سكرتيراً له. التعرف إلى آ.پ.سوسلوڤا.

24 أيار 1863 « الأمر السامي» بوقف إصدار مجلة الأخوين دوستويفسكي «ڤريميا».

آب 1863 يسافر خارج البلاد لأجل اللقاء مع سوسلوڤا ويسافر معها إلى ايطاليا.

كانون الثاني 1864 يحصل دوستويفسكي على الموافقة على إصدار مجلة «ايپوخا» (العصر). في آذار صدر عدد مزدوج من المجلة سوية مع «مذكرات من السرداب» (النهاية في العدد الرابع).

15 نيسان 1864 رحيل م.د. دوستويفسكايا.

10 تموز 1864 رحيل ميخائيل دوستويفسكي. يستمر دوستويفسكي في إصدار «ايپوخا» متحملاً ديون الشقيق.

عام 1865 يتم نشر قصة دوستويفسكي «حادث غير عادي أو رواق تجاري في الرواق...» في العدد الثاني من «ايپوخا». صار هذا العدد هو الأخير ولم يتجدد الإصدار. ينسحب دوستويفسكي من لجنة الصندوق الأدبي. يلاحقه الدائنون.

عام 1866 بدأ نشر «الجريمة والعقاب» بدءاً من عدد كانون الثاني في «البشير الروسي».

4 تشرين الأول 1866 التعرف إلى آنّا غريغوريڤنا سنيتكينا ابنة العشرين، مستمعة إلى دروس الاختزال.

8 تشرين الثاني 1866 دوستويفسكي يطلب يد آنّا سنيتكينا.

15 شباط 1867 جرى زواج دوستويفسكي وآنّا في كاتدرائية ترويتسكي (اسماعيلوفا).

آذار 1867 صدور «الجريمة والعقاب» في طبعة منفصلة.

1867 يسافر دوستويفسكي وآنّا خارج البلاد.

1868 بدأ نشر رواية «الأبله» في العدد الأول من «البشير الروسي».

22 شباط 1868 صار لدى عائلة في جنيف ابنة سموها صوفيا.

12 آذار 1868 رحيل البنت.

كانون الثاني 1869 ينهي دوستويفسكي رواية «الأبله».

14 ايلول 1869 لدى العائلة ولدت في درسدن الابنة لوبوف.

21 تشرين الثاني 1869 بالقرب من موسكو في حديقة أكاديمية بتروف أقدم خمسة من أعضاء الجمعية السرية «التنكيل الشعبي» بزعامة س.ج. نيتشايف، أقدموا على قتل عضو الجمعية والمستمع في الأكاديمية ي.ي. ايڤانوف. شكلت هذه الحادثة الموضوع الظاهري في رواية دوستويفسكي «الشياطين».

كانون الثاني 1871 بدأ نشر «الشياطين» في «البشير الروسي» في الأعداد (1 ، 2 ، 4 ، 7 ، 9 – 11).

8 تموز 1871 تعود عائلة دوستويفسكي إلى بطرسبورغ.

16 تموز 1871 ولد لدى الأسرة في بطرسبورغ الابن فيودور. كاتكوف يرفض طباعة فصل «عند تيخون» المنضد في كانون الأول.

أيار 1872 ف. پيروف وبطلب من پ. تريتيكوف يرسم بورتريه دوستويفسكي.

تشرين الثاني – كانون الأول 1872 يتم نشر تتمة «الشياطين» في العددين 11، 12 بدون فصل «عند تيخون».

كانون الأول 1872 يلتزم دوستويفسكي برئاسة تحرير «المواطن». يبدأ نشر «يوميات كاتب». في نهاية كانون الثاني تصدر طبعة مستقلة من رواية «الشياطين».

عام 1874 صدور «الأبله» في طبعة منفصلة.

شباط 1874 دوستويفسكي يبدأ العمل على رواية «المراهق».

كانون الثاني 1875 بدأ نشر رواية «المراهق» في «المذكرات الوطنية» الأعداد (1 ، 2 ، 4 ، 5 ، 9 ، 11 ، 12).

10 آب 1875 ولد الابن ألكسي لدى عائلة دوستويفسكي في ستارايا روسّا.

كانون الثاني 1876 صدور طبعة منفصلة من « المراهق». بدأ دوستويفسكي نشر «يوميات كاتب».

كانون الأول 1877 انتخاب دوستويفسكي عضواً – مراسلاً في أكاديمية العلوم الامبراطورية – قسم اللغة الروسية وآدابها.

كانون الثاني 1878 دوستويفسكي يزور د.س. أرسينوف مربي الأميرين العظيمين سيرغي وباڤل الذي يعبّر باسم ألكسندر الثاني عن الرغبة بأن يتعرفا إلى الكاتب.

آذار 1878 يحصل دوستويفسكي على دعوة للمشاركة في المؤتمر الأدبي الدولي في باريس.

16 أيار 1878 يفارق ألكسي الحياة.

حزيران 1878 يسافر دوستويفسكي سوية مع فلاديمير سولوفيوف إلى صحراء أوبتينا. خلال السنة يعمل دوستويفسكي في كتابة رواية «الأخوة كارمازوف».

عام 1879 بدءاً من كانون الثاني بدأت في «البشير الروسي» طباعة «الإخوة كارامازوف» (الأعداد 1 ، 2 ، 4 ، 6 ، 8 – 11).

تموز 1879 يحصل دوستويفسكي على إعلام باختياره عضواً في اللجنة الفخرية للجمعية الأدبية الدولية (الرئيس الفخري فيكتور هيجو). جرى الانتخاب في جلسة المؤتمر الأدبي الدولي في لندن.

عام 1870 يستمر نشر رواية «الإخوة كارامازوف» (الأعداد 1 ، 4 ، 7– 11).

5 – 8 حزيران 1880 الاحتفال على شرف افتتاح النصب التذكاري لألكسندر بوشكين في موسكو.

8 حزيران 1880 دوستويفسكي يلقي كلمة عن بوشكين.

كانون الأول 1880 صدور طبعة منفردة من رواية «الإخوة كارامازوف».

26 كانون الثاني 1881 أول نزيف للدم في الحنجرة عند دوستويفسكي. تشخيص الطبيب الاختصاصي هو انفجار في العصب الرئوي.

28 كانون الثاني فارق فيودور ميخائيلوڤيتش دوستويفسكي الحياة في الساعة 8و36 دقيقة مساءً.

31 كانون الثاني 1881 خرج إلى النور إصدار كانون الثاني من «يوميات كاتب».

1 شباط 1881 الدفن في ألكسندرو – نيفسكايا لاڤرا في سانت – بطرسبورغ.

الفهرس

عن الكتاب 2
دوستويفسكي أيقونة وعي الذات 3
الشخصية ، الهيئة 14
الطبع 25
الإبداع 38
على المنصة 47
الأب والزوج 49
العادات 59
الهوايات والميول 65
المأكولات المفضلة 68
السكن 73
الصحة 82
الديون والايرادات 93
الأهل والأقارب ، الوالدان 101
الاخ ميخائيل 104
الزوجة الأولى ماريا ديمتريفنا 108
ابن الزوجة بافل ايسايف 112

الزوجة الثانية 116
الحياة والمصير ، الطفولة الموسكوفية 121
توديع الطفولة 128
في مدرسة الهندسة 131
مأساة عائلية 138
الطلة الأدبية الأولى 139
في حلقة بتراشيفسكي 153
الاعتقال والتحقيق والحكم 157
في سجن اومسك 187
في سيميبالاتنسيك 201
العودة إلى الأدب 218
السفرة الأولى خارج البلاد 226
عند تابوت الزوجة 240
صيف 1866 في لوبلينا 247
رواية المقامر والتعرف إلى آنا سنيتكينا 256
حب جديد وزواج ثان 264
مرة ثانية خارج البلاد والروليت 280
الخصام مع تورغينيف 293

1867 – 1868 جنيف، الأبله. ميلاد ورحيل الابنة صوفيا 297
1869 – 1870 درسدن، ميلاد الابنة لوبوف. رواية الشياطين 310
1871 – 1873 العودة إلى روسيا، ميلاد الابن فيديا "المواطن" 322
1874 – 1875 ستارايا روسا 328
1875 – 1878 ولادة ورحيل الابن ألكسي 337
1878 – عدم اللقاء مع ليون تولستوي 343
أحداث ولقاءات في شوارع بطرسبورغ 346
الاحتفالات البوشكينية لعام 1880 في موسكو 353
المرض الأخير والموت 370
الجنازة 380
المجد 397
ببلوغرافيا 403

مكتبة | 670
سُر مَن قرأ